مرتقى الوصول
مرتقى الوصول

شرح الثلاثة أصول
شرح الثلاثة أصول

شرحها

إسلام محمود دربالة

الثلاثة أصول

للإمام العلامة الشيخ

محمد بن عبدالوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم -رحمك الله- أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الأولى: العلم، وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثانية: العمل به. الثالثة : الدعوة إليه. الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

والدليل قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم {والعصر * إن الإنسان لفي خسـر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} [سورة العصـر، الآيات: 1-3].

قال الشافعي -رحمه الله تعالى-: "لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السـورة لكفتهم".

وقال البخاري: -رحمه الله تعالى-: (باب) العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك}. [سورة محمد: الاية19].

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

***

اعلم -رحمك الله- أنه يجب على كل مسلم ومسلمة: تعلم هـذه الـثلاث مسـائل، والعمل بن:

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخـل الجنة ومن عصاه دخل النار.

والدليل قوله تعالى: {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعـون رسولا * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذًا وبيلا} [سورة المزمل، الايتـان: 15، 16].

الثانية: أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

والدليل قوله تعالى: {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا}. [سورة الجن: الآيـة: 18].

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله، ولـو كان أقرب قريب.

والدليل قوله تعالى: {لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يـؤادون مـن حـاد الله ورسوله ولو كانوا آباؤهم أو أبناءهم أو إخوانم أو عشيرتم أولئك كتب في قلـوبم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} [سورة المادلـة، الآية: 22].

أعلم -أرشدك الله لطاعته- أن الحنفية ملة إبراهيم، أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال تعالى: {وما خلقت الجني والإنس إلا ليعبدون} [سورة الذاريات، الآية 56]، ومعنى {يعبدون} يوحدون وأعظم ما أمر الله به: التوحيد هو إفراد الله بالعبادة وأعظم ما نى عنه: الشرك، وهو دعوة غيره معه.

والدليل قوله تعالى: {وأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا} [سورة النساء، الآية: 36].

فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟

فقل: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمد ﷺ.

الأصل الأول: معرفة الرب:

فإذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه، وهـو معبودي ليس لي معبود سواه.

والدليل قوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين} [سورة الفاتحة، الآية: 2] وكل مـن سوى الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم.

فإذا قيل ذلك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليـل والنـهار والشمس والقمر، ومن مخلوقاته السموات السبع، والأرضون السبع، ومن فيهن ومـا بينهما.

والدليل قوله تعالى: {ومن آياته الليل والنهار والشـمس والقمـر لا تسـجدوا

للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون} [سورة فصلت، الآية: 37]. وقوله تعالى: {إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًـا والشـمس والقمـر والنجـوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} [سورة الأعراف، الآيـة: 54]. والرب هو: المعبود.

والدليل قوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قـبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء وأنزل من السماء مـا ء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون} [سورة البقـرة، الآيتان: 21، 22].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة".

وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل الإسلام، والإيمان، والإحسان ومنه الـدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشـوع، والخشـية، والإنابـة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها، كلها.

والدليل قوله تعالى: {وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحد} [سورة الجن، الآية: 18].

فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر.

والدليل قوله تعالى: {ومن يدع مع الله إلهًا آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون} [سورة المؤمنون، الآية: 117].

وفي الحديث: {الدعاء مخ العبادة}

والدليل قوله تعالى: {وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عـن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [سورة غافر، الآية:60].

ودليل الخوف قوله تعالى: {فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مـؤمنين} [سـورة آل عمران، الآية:175]

ودليل الرجاء قوله تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك

بعبادة ربه أحدًا} [سورة الكهف، الآية:110].
ودليل التوكل قوله تعالى: {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين} [سورة المائـدة، الآية:23]. وقوله: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} [سورة الطلاق، الآية: 3].
ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى: {إنم كانوا يسـارعون في الخـيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين} [سورة الأنبياء، الآية:90].
ودليل الخشية قوله تعالى: {فلا تخشوهم واخشوني} [سورة البقرة، الآية:150].
ودليل الإنابة قوله تعالى: {وأنيبوا إلى ربكـم وأسـلموا لـه} [سـورة الزمـر، الآية:54].
ودليل الاستعانة قوله تعالى: {إياك نعبد وإياك نستعين} [سورة الفاتحة، الآيـة:5].
وفي الحديث: "إذا استعنت فاستعن بالله.
ودليل الاستعاذة قوله تعالى: {قل أعوذ برب الناس} [سورة الناس، الآية:1].
ودليل الاستغاثة قوله تعالى: {إذا تستغيثون ربكم فاسـتجاب لكـم}. [سـورة الأنفال، الآية: 9].
ودليل الذبح قوله تعالى: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العـالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} [سورة الأنعام، الآيتان: 163، 164].
ومن السنة: "لعن الله من ذبح لغير الله" (1).
ودليل النذر قوله تعالى: {يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرا} [سـورة الإنسان، الآية:7].
الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة:
وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، و البراءة من الشرك وأهلـه، وهو ثلاثة مرتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وكل مرتبة لها أركان.
المرتبة الأولى:
فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـدًا رسـول الله، وإقـام

---

(1) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي (1978) من باب تحريم الذبح لغير الله تعالى، ولعن فاعله.

الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

فدليل الشهادة قوله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} [سورة آل عمران، الآية: 18].

ومعناها: لا معبود بحق إلا الله وحده. "لا إله" نافيًا جميع ما يعبد من دون الله.

"إلا الله" مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه.

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مـما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون} [سورة الزخرف، الآيات: 26-28].

وقوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشـهدوا بأنا مسلمون} [سورة آل عمران، الآية: 64].

ودليل شهادة أن محمد رسول الله قوله تعالى: {لقد جاءكم رسول مـن أنفسـكم عزيز عليه ما عنتم حريص علـيكم بـالمؤمنين رؤوف رحـيم} [سـورة التوبـة، الآية:128].

ومعنى شهادة أن محمد رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: {وما أمـروا إلا ليعبـدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمـة} [سـورة البينة: الآية: 5].

ودليل الصيام قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون} [سورة البقرة، الآية: 183].

ودليل الحج قوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومـن كفر فإن غني عن العالمين} [سورة آل عمران، الآية:97].

المرتبة الثانية:

الإيمان: وهو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.

وأركانه ستة: أن نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى:

{ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [سورة البقرة، الآية: 177].

ودليل القدرة قوله تعالى: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} [سورة القمر، الآية:49].

المرتبة الثالثة:

الإحسان: ركن واحد، وهو "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

والدليل قوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} [سورة النحل، الآية: 28]. وقوله تعالى: {وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم} [سورة الشعراء، الآيات: 217-220]. وقوله تعالى: {وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه}. [سورة يونس، الآية: 61].

والدليل من السنة: حديث جبريل المشهور(1) عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: بينا نحن جلوس عند النبي ﷺ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه من أحد، فجلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. فقال: "أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً". قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: أخبرني عن الإيمان. قال: "أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره" قال: أخبرني عن الإحسان، قال: "أن تعبد الله

---

(1) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان (1) (8) باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". قال: أخبرني عن الساعة قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل". قال: أخبرني عن أماراتها. قال: "أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان" قال: فمضى: فلبثنا مليًا. فقال: "يا عمر أتدرون من السائل؟" قلنا: الله ورسوله اعلم. قال: "هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".

الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد ﷺ،

وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم. وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن الخليل، عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام. وله من العمر ثلاثة وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاثة وعشرون نبيًا ورسولاً. نبئ بـ {اقرأ} وأرسل بـ {المدثر}. وبلده مكة، بعثه الله بالنذارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد. والدليل قوله تعالى: {يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر} [سورة المدثر، الآيات: 1-7].

ومعنى {قم فأنذر} ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد {وربك فكبر} عظمه بالتوحيد {وثيابك فطهر} أي: طهر أعمالك عن الشرك {والرجز فاهجر} الرجز: الأصنام، وهجرها تركها وأهلها والبراءة منها وأهلها، أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عرج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة.

والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة: والدليل قوله تعالى: {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًا غفورًا} [سورة النساء، الآيات: 97-99]. وقوله تعالى: {يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون} [سورة العنكبوت، الآية: 56].

قال البغوي -رحمه الله-: "سبب نزول هذه الآية في المسلمين الـذين في مكـة لم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان".

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبـة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها" (1).

فلما استقر في المدينة، أمر ببقية شرائع الاسلام، مثل الزكاة، والصـوم والحـج، والأذان، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلـك مـن شـرائع الإسلام. أخذ على هذا عشر سنين. وبعدها توفي، صلاة الله وسلامه عليه، ودينه باق.

وهذا دينه لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه، والخير الـذي دلهـا عليه: التوحيد، وجميع ما يحبه الله ويرضاه. والشر الذي حذرها منه: الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه. بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض طاعته على جميع الـثقلين: الجـن والأنس.

والدليل قوله تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسـول الله إلـيكم جميعًـا} [سـورة الأعراف، الآية:158] وكمل الله به الدين.

والدليل قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا} [سورة المائدة، الآية:3].

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: {إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامـة عند ربكم تختصمون} [سورة الزمر، الآيتان:31،30]. والناس إذا ماتوا يبعثون.

والدليل قوله تعالى: {منها خلقناكم وفيه نعيدكم ومنها نخرجكم تـارة أخـرى} [سورة طه، الآية:55]. وقوله تعالى: {والله أنبتكم من الأرض نباتًا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجًا} [سورة نوح، الآيتان: 17، 18]. وبعد البعث محاسبون ومجزيـون بأعمالهم.

والدليل قوله تعالى: {ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بمـا عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} [سورة النجم، الآية: 31]. ومن كذب بالبعث

---

(1) أخرجه أحمد (99/4)، وأبوداود كتاب الجهاد (2479)، وهو في صحيح الجامع (7436).

كفر.

والدليل قوله تعالى: {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتبون بما عملتم وذلك على الله يسير} [سورة التغابن، الآية:7].

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين.

والدليل قوله تعالى: {رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [سورة النساء، الآية: 165].

وأولهم نوح عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين.

والدليل على أن أولهم قوله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} [سورة النساء، الآية: 163]. وكل أمة بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت.

والدليل قوله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [سورة النحل، الآية:36]. وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع".

والطواغيت كثيرون، رؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عبد وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن أدعى شيئًا من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله.

والدليل قوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والهل سميع عليم } [سورة البقرة، الآية:256]. وهذا هو معنى "لا إله إلا الله".

وفي الحديث: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله".

*****

مرتقى الوصول

"الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ولا إله إلا الله إله الأولين والآخرين وقيوم السماوات والأرضين، ومالك يوم الدين، الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته، ولا هدى إلا في الاستهداء بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعيم إلا في قربه، ولا صلاح للقلب ولا فلاح إلا في الإخلاص له، وتوحيد حبه، الذي إذا أطيع شكر، وإذا عصي تاب وغفر وإذا دُعي أجاب، وإذا عومل أثاب.

والحمد لله الذي شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته وأقرت له بالإلهية جميع مصنوعاته، وشهدت بأنه الذي لا إله إلا هو بما أودعها من عجائب منفعته، وبدائع آياته، وسبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، ولا إله إلا الله وحده، لا شريك له في إلهيته، كما لا شريك له في ربوبيته، ولا شبيه له في ذاته ولا في أفعاله ولا في صفاته، والله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وسبحان من سبحت له السماوات وأملاكها، والنجوم وأفلاكها، والأرض وسكانها، والبحار وحيتانها، والنجوم والجبال، والشجر والدواب، والآكام(1) والرمال، وكل رطب ويابس، وكل حي وميت {تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفورًا} [الإسراء: 44].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسماوات وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال

---

(1) الآكام على وزن أعناق، وإكام على وزن جبال: التلال والروابي.

والحساب، و عليها يقع الثواب والعقاب وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنها يُسأل الأولون والآخرون، فلا تزول قدم العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأولى بتحقيق "لا إله إلا الله" معرفة وإقرارًا وعملاً.

وجواب الثانية بتحقيق "أن محمدًا رسول الله" وإقرارًا، وانقيادًا وطاعة.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، المبعوث بالدين القويم، والمنهج المستقيم، أرسله الله رحمة للعالمين، وإمامًا للمتقين، وحجة على الخلائق أجمعين.

أرسله على حين فترة من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل وافترض على العباد طاعته وتعزيره وتوقيره ومحبته والقيام بحقوقه، وسد دون جنته الطرق ، فلن تفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره"(1).

ثم أما بعد:

فلا يخفى على كل طالب علم ما لكتاب "الأصو ل الثلاثة" للإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب – رحمه الله تعالى-، ولهذا الكتاب صلة وثيقة بي ولي به علاقة ليست باليسيرة فما زلت منذ بدايات أيام الطلب أسمع مشايخنا يوصون بحفظه وتدارسه فأقبلت عليه حفظًا وتكرارًا ودراسة ومدارسة ثم من الله عز وجل علي أن تدارسته مع بعض إخواني من الراغبين في التعريف على عقيدة السلف الصالح، حيث اقترحت عليهم تدارسه كبداية ومدخل لتعلم "علم التوحيد".

وقد احتلت "الأصول الثلاثة" مكانة عالية رفيعة منذ أن ألفها الإمام المجدد محمد

---

(1) من مقدمة "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن القيم"رحمه الله".

بن عبدالوهاب رحمه الله ومازالت تحتفظ بهذه المكانة حتى أيامنا هذه.

وقد تعددت مظاهر اهتمام أهل العلم بهذه الرسالة المباركة فمن شارح لها ومن محش عليها.

وما زال كثير من أئمة المساجد في الكثير من ديار التوحيد يقرأونها عقب الصلوات في المساجد لما امتازت به من يسر وسهولة في توضيح حقيقة التوحيد وقضاياه الرئيسية.

وقد استخرت الله عز وجل في نشر هذا الشرح وطبعه عسى الله أن ينفع به، وأن يجعله ذخرًا لي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وإني سائلٌ كل من اطلع على خلل في هذا الشرح يقدح في الاعتقاد أو يخالف ما عليه السلف الأبرار، أن يبادر بإصلاحه، ولا يبخلن على أخيه بالنصيحة فإن الأمر دين.

أما ما سوى ذلك من الخلل من أسلوب غيره أولى أو طريقة في الشرح ليست هي المثلى فلينظر إليها بعين الرفق، فإن الشرح قد كتب على عجالة، مع قلة البضاعة، وعدم التمرس في هاتيك الصناعة.

"فيا أيها الناظر فيه لك غُنمه وعلى مؤلفه غُرمه، ولك صفوه وعليه كدره، وهذه بضاعته المزجاة تعرض عليك، وبنات أفكاره تزف إليك فإن صادفت كفؤًا كريمًا لم تعدم منه إمساكًا بمعروف أو تسريحًا بإحسان، وإن كان غير ذلك، فالله المستعان، فما كان من صواب فمن الواحد المنان، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله" (1).

وقد قدمت الشرح بمقدمة في تعريف التوحيد وفضله وأهميته، وأقسامه، ثم عرفت بالشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- وبدعوته المباركة

---

(1) من مقدمة ابن القيم لكتابه "حادي الأرواح".

بإيجاز ثم شرعت في الشرح، ومن الله وحده أستمد التوفيق والسداد.

ترجمة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

(1115 – 1206 هـ)

- هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب التميمي النجدي.
- ولد في بلدة العينية سنة (1115 هـ).
- تلقى علومه الأولى على والده، حيث درس عليه شيئًا من الفقه الحنبلي والتفسير والحديث.
- ذهب إلى مكة حاجًا، ثم سار إلى المدينة للتزود بالعلم الشرعي. وفيها التقى بشيخه محمد حياة السندي (ت – 1165) صاحب الحاشية على صحيح البخاري، وكان تأثره به عظيمًا.
- ثم عاد إلى بلده العينية، ثم قام بعدة رحلات للقاء أهل العلم.
- توجه إلى العراق عام (1136 هـ) وزار البصرة وبغداد والموصل.
- غادر البصرة مضطرًا إلى الأحساء ثم إلى حُريملاء حين انتقل إليها والده الذي كان يعمل بالقضاء.
- وفي حريملاء بدأ بنشر دعوة التوحيد وجاهر با وذلك سنة (1143 هـ) ، لكنه ما لبث أن غادرها بسبب تآمر نفر من أهلها عليه لقتله.
- توجه إلى العيينة وعرض دعوته على أميرها عثمان بن معمر، الذي قام معه بدم القبور والقباب، وأعانه على رجم امرأة زانية جاءته معترفة بذلك.
- أرسل أمير الأحساء عريعر بن دجين إلى أمير العيينة يأمره فيها بأن يمنع الشيخ عن الدعوة، فغادر الشيخ البلدة كي لا يحرج أميرها.
- توجه إلى الدرعية مقر إمارة آل سعود ونزل على محمد بن سويلم عام

وعلم محمد بن سعود الذي حكم خلال الفترة (1139 – 1179 هـ) بمقدم الشيخ .

- جاء ابن سعود إلى الشيخ مرحبًا به وعاهده على حمايته وتأييده وجرى بينهما الحوار التالي الذي نذكره لأهميته:

الأمير: أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة.

الشيخ: وأنا أبشرك بالعز والتمكين، وهذه كلمة لا إله إلا الله، من تمسك بـها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد، وهي كلمة التوحيد وهي ما دعا إليهـا رسل الله كلهم، فالأرض لله يرثها عباده المسلمون ثم اشترط الأمير علـى الشـيخ شرطين:

1- أن لا يرتحل عنهم، وأن لا يستبدل بهم غيرهم.

2- أن لا يمانع الشيخ في أن يأخذ الحاكم وقت الثمار ما اعتاده على أخذه من أهل الدرعية.

- أما عن الشرط الأول فقد قال له الشيخ: ابسط يدك أبايعك... الدم بالـدم والهدم بالهدم.

- وأما عن الشرط الثاني فقد قال له: لعل الله أن يفتح لك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ما هو خير منها.

- مضى الأمير محمد بن سعود في نشر الدعوة في ربوع نجد، ولما توفى الأمـير خلفه ابنه عبد العزيز بن محمد (1111 – 1218 هـ) ليتابع مناصرة الدعوة مع الشيخ الذي توفاه الله في الدرعية سنة (1206 هـ) وفيها دفن.

حقيقةالدعوة السلفية

وأثرهـ ـ ـ ـا

إن السلفية هي العودة بالأمة إلى الكتاب والسنة على منهج السلف الصالح، في

العقيدة والعمل، والسياسة والاجتماع، و المعيشة والاقتصاد، وغيرها من نـواحي الحياة.

وهي تمثل تعاليم الإسلام النقية من أكدار الجمود والركود، والشرك والوثنيـة، والبدع والأهواء، والخرافات والأوهام، والعادات والتقاليد.

وهي تعبير دقيق عن الإسلام الخالص، الخالي من هذه الشوائب كلها.

ولم يخل أي عصر من عصور التاريخ من القرون المشهود لها بالخير حتى الآن من حملة المذهب السلفي، الذي هو التعبير الأدق عن الاعتصام بالكتاب والسنة عقيدة وعملاً ومنهجًا وسلوكًا.

ولقد استفاد العالم الإسلامي من دعوة الإمـام محمـد بـن عبـدالوهاب (ت 1206هـ) في القرن الثاني عشر، التي كانت تتجه إلى هذا الاتجاه المستقيم، وتـأثر بها قادة الإصلاح، ورجال الدعوة في الأقطار الإسلامية، ووجدت آذانا صـاغية في الأوساط المتفهمة في كثير من بلاد آسيا وإفريقيا.

قال الزركلي:

"وكانت دعوته الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله، تأثر بـها رجال الإصلاح في الهند، ومصر، و العراق، و الشام، وغيرها".

دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب (1115 – 1206هـ)

كان الإمام العلامة الشيخ محمد بن عبدالوهاب (1115 – 1206 هـ ـ) - رحمه الله تعالى- من الأئمة المهتدين، والدعاة المخلصين الذين وفقهم الله تعالى للدعوة والإصلاح في الأوساط التي تتحكم فيها البدع والخرافات، و العادات والتقاليد.

ولقد جدد إمام الدعوة محمد بن عبدالوهاب ما اندرس من معـالم الإسـلام في القرن الثاني عشر الهجري، وكان مخلصًا في الدعوة إلى الكتاب والسنة، وموفقـًا في نشرها رغم أنوف خصومه، فبارك الله فيها، وانتشرت في مشارق الأرض ومغاربا

كالنار في الهشيم. وما نرى من يقظة إسلامية مستقيمة في أقطار العالم، يرجع فضلها – بعد الله تعالى – إلى هذه الدعوة المباركة.

المباديء الحقيقية لهذه الدعوة:

تتلخص هذه المباديء في النقاط التالية(1):

* توحيد الله تعالى في عبادته، وتوحيده في ربوبيته، وتوحيده في أسمائه وصـفاته، وإقرار هذا المبدأ قولاً وعملاً والبعد عن جميع مظاهر الشرك والوثنيـة، و الـرفض التصوف، والإلحاد والزندقة، التي تُكدر نقاوة الإسلام، وتشوه جماله.

* التمسك بمنهج السلف المبني على الكتاب والسنة في العقائد والأحكام، مـع تقرير مبدأ الاجتهاد، والرد على التقليد الأعمى.

* الجهاد في سبيل الله، لنشر الدعوة حينًا، ولحمايتها حينًا آخر.

مصادر هذه الدعوة:

"وقد اعتمد الشيخ محمد بن عبدالوهاب في دعوته على ثلاثة مصادر هامة:

أولها: القرآن الكريم.

ثانيها: السنة النبوية.

ثالثها: آثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة الأعلام، خاصة الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الإمام ابـن قـيم الجوزية" (2).

---

(1) راجع "حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأثرها في العالم الإسلامي" للدكتور محمد بن عبدالله السلمان (130 – 137) المنشور في "مجلة البحوث الإسلامية" بالرياض. العدد الحادي والعشرون 1408 هـ و "الشيخ محمد بن عبدالوهاب" للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي (134 – 135) طبعة السلفية - بالكويت 1983.

(2) حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - للسلمان (127-128).

غاية هذه الدعوة:

غاية هذه الدعوة هي إعادة الإسلام إلى نقاوته الأولى، وإزالة أنقاض البدع والخرافات التي غشيت العقيدة الصحيحة.

وقد اعترف بهذه الحقيقة المستشرقون من أعداء الإسلام، فضلاً عن خصوم هذه الدعوة من المسلمين.

قال غولدتسيهر- المستشرق المجري اليهودي - في كتابه "العقيدة والشريعة":

"... يجب على من ينصب نفسه للحكم عند الحوادث الإسلامية أن يعتبر الوهابيين أنصارًا للديانة الإسلامية، على الصورة التي وضعها النبي والصحابة، فغاية الوهابية هي إعادة الإسلام كما كان" (1).

وجاء في "دائرة المعارف البريطانية":

"الوهابية: اسم الحركة التطهير في الإسلام، والوهابيون يتبعون تعاليم الرسول وحده، ويهملون كل ما سواها. وأعداء الوهابية هم أعداء الإسلام الصحيح" (2).

والفضل ما شهدت به الأعداء

لقب هذه الدعوة:

إن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوة سلفية، وليست دعوة شخصية فتسمى بالوهابية. وكذلك أنصارها سلفيون، وليسوا بالوهابيين.

"إن لقب "الوهابية" لقب لم يختره أتباع الدعوة لأنفسهم، لكنه أطلق من قبل خصومهم على اختلافهم، تنفيرًا للناس منهم، وإيهامًا للسامع أنهم جاءوا بمذهب خامس يخالف المذاهب الإسلامية الأربعة الكبرى.

واللقب الذي يرضونه، ويسمون به هو (السلفيون)، ودعوتهم (الدعوة

---

(1) "الشيخ محمد بن عبدالوهاب" لابن حجر آل بوطامي (ص 154).

(2) المصدر نفسه (ص 155).

السلفية)"[1].

أثر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الدعوة:

كانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر، امتدادًا لـدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن. وقد تأثر بها الإمـام لموافقتها مع أصول الإسلام في العقائد والأحكام. واعتنى بكتب شـيخ الإسـلام وبكتب تلميذه ابن القيم اعتناءً كاملاً، فأجاد وأفاد. رحمهم الله تعالى أجمعين.

ولقد أبرز الكتاب المسلمون وغيرهم من المستشرقين في كتاباتهم صلة الإمام ابن عبدالوهاب بدعوة شيخ الإسلام بأهمية بالغة.

ذكر العلامة الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي تصريحات كثير منها بهذا الصدد.

* قال عبدالمتعال الصعيدي في كتابه "المجددون في الإسلام":

"... أخذ يدعو مثل ما دعا إليه ابن تيمية قبله، من التوحيد بالعبادة لله وحـده" [2].

* وقال الأمير شكيب أرسلان في الجزء الرابع من "حاضر العالم الإسلامي" تحت عنوان "تاريخ نجد الحديث":

"... وتشرب مبادىء الحافظ حجة الإسلام ابن تيمية... وأخذ يفكر في إعـادة الإسلام لنقاوته الأولى... ولا أظنه أورد ثمة شيئًا غير ما أورده ابن تيمية" [3].

---

(1)حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - للسلمان (126 – 127)، نقلاً عن حسن بن عبدالله آل الشيخ في مقاله "الوهابية وزعيمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب" المنشور في مجلة العربي الكويتية (ص 26) العدد (147) فبراير 1971م. – وعن أحمد على في كتابه "آل سعود" (ص 212).

(2) "الشيخ محمد بن عبد الوهاب" لابن حجر آل بوطامي (ص 121).

(3) المصدر المتقدم (118-119).

*** وقال حافظ وهبة في كتابه "جزيرة العرب":**

"... وتكاد تكون تعاليمهم مطابقة تمام المطابقة لما كتبه ابن تيميـة وتلاميـذه في كتبهم، وإن كانوا يخالفونه في مسائل معدودة في فروع الدين" (1).

*** وقال منهج هارون في الرد على الكاتب الإنجليزي (كونت ويلز):**

"... كل ما قاله الشيخ ابن عبدالوهاب قال به غيره ممن سبقه من الأئمة الأعلام ومن الصحابة الكرام. ولم يخرج في شيئ عما قاله الإمام أحمد وابن تيميـة رحمهـا الله"(2).

*** وقال محمد ضياء الدين الريس:**

"... وابن تيمية هو الأستاذ المباشر لابن عبدالوهاب، وإن فصل بينـهما أربعـة قرون. فقد قرأ كتبه، وتأثر كل التأثر بتعاليمه" (3).

*** وقال "بروكلمان" في تاريخ "الشعوب الإسلامية":**

"... وفي بغداد درس محمد فقه أحمد بن حنبل... ثم إنه درس مؤلفات أحمد بـن تيمية الذي كان قد أحيا في القرن الرابع عشر تعاليم ابن حنبل.

والواقع أن دراسته لآراء هذين الإمامين انتهت به إلى الإيقان من أن الإسلام في شكله السائد في عصره - وبخاصة بين الأتراك - شرب بالمساويء التي لا تمت إلى الدين الصحيح بنسب" (4).

*** وقال أحمد أمين:**

"..... اقتفى في دعوته وتعاليمه عالمًا كبيرًا ظهر في القرن السابع الهجري في عهد

---

(1)المصدر المتقدم (ص 126).

(2)المصدر المتقدم (ص 127).

(3)المصدر المتقدم (ص 134).

(4)المصدر المتقدم (ص 143).

السلطان الناصر هو: ابن تيمية... وهو كان يقول بالاجتهاد، وكان حر التفكير في حدود الكتاب والسنة...

فيظهر أن محمد بن عبدالوهاب عرف ابن تيمية... فكان إمامه، ومرشده، وباعث تفكيره، والموحي إليه بالاجتهاد، و الدعوة إلى الإصلاح" (1).

* وقال ماجد عرسان الكيلاني:

"... أما في الجزيرة العربية، فقد وجدت روح تعاليم ابن تيمية تعبيرها الأكمل في حركة التوحيد التي بدأها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولعبت دورًا حاسمًا في تاريخ المملكة العربية السعودية، وما جاورها من الأقطار العربية والإسلامية"(2).

وقد وضع الكتاب الصلة الحقيقية بين الإمامين. وجاء مستشرق فرنسي فبين صلتهما في لغة العصر، بأسلوبه الخاص فقال:

"ابن تيمية وضع ألغامًا في الأرض، فجر بعضها ابن عبدالوهاب وبقي بعضها لم يفجر".

أثر هذه الدعوة:

لقد انتشرت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب انتشارًا واسعًا، وتأثر بها كثير من الدعاة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي شرقًا وغربًا. وقامت الثورات على أيديهم ضد البدع والتقاليد التي كانت تسود المجتمع المسلم(3).

* قال "الزركلي" في "الأعلام":

---

(1) زعماء الإصلاح (ص15)

(2) الفكر التربوي عند ابن تيمية (ص 9).

(3) راجع انتشار هذه الدعوة في العالم حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - للسلمان(140 – 149). " والشيخ محمد بن عبد الوهاب" لابن حجر آل بوطامي (102-107).

"وكانت دعوته الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله، تأثر بـها رجال الإصلاح في الهند، ومصر، و العراق، والشام، وغيرها..."(1).

وقال عبدالكريم الخطيب في كتابه "محمد بن عبد الوهاب":

"والذي لا شك فيه أن الدعوة الوهابية كانت أشبه بالقذيفة الصارخة تتفجر في جوف الليل والناس نيام.

كانت صوتًا قويًا راعدًا أيقظ المجتمع الإسلامي كله، وأزعج طائر النوم المحـوم على أوطانهم منذ أمد بعيد" (2).

* وقال محمد ضياء الدين الريس:

"وهذه الحركة كانت نهضة أخلاقية شاملة، ووثبة روحية جريئة، ودعوة إلى دين الحق والإصلاح...

والواقع أن كل حركات الإصلاح التي ظهرت في الشرق في القـرن التاسـع عشر، كانت مدينة للدعوة الوهابية لتقرير هذه الأصول.

ويمكن تحديد الصلة بينها وبين كل من هذه الحركات إما عن طريق الاقتباس، أو المحاكاة، أو مجرد التأثر" (3).

* وقال محمد إقبال:

"إنها أول نبضة حياة في تاريخ المسلمين الحديث، وأن آثارها قد استلهما بشكل مباشر، أو غير مباشر جميع الحركات الإصلاحية في العالم العربي، وفي الهند، وإفريقيا وغيرها" (4).

---

(1) "الشيخ محمد بن عبد الوهاب" (ص 131).

(2) المصدر المتقدم (ص 136).

(3) المصدر المتقدم (134 – 135).

(4) "الفكر التربوي" (9 – 10).

انتشار هذه الدعوة:

قيض الله تعالى لهذه الدعوة حملتها المخلصين، فقاموا بنشرها، حتى تعدت حدود نجد والحجاز، وتلقاها المسلمون بالإعجاب والقبول لموافقتها أصول الإسلام علـى منهج السلف الصالح، وبعدها عن البدع والخرافات، والعادات والتقاليد التي كانت تعتبر دينًا، وكان الخروج عليها جريمة. ووصل صداها إلى كثير من البلاد الآسيوية والإفريقية:

مثل اليمن، وأطراف الجزيرة، والعراق، والشام، وفارس، وشبه القارة الهنديـة، والتركستان، والصين، وجاوه، وسومطره، وإندونيسيا، وغيرها من بلاد آسيا.

ومثل مصر، وليبيا، والجزائر، والسودان، وغرب إفريقيا وغيرها من المنـاطق في بلاد إفريقيا(1).

هناك عدة عوامل ساعدت على انتشارها خارج الجزيرة ومنها:

*** طبيعة الدعوة، وكون مبادئها توافق الفطرة السليمة، وكونها سهلة الفهم، بعيدة عن التعقيدات والأمور الفلسفية، لأنها هي الإسلام بعينه.**

*** صاحب الدعوة، وقوة إيمانه بدعوته، وجهاده في سبيل نشرها.**

*** القوة السياسية للدعوة، التي تتمثل في الدولة السعودية الأولى والأخيرة.**

*** بيئة الدعوة (نجد) من حيث بساطة أ هلها، وتقشفهم أعدهم لتحمل مشـاق نشر الدعوة.**

*** دور علماء الدعوة، وقيامهم بنشر مبادئها بكل رغبة وإخلاص.**

*** عصر الدعوة: من حيث ما أصاب المسلمين فيه من انحراف ديني، وتـدهور سياسي بالإضافة إلى تقهقره الاجتماعي، وتخلفه الاقتصادي ما جعل الدعوة أمـام الناس المنقذ الوحيد لهم من هذه الأزمات.**

---

(1) "الشيخ محمد بن عبد الوهاب" لابن حجر آل بوطامي (102 – 107).

* موسم الحج أكبر وسيلة لنشر مبادئ الدعوة.

* العلاقات التجارية التي قامت بين أتباع الدعوة وغيرهم.

* دور خصوم الدعوة، الذين لفتوا أنظار الناس إليها من حيث لا يريدون كما قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
ولولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف فصل طيب العود

باجتماع هذه العوامل وتكاتفها صار للدعوة رصيد كبير من الأنصار والمؤيدين في كل بلاد العالم شرقًا وغربًا(1).

ولما اتصلت دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية بحياة الإمام محمد بن عبد الوهاب، انتشر فضلها وعم خيرها في مشارق الأرض ومغاربها.

{ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون} [إبراهيم: 24 – 25].

الأصول العلمية للدعوة السلفية:

"فحوى هذه الدعوى يدل أنا امتداد لدعوة الإسلام الأولى، لأنا تبغي الرجوع إلى الكتاب والسنة، وفهمهما على النهج القويم الذي كان عليه السلف الصالح..." (2).

ولخص فضيلة الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق هذه الأصول في ثلاث نقاط جامعة:

1- التوحيد.

2- الاتباع.

---

(1)حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - للسلمان (141 – 149). نقلاً عن حسين بن غنام في "روضة الأفكار والأفهام" (34/1).

(2) " الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة" لسليم الهلالي وزياد الديبج (ص 171).

3- التزكية.

وبين أهداف الدعوة السلفية فقال:

وها هي أهداف هذه الدعوة التي هي نفسها أهداف الدعوة الإسلامية:

أولاً: إيجاد المسلم الحقيقي.

ثانيًا: إيجاد المجتمع المسلم.

ثالثًا: إقامة الحجة لله.

رابعًا: الإعذار إلى الله بأداء الأمانة".

ومميزات هذه الدعوة: (1) تحقيق التوحيد. (2) تحقيق الوحدة. (3) تيسير فهم الإسلام[1].

خلاصة هذه الدعوة:

1- الرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة، وفهمهما على النهج الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

2- تعريف المسلمين بدينهم الحق، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه، وأحكامه، والتحلي بفضائله وآدابه التي تكفل لهم رضوان الله، وتحقق لهم السعادة والمجد.

3- تحذير المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره، ومن البدع والأفكار الدخيلة، والأحاديث المنكرة والموضوعة التي شوهت جمال الإسلام وحالت دون تقدم المسلمين.

4 – إحياء التفكير الإسلامي الحر في حدود القواعد الإسلامية.

5- إزالة الجمود الفكري الذي ران على عقول كثير من المسلمين، وأبعدهم عن منهل الإسلام الصافي.

6- السعي نحو استئناف حياة إسلامية، وإنشاء إسلامي، وتطبيق حكم الله في

---

(1) راجع التفصيل في "الأصول العلمية للدعوة السلفية" للشيخ عبدالرحمن.

الأرض.

وهذه الأمور لا تتحقق إلا بالأمور التالية:

*** التصفية:**

1- تصفية العقيدة الإسلامية من آراء فرق الضلالة.

2- تصفية المذاهب الإسلامية من الاجتهادات المخالفة لقول الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ.

3- تصفية كتب التفسير والحديث مما خالطها وشوه جمالها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات الساقطة.

*** فتح باب الاجتهاد:**

لإحياء التفكير الإسلامي الحر لابد من فتح باب الاجتهاد، لأنه مصدر هام من مصادر الشريعة.

*** نشر الوعي الإسلامي الصحيح:**

يبدأ بالتوحيد بالمفهوم السلفي الذي يتناول توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وكذلك يركز على إفراد رسول الله بالاتباع، تحقيقًا لمعنى "لا إله إلا الله محمد رسول الله" (1).

---

(1) "الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة" لسليم الهلالي وزياد الدبيج (171 – 177) باختصار..

مقدمة في التعريف بالتوحيد

تعريف التوحيد:

أهل العلم تارة يطلقون على مسائل الإسلام والإيمان والإحسان ولوازمهم ونواقضهم اسم العقيدة وتارة يسمونها مسائل التوحيد.

أما التوحيد في اللغة: فهو الإفراد، ولا يكون الشيء مفردًا إلا بأمرين :

1- الإثبات التام.

2- النفي العام.

فلو قلت: زيد قائم، لم تفرده، لاحتمال أن يكون غيره قائمًا أيضًا.

لكن إن قلت: ما قائم إلا زيد، فقد أفردته؛ بإثباتك القيام التام له، ونفيك العام للقيام عن غيره.

والتوحيد شرعًا هو: إفراد الله عز وجل بحقوقه ولله عز وجل ثلاثة حقوق:

1- حقوق الملك (الربوبية).

2- حقوق العبادة (الألوهية).

3- حقوق أسماء وصفات.

وبعض أهل العلم يعرفه فيقول: هو اعتقاد أن الله هو الخالق الرازق المدبر وأنه المستحق للعبادة وحده المتصف بصفات الجلال والكمال.

أهمية التوحيد:

1- التوحيد هو الغاية من خلق العالم قال عز وجل {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: 56].

2- أن الله عز وجل أرسل الرسل ليدعوا إلى التوحيد قال عز وجل: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء:].

وقال سبحانه وتعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا

الطاغوت} [النحل: 36].

3- مكث النبي صص في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعوا قومه إلى توحيد الله ودعائه وحده دون سواه.

4- كان النبي صص يربي أتباعه على التوحيد منذ الصغر ففي حديث ابن عباس عند الترمذي: "يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك...".

وفيه: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله"(1).

5- علم الرسول ﷺ أصحابه أن يبدأوا دعوتم للناس بالتوحيد، فقال لمعاذ حين أرسله إلى اليمن: "فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله" وفي رواية إلى أن يوحدوا الله(2).

قال الشيخ حافظ الحكمي، في سلم الوصول:

أول واجب على العبيد	معرفة الرحمن بالتوحيد
إذ هو من كل الأوامر أعظم	وهو نوعان أيا من يفهم
إثبات ذات الرب جل وعلا	أسمائه الحسنى وصفاته العلى
وأنه الرب الجليل الأكبر	الخالق الباريء والمصور
باري البرايا منشيء الخلائق	مبدعهم بلا مثال سابق

إلى أن قال:

هذا وثاني نوعي التوحيد	إفراد رب العرش عن نديد
أن تعبد الله إلهًا واحدًا	معترفًا بحقه لا جاحدًا
وهو الذي به الإله أرسلا	رسله يدعون إليه أولاً
وأنزل الكتاب والتبيانا	من أجله وفرق الفرقانا
وكلف الله الرسول المتبى	قتال من عنه تولى وأبى
حتى يكون الدين خالصًا له	سرًا وجهرًا دقه وجله
وهكذا أمته قد كلفوا	بذا وفي نص الكتاب وصفوا

---

(1) رواه الترمذي .

(2)متفق عليه.

قال ابن القيم رحمه الله:

"واعلم أن التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه؛ نوعان:

1- توحيد في المعرفة والإثبات. 2- توحيد في المطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوه فوق سماواته على عرشه وتكمله بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جـد الإفصـاح،كما في أول سـورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها. وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة {قل يا أيها الكافرون} وقوله: {قل يا أهـل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم... الآية} وأول سورة تنزيـل الكتـاب، وآخرها، وأول سورة يونس، ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرهـا، وجملة سورة الأنعام.

وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد.

بل نقول قولاً كليًا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به داعية إليه.

فإن القرآن؛ إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو التوحيـد العلمـي الخبري.

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونـه، فهـو التوحيد الارادي الطلبي.

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته. وما فعل بهـم في الـدنيا، ومـا يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم

في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ {الحمد لله} توحيد {رب العالمين} توحيد {الرحمن الرحيم} توحيد {مالك يوم الدين} توحيد {إياك نعبد} توحيد {وإياك نستعين} توحيد {إهدنا الصراط المستقيم} توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} الذين فارقوا التوحيد"(1) اهـ.

قال عز وجل: {شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام}.

قال ابن القيم: تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، و الرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، و الحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية أجل شهادة، وأعظمها،وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود به.

وعبارات السلف في شهد تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار، قال مجاهد: حكم وقضى، وقال الزجاج: بين، وقالت: طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها، فإن "الشهادة" تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله. وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه، فلها أربع مراتب:

أول مراتبها: علم ومعرفة. واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يعلم به غيره. بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها وينطبق بها أو يكتبها .

---

(1)تذيب المدارج (ص 661).

وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به ويخبره به ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونا ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط تضمنت هـذه المراتـب الأربعة(1).

فضل التوحيد :

1- من فضائله أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الـدنيا والآخـرة ودفـع عقوبتهما .

2- أنه سبب الأمن في الدنيا والآخرة

قال عز وجل: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمـن وهـم مهتدون} [الأنعام: 82].

3- التوحيد سبب في دخول العبد الجنة وبعده عن النار. عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"(2)

4- أنه يمنع الخلود في النار.

5- أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه.

6- أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة و الباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتيب الثواب عليها على التوحيد.

7- أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المنكرات.

8- إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر

---

(1)تذيب المدارج ص (662) وينظر من ص (665)

(2) متفق عليه.

والفسوق والعصيان.

9- أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم هذا هو العز الحقيقي والشرف العالي.

10- أن الله تكفل لأهله بالنصر والتمكين في الدنيا {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم يعبدونني لا يشركون بي شيئًا}.

أهمية توحيد الربوبية:

توحيد الربوبية هو الاعتقاد بأن الله سبحانه هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، وأنه المحيي المميت النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الضراء، فهو سبحانه وتعالى المتفرد بربوبية خلقه إيجادًا وإمدادًا، وخلقًا وتدبيرًا.

ويقول ابن القيم في بيان معنى هذا التوحيد:

"أن يشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة – ظاهرًا وباطنًا – غيره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته. ونفذت بها مشيئته، واقتضتها حكمته"(1).

أهمية توحيد العبادة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

"إن حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده فلا يدعي إلا هو، ولا يخشى إلا هو، ولا يتقى إلا هو ولا يتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق، وأن لا

---

(1)[510/3] مدارج السالكين

نتخذ الملائكة والنبيين أربابًا، فكيـف بالأئمـة والشـيوخ والعلمـاء والملـوك وغيرهم"(1).

ويبين ابن القيم أهمية التوحيد وعظم الحاجة إليه، فيقول: "اعلم أن حاجة العبـد أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا في محبته ولا في خوفه، ولا في رجائـه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به ولا في النذر له، ولا في الخضـوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه، والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد وروحه وقلبه لا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتـها لـه، ورضاه وإكرامه لها"(2).

ويوصي الشيخ محمد بن عبدالوهاب ويؤكد على أهمية التوحيد فيقول رحمه الله:

"فالله الله يا إخواني، تمسكوا بأصل دينكم، وأوله وآخره، وأسه، ورأسه شـهادة أن لا إلا الله، واعرفوا معناها، وأحبوها، وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم ولـو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت وعادوهم وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم، أو لم يكفرهم، أو قال: ما علي منهم، أو قال: ما كلفني الله بم، فقد كذب هذا علـى الله وافترى فقد كلفه الله تعالى بم وافترض عليه الكفر بم، والبراءة منهم ولو كانوا إخوانم وأولادهم، فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئًا اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين"(3).

---

(1)منهاج السنة (490/3).

(2)طريق الهجرتين [57 – 58].

(3)تفسير كلمة التوحيد – ضمن مجموعة التوحيد ص (252).

ويقول العلامة السعدي - رحمه الله -:

"أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة. وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها وألزمها لصالح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح، وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات إما أمر به، أو بحق من حقوقه، أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهما وبين المشركين ويقال له توحيد ، فإن الإلهية وصفه تعالى ينبغي الذي أن يؤمن به كل بني آدم، وهو مستلزم جميع صفات الكمال، ويقال له توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بإخلاص العبادة لله تعالى، وتحقيقها في العبد أن يكون عارفًا بربه، مخلصًا له جميع عبادته محققًا ذلك بترك الشرك صغيره وكبيره"(1).

أهمية توحيد الأسماء والصفات:

يقول الإمام أحمد : "فعليه الإيمان بها والتسليم مثل: أحاديث الرؤية كلها، وإن نبت عن الأسماع، واستوحش منها المستمع وإنما عليه الإيمان بها وأن لا يرد منها حرفًا واحدًا، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات"(2)

ويقول ابن القيم: "لا يستقر للعبد قدم في المعرفة – بل ولا في الإيمان – حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرج عن حد الجهل بربه، فالإيمان بالصفات وتعرفها هو أساس الإسلام والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان"(3).

ويقول أيضًا: "والرسل من أولهم إلى خاتمهم – صلوات الله وسلامه عليهم

---

(1)القواعد الحسان ص (192).

(2)المسائل المروية عن الإمام أحمد (277/1).

(3)مدارج السالكين (347/3).

أجمعين – أرسلوا بالدعوة إلى الله... فعرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفًا مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم... ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويميت ويحيى، ويمنع ويعطي، يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا... وهذا مقصود الدعوة وزبدة الرسالة"(1).

وكلمة التوحيد لا تنفع صاحبها إلا إذا تحققت شروطها وهذه الشروط هي:

1- العلم. 2- اليقين.

3- الإخلاص. 4- الصدق.

5- المحبة. 6- الانقياد.

7- القبول.(2)

وقد بدأ رسول الله ﷺ دعوته إلى لا إله إلا الله فكان يقول لقريش: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"(3).

قال الشيخ الأمين الشنقيطي: "وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام..."(4).

وقال الشيخ بكر أبوزيد: "هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري، وغيرهما وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في تاج العروس، وشيخنا الشنقيطي في أضواء البيان في آخرين

---

(1)مدارج السالكين (348/3 – 349) باختصار

(2)"فتح المجيد" (89).

(3)أخرجه أحمد (492/3) والطبراني وقال الهيثمي في المجمع (24/6 – 25) عن إسناد الطبراني: رجاله ثقات، وقال عن أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

(4)أضواء البيان (410/3).

رحم الله الجميع، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أ هل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بذا ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء"(1).

لماذا التوحيد أولاً:

1- انتشار الشركيات بين المسلمين.

ومن ذلك : دعاء الأموات، الذبح للأولياء ، تبديل شرع الله .

2- انتشار السحرة والمشعوذين.

3- انتشار أهل البدع الكفرية ونشاطهم في دعوتم .

مثل : الرافضة، الإباضية، الصوفية .

4- نشاط أهل المذاهب والأفكار الإلحادية .

مثل: العلمانية – الشيوعية – الماسونية - عبدة الشيطان .

5- نشاط أهل الأديان الأخرى في الدعوة إلى أديانم الباطلة أو المحرفة .

6- انتشار الأفكار والشعارات الكفرية بين المسلمين .

مثل : لله والوطن للجميع، الفرعونية، القومية العربية .

7- انتشار وازدياد الإعجاب بالغرب مما يولد الحب القلبي.

8- السعي لكسر الحاجز النفسي مع اليهود والنصارى.

9- ضعف الولاء والبراء.

10- ضعف أثر عقيدة التوحيد عند بعض المسلمين.

11- حصول خلل في فهم التوحيد والاهتمام ببعض المسائل علـى حسـاب بعض.

كيف يكون التوحيد أولاً:

---

(1)التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير ص (30).

1- تعلم التوحيد وفهمه وتطبيقه قال عز وجل {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك}.

2- تعليمه والدعوة إليه.

3- محبة أهله والذود عنهم.

4- بغض أعداء التوحيد.

5- ربط قضايانا المعاصرة بالتوحيد.

6- جمع الأمة على أساس التوحيد(1).

وأختم بكلمة لابن القيم:

"إن أولى ما يتنافس به المتنافسون، وأحرى ما يتسابق في قلبه سباقه المتسابقون: ما كان بسعادة العبد في معاشه ومعاده كفيلاً، وعلى طريق هذه السعادة دليلاً، وذلك العلم النافع والعمل الصالح، اللذان لا سعادة للعبد إلا بهما، ولا نجاة له إلا بالتعلق بهما، ولا نجاة له إلا بالتعلق بسببهما فمن رزقهما؛ فقد فاز وغنم، ومن حرمهما؛ فالخير كله حرم، وهما مورد انقسام العباد إلى مرحوم ومحروم، وبهما يتميز البر من الفاجر والتقي من الغوي، و الظالم من المظلوم، ولما كان العلم للعمل قرينًا وشافعًا، وشرفه لشرف معلومه تابعًا، كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد وأنفعها علم أحكام أفعال العبيد"(2).

---

(1) هذه نقاط مختصرة ومن أراد المزيد فليراجع كتابي القول السديد في وجوب الاهتمام بالتوحيد .

(2)أعلام الموقعين (5/1).

مرتقى الوصول

شرح

الثلاثة الأصول

اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل :

الأولى العلم ،وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة .#

طلب العلم واجب على كل مسلم، وذلك بالقدر الذي يتعلم بـه أمـور دينه، من عبادات، ومعاملات، وسلوك ونحوها. قال الله عزّ وجلّ: {فسـئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} (سورة النحل: الآية 43).

يقول الشيخ السعدي –رحمه الله-: "وعموم هذه الآية، فيها مدح أهـل العلم، وأن أعلى أنواعه، العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلـم، بالرجوع إليهم في جميع الحوادث. وفي ضمنه، تعديل لأهل العلم، وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة" (1).

وعن أنس بن مالك –رضي الله عنه- قال: قال رسـول الله ﷺ: "طلـب العلم فريضة على كل مسلم" (2).

وفي حديث جابر بن عبدالله –رضي الله عنهما- الطويـل: "إنمـا شـفاء العي(3)السؤال" (4).

فدل الحديث على أن طلب العلم فيه الشفاء من الجهل، وفيه حث للجاهل

---

(1)تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 206/4.

(2)أخرجه ابن ماجه في "المقدمة" 17-باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (رقم 224)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح سنن ابن ماجة (44/1).

(3)بكسر العين المهملة وتشديد المثناة التحتية في الأصل العجز عن النطق، والمراد به الجهل. انظر المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود للسبكي (191/3) ط-المكتبة الإسلامية.*

(4) رواه أبوداود في "سننه" 1- كتاب الطهارة. 127-باب الروح يتيمم. وحسنه الشيخ الألباني، صحيح سنن أبي داود (69/1).

على استفتاء العلماء وسؤالهم.

و الجهل من أعظم أسباب الفرقة، بل أن كثيرًا من الأسباب الأخرى ترجع إليه. وما ذلك إلا نتيجة التقصير في طلب العلم الشرعي النافع، الذي يثمر العمل الصالح، ويأخذ بيده صاحبه إلى الطريق القويم.

فطلب العلم الشرعي من أهم الأمور في دين الله عز وجل . فعن طريقه يعرف المسلم العقيدة الصحيحة التي يجب عليه اعتقادها، ويعرف كيف يعبد ربه تبارك وتعالى، وينال رضوانه، ويعرف السلوك السليم الذي ينبغي أن يسلكه، والتعامل الرشيد الذي ينبغي أن يتعامل به مع أفراد مجتمعه من حوله.

وبالتالي يكون الفرد نواة صالحة في المجتمع المسلم، ولبنة طيبة فيه. ومجتمع هذه حال أفراده، مجتمع متماسك مترابط، آخذ دومًا في الرقي إلى مدارج الكمال، متحصن بأسباب القوة والعزة.

وقد قسمت الكلام على العلم وفضله إلى عدة نقاط وهي :

1- من القرآن الكريم:

لقد مدح الله عزّ وجلّ العلماء وأثنى عليهم في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} (سورة آل عمران، الآية:18).

قال ابن كثير: "وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام" (1).

وقال القرطبي: "في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه، واسم

---

(1) تفسير القرآن العظيم 353/1.

ملائكته، كما قرن اسم العلماء" [(1)].

وقال ابن القيم: "وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية، الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم" [(2)].

ومن الآيات التي جاءت في الثناء على أهل العلم قول الله عزّ وجلّ: {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون}. (سورة العنكبوت: الآية: 43).

قال ابن كثير: "أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه [(3)].

وقال القرطبي: {وما يعقلها} أي: يفهمها، {إلا العالمون} أي: العالمون بالله" [(4)].

وقال السعدي: {وما يعقلها} بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب. {إلا العالمون}. إلا أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم. وهذا مدح للأمثال، التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها. وإنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها، ليس من العالمين[(5)].

وبين سبحانه أن العلماء هم الذين يخشونه حق الخشية. فقال: {إنما يخشى

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 41/4.

(2) التفسير القيم ص199.

(3) تفسير القرآن العظيم 414/3.

(4) الجامع لأحكام القرآن 346/13.

(5) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 89/6.

الله من عباده العلماء} (سورة فاطر، الآية: 28).

قال ابن كثير: "أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر" (1).

ثم ذكر أقوال السلف الصالح الواردة في تفسير الآية. ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس –رضي الله عنهما- قال: "العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئًا، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله" (2).

وقال القرطبي: "يعني بالعلماء الذين يخافون قدرته، فمن علم أنه عزّوجلّ قدير أيقن بمعاقبته على المعصية" (3).

وقال السعدي: "فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه. وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله" (4).

فالعلم النافع يورث الخشية، ويكون سببًا في زيادة التقوى، والتقرب إلى الله عزّ وجلّ، وهي الغاية التي خلق الله العباد لأجلها.

وقال تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}. (سورة المجادلة، الآية: 11).

---

(1) تفسير القرآن العظيم 553/3.

(2) المصدر السابق.

(3) الجامع لأحكام القرآن 243/14.

(4) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 317/6.

يقول القرطبي: "أي في الثواب في الآخرة، وفي الكرامة في الدنيا، فيرفـع المؤمن علىمن ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم" (1).

ومما له دلالة قوية على فضل العلم، أن الله عزّ وجلّ أمر نبيه، صـص، أن يسأله المزيد منه فقال سبحانه: {وقل رب زدني علمًا}. (سورة طـه، الآيـة: 114).

يقول القرطبي: "فلو كان شيء أشرف من العلم لأمـر الله نبيـه، ﷺ، أن يسأله المزيد منه، كما أمره أن يستزيده من العلم" (2).

ب- من السنة:

عن معاوية –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، ﷺ: "من يرد الله بـه خيرًا يفقهه في الدين" (3).

في هذا الحديث: "إثبات الخير لمن تفقه في دين الله، وأن ذاـك لا يكـون بالاكتساب فقط، بل لمن يفتح الله عليه به" (4).

وقال النووي: "فيه فضيلة العلم، والتفقه في الدين والحث عليه، وسببه أنه

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 299/17.

(2) الجامع لأحكام القرآن 41/4.

(3) أخرجه البخاري في كتاب العلم 13- باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وأخرجه في مواضع أخرى من صحيحه، انظر (25/1، 26، 49/4، 149/8) . وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة. باب النهي عن المسألة (1037، 1038)، انظر (95/3، 53/6، 54) وأخرجه أحمد (92/4-101)، والترمذي (رقم 2796)، وابن ماجة (رقم 220) وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (191/3-194 رقم 1194-1196) وذكر طرقه ومن خرجه.

(4) فتح الباري لابن حجر 164/1.

قائد إلى تقوى الله تعالى" (1).

وعن أبي الدرداء –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، ﷺ: "من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العلم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، #ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر" (2).

يقول ابن جماعة: "واعلم أنه لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها" (3).

فالحديث يحمل بشائر عظيمة لطالب العلم، ويبين ما للعلماء من القدر الجليل، والمقام النبيل، وهذا يدل على فضل العلم، وسمو مرتبته وعظيم مكانته.

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صص: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم نافع" (4). وفي رواية أبي قتادة –رضي الله عنه- "خير ما يخلف

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي 128/7.

(2) رواه أبوداود (3641)، وابن ماجه (223)، والترمذي (2835)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح سنن أبي داود 694/2، وصحيح سنن ابن ماجه 43/1، وصحيح سنن الترمذي 342/2.

(3) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص8) طبعة دار الكتب العلمية – بيروت.

(4) رواه مسلم في كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (رقم 1631)، وأبوداود (2880)، والترمذي (1376)، والإمام أحمد (372/2)، والبخاري في الأدب

الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يعمل به من بعده" (1).

وقال النووي –رحمه الله-: "فيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابـه، وبيان فضيلة العلم والحث على الاستكثار منه، والترغيب في توريثه بـالتعليم والتصنيف والإيضاح، وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع" (2).

جـ - من أقوال السلف الصالح:

عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- قال: "تفقهوا قل أن تسودوا" (3).

وقد ذكر ابن حجر أقوالاً كثيرة(4) عن العلماء في معنى قول عمر –رضي الله عنه-: "قبل أن تسودوا".

ومنها قول أبى عبيدالقاسم بن سلام –رحمه الله- حيـث قـال: "يقـول: "تعلموا العلم ما دمتم صغارًا قبل أن تصيروا سادة"(3).

المفرد (رقم 38).

(1) رواه ابن ماجة في المقدمة (241) وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح سنن ابن ماجة (46/1).

(2) صحيح مسلم بشرح النووي 85/11.

(3) ذكره البخاري تعليقًا (165/1) بصيغة الجزم، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة. وأخرجه الدرامي (7/1)، وابن عبدالبر في "جامع بيان العلم" (86/1)، وأبو عبيدالقاسم بن سلام في "غريب الحديث" (369/3)، ووكيع في "الزهد" (327/1)، والخطيب البغدادي في "الفقيه والمتفقه" (78/2)، وأخرجه أيضًا في "نصيحة أهل الحديث" (رقم 3-5)، و القاضي عياض في "الإلماع" (ص244)، وأبوخيثمة في "العلم" (111)، وانظر نصيحة أهل الحديث للبغدادي ص25 تحقيق عبدالكريم أحمد الوريكات ط مكتبة المنار – الأردن 1408هـ.

(4) فتح الباري (166/1).

وهذا القول هو الذي يطابق ترجمه البخاري –رحمه الله- حيث عقب على قول عمر –رضي الله عنه- بقوله: "وبعد أن تسودودا" ليبين أن لا مفهوم له خشية أن يفهم أحد من ذلك أن السيادة مانعة من التفقه، وإنما أراد عمر أنها قد تكون سببًا للمنع" (1).

وعن عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه- قال: "اغد عالمًا أو متعلمًا ولا تغد إمعة بين ذلك" (2).

قال ابن الأثير: "الإمعة بكسر الهمزة وتشديد الميم الذي لا رأي له، فهو يتابع كل أحد على رأيه والهاء فيه للمبالغة" (3).

وعن كميل بن زياد أن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- قال له: "يا كميل: إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق" (4).

بيان أن المقصود بالعلم في الآيات والأحاديث هو العلم الشرعي :

قال ابن حجر –رحمه الله- في أول شرحه لكتاب العلم من صحيح البخاري: "والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد معفرة ما يجب على

---

(1) المصدر السابق (166/1).

(2) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر 29/1 وأخرجه ابن بطة في "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية" 341/1 ح: 209، 210. وذكره الشاطبي في الاعتصام 357/2.

(3) النهاية في غريب الحديث 67/1.

(4) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر 29/1، وانظر الاعتصام 358/2.

المكلف من أمر دينه في عبادته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص" [(1)].

وقال ابن القيم –رحمه الله-: "إن العبد لو عرف كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا"[(2)].

وقد عقد ابن عبدالبر –رحمه الله- بابًا في كتابه جامع بيان العلم وفضله، أسماه (باب معرفة أصول العلم وحقيقته، وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقًا) [(3)].

ومما ذكره من الأحاديث في هذا الباب، حديث عبدالله بن عمر –رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله، ﷺ: "العلم ثلاثة: فما وراء ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة" [(4)]#. فحصر النبي، ﷺ، العلم في هذه الأشياء التي هي أقسام العلوم الشرعية.

ومن الأحاديث التي ساقها ابن عبدالبر في الباب المذكور آنفًا، حديث زيد بن ثابت –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، ﷺ: "نضر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه" [(5)].

---

(1) فتح الباري 141/1.

(2) إغاثة اللهفان (68/1) .

(3) جامع بيان العلم وفضله 23/2-36.

(4) رواه ابن ماجة في المقدمة، باب اجتناب الرأي والقياس (رقم 54)، وأبوداد في كتاب الفرائض. باب تعليم الفرائض (2885)، وضعفه الشيخ الألباني. انظر ضعيف سنن ابن ماجه ص (5).

(5) أخرجه أحمد في "المسند" (183/5)، وابن ماجه في مقدمة سننه (حدثنا: 230)، وأبو داود

قال ابن عبدالبر: "فأطلق على حديثه اسم العلم لمن تدبره وفهمه" (1).

انقسام العلم إلى نافع وغير نافع :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول" (2).

وقال في موضع آخر: "والعلم الممدوح الذي دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثته الأنبياء" (3).

وقال أيضًا: "والخير والسعادة والكمال والصلاح منحصر في نوعين: في العلم النافع، والعمل الصالح، وقد بعث الله محمدًا بأفضل ذلك وهو الهدى ودين الحق" (4).

وقد جاء في القرآن الكريم إشارة إلى العلم الذي ليس بنافع، كقوله تعالى: {فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم} [سورة النجم، الآيتان: 29،30].

وقال تعالى: {يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} [سورة الروم، الآية: 7].

وقال تعالى: {فلما جاءتم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم}

في "كتاب العلم" من سننه (حدثنا: 3660)، والدرامي (75/1). وابن حبان (72، 73 موارد)، وابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" (38/1-39)، (27/2)، وذكره الشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة" (689/1ح: 404).

(1) جامع بيان العلم وفضله 27/2.

(2) مجموع الفتاوي 136/13.

(3) مجموع الفتاوي 369/11-397 وقد ذكر أقسام هذا العلم.

(4) مجموع الفتاوي 169/19- 170، وانظر 664/10.

[سورة غافر، الآية: 83].

وقد كان رسول الله ﷺ، يدعو ربه عز وجل بأن يرزقه العلم النافع، وكان ﷺ، يتعوذ من العلم الذي لا ينفع.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يقول: "اللـهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا" (1).

وعنه –رضي الله عنه- قال: كان من دعاء النبي ﷺ: " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن دعاء لا يسمع، ومن قلب لا يخشع، ومـن نفـس لا تشبع" (2).

انقسام طلب العلم إلى فرض عين وكفاية :

قال ابن عبدالبر: "أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امريء في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قـائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع" (3).

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وطلب العلم الشرعي فرض على الكفاية

---

(1) أخرجه الترمذي (3599) وحسنه، ابن ماجة (251) (3833) وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح سنن ابن ماجة (47/1).

(2) أخرجه الإمام أحمد (340/2، 365، 451)، وأبوداود (1548) والنسائي (263/8، 284)، وابن ماجة (3837)، والحاكم (104/1، 534)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص 44)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (88/2)، وابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" (161/1، 162)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح سنن ابن ماجة (47/1)

(3) جامع بيان العلم وفضله (1/ 10) ثم ذكر ملخصًا لما يلزم كل مسلم تعلمه .

إلا فيما يتعين، مثل طلب كل واحد علم ما أمره به وما نهاه عنه، فإن هذا فرض على الأعيان" (1).

إلى أن قال: "وعلى كل أحد أن يصدق محمدًا ﷺ، فيما أخبر به، ويطيعه فيما أمر تصديقًا عامًا وطاعة عامة، ثم إذا ثبت عنه خبر كان عليه أن يصدق به مفصلاً، وإذا كان مأمورًا من جهة بأمر معين كان عليه أن يطيعه طاعة مفصلة" (2).

وأوجب الواجب الذي على كل مسلم أن يعتني به، ويتعلمه هو توحيد الله عز وجل الذي لا نجاة للعبد إلا به، ومعرفة الكيفية الصحيحة لعبادته سبحانه، ومعرفة ما يضاد التوحيد وهو الشرك حتى يتجنبه ولا يقع فيه، ولذلك ذكر العلماء من شروط لا إله إلا الله: العلم، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله}. (سورة القتال، الآية: 19).

إخلاص النية في طلب العلم :

لابد لطالب العلم من إخلاص نيته لله تعالى في طلبه للعلم وإلا كان وبالاً عليه.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، ﷺ: "من تعلم علمًا مما يبتغي به وجه الله عزّ وجلّ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة" (3).

---

(1) مجموع الفتاوى (28/ 80) ،وانظر (3/ 328- 329) وشرح الطحاوية ص 70

(2) المصدر السابق .

(3) أخرجه أبوداود في كتاب العلم 12- باب في طلب العلم لغير الله رقم (3664)، وأخرجه ابن ماجه في "المقدمة" 23- باب الانتفاع بالعلم والعمل به رقم (252)، وصححه الشيخ الألباني. انظر صحيح سنن أبي داود (697/2)، صحيح سنن ابن ماجه (47/1).

وعن كعب بن مالك –رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: "من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه ادخله الله النار" [(1)].

ولابد لطالب العلم، كذلك أن يتحلى بالخصال الحميدة، من تواضع وتجرد لطلب العلم ونحوها ليحب العلم النافع ويقبل عليه.

قال شيخ الإسلام: "إذا اندفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك: أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح" [(2)].

فضل علم السلف على علم الخلف

لقد كانت عناية سلفنا الصالح بكتاب ربم وسنة نبيهم ﷺ، كبيرة جدًا، وهم مع هذا كانوا يحافظون على صفاء ونقاء هذين المصدرين العظيمين، فلم يخلطوهما بغيرهما من الشوائب التي تكدر صفوهما.

و كان أكبر اهتمامهم هو دراسة هذين المصدرين وتدبرهما، وتفهم معانيهما، واستنباط الأحكام منهما، ثم تطبيق ذلك في واقع حياتم. ولذلك كان كلامهم في تفسير كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ، وكانت مؤلفاتم في علوم القرآن وخدمتهما.

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب العلم 6- باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا (رقم 2805)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة 23- باب الانتفاع بالعلم والعمل به رقم (253)، وحسنه الشيخ الألباني، انظر صحيح سنن الترمذي (337/2)، وصحيح سنن ابن ماجه (48/1).

(2) مجموع الفتاوي 241/18-242.

وكانوا يكرهون الجدل والمراء والخصومات، ولا يتكلمون فيما ليس تحته عمل، وكان لهم موقف حازم من العلوم الحادثة، ولم يختلف رأيهم في نبـذها، ومحاربتها، وتحذير الناس منها(1).

لذلك من أراد العلم النافع، فليأخذه من كتب السلف الصالح ومصنفاتم، يقول ابن رجب –رحمه الله-: "فالعلم النافع من هذه العلوم كلـها ضـبط نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصـحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والرقاق والمعارف، وغير ذلك والاجتهاد على تمييـز صحيحه من سقيمه أولاً، ثم الإجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل، ومن وقـف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله عز وجل واستعان عليه أعانه وهداه، ووفقه وسدده، وفهمه وألهمه، وحينئذ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصـة بـه، وهي خشية الله كما قال عز وجل: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [سورة فاطر، الآية: 28]" (2).

ومن أعرض عن كلام السلف الصالح، وعلومهم، ولم يأخذ العلـم مـن كتبهم ومؤلفاتم، فاته ذلك الخير كله، وهو في متابعته لغيرهم ممن تأخر عنهم وخالفهم، واقع فيما وقعوا فيه من الباطل والمخالفة(3).

---

(1) مثل وقوفهم من علم الكلام والفلسفة، ومثل وقوفهم من العلوم الباطنة التي أحدثها الزهاد والمتصوفة.

(2) بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص 45) تحقيق محمد بن ناصر العجمي ط دار الأرقم – الكويت، الأولى سنة 1404هـ.

(3) انظر المصدر السابق ص 42.

الثانية: العمل به

العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع، وهو نتيجة لازمة له، ولا خير في علم لا يعمل صاحبه بمقتضاه، ولا يتأثر سلوكه بما دل عليه.

ولذلك جاء الوعيد الشديد في كتاب الله لمن خالف قوله فعله قال تعـالى: {يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتًا عند الله أن تقولوا مـا تفعلون} [سورة الصف، الآيتان: 3،2].

يقول السعدي –رحمه الله-: "ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس مبادرة إليه، والناهي عن الشر، أن يكون أبعد الناس عنه" (1).

وقال تعالى: {مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمـار يحمـل أسفارًا، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين} (سورة الجمعة، الآية: 5).

قال ابن القيم –رحمه الله-: "قاس من حمله سبحانه كتابـه ليـؤمن بـه، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقرأه بغير تدبر، ولا تفهم ولا اتباع له، ولا تحكيم له، ولا عمـل بموجبـه، كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها فحظه منها حملها على ظهره ليس إلا . فحظ هذا من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي علـى ظهره. فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته" (2).

وقد كان الأنبياء –عليهم السلام- أول الناس عملاً بما يـوحى إلـيهم، وأسرع الناس تطبيقًا لما يقولون، فها هو نبي الله شعيب –عليه السلام- يقول

---

(1) تيسير الكريم الرحمن 366/7.

(2) التفسير القيم ص493، وانظر أعلام الموقعين 197/1.

لقومه: {وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه} (سورة هود، الآية: 88).

وقد أخبر النبي ﷺ، أن من الأمور التي يسأل عنها العبد يوم القيامة: علمه ماذا عمل به؟

فعن ابن مسعود –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تـزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيمـا أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، ومـاذا عمل فيما علم" (1).

وكان السلف الصالح حريصين أشد الحرص، على العمل بعلمهم، لـذلك وردت آثار كثيرة عنهم في هذا الموضوع، وفيما يلي ذكر لبعضها:

عن أبي هريرة –رضي الله عنه- أنه قال: (مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل الله عزّ وجلّ) (3).

وعن أبي الدرداء –رضي الله عنه- قال: "إنك لن تكون عالمًا حتى تكـون متعلمًا، ولن تكون متعلمًا حتى تكون بما علمت عاملاً" (4).

وعن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- قال: "هتف العلم بالعمل، فإن أجابـه

---

(1) أخرجه الترمذي (2/67) (رقم 2544، 2545)، وأبويعلي في "مسنده"(2/ 254) ، والطبراني في "المعجم الكبير" (1/48/1) و"الصغير" (رقم648 - الروض)، أورده الشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة" (3/666) (رقم 946).

2

(3) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص165 ضمن كتاب "من كنوز السنة" ط دار الأرقم – الكويت.

(4) المصدر السابق ص167.

وإلا ارتحل" (1).

#قال الخطيب البغدادي في مقدمة كتابه "اقتضاء العلم العمل":

"ثم إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة، والعمل ثمر، وليس يعد عالمًا من لم يكن بعلمه عاملاً.

وقيل: العلم والد، والعمل مولود، والعلم مع العمل، والرواية مع الدراية.

فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشًا من العلم ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصرًا في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قل نصيبك منهما.

وما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته وجاهل أخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته.

والقليل مع هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة، وإذا تفضل الله بالرحمة، وتمم على عبده النعمة، فإما المدافعة والإهمال، وحب الهوينى والاسترسال، وإيثار الخفض والدعة، والميل مع الراحة والسعة، فإن خواتم هذه الخصال ذميمة وعقباها كريهة وخيمة.

والعلم يراد للعمل كما العمل يراد للنجاة فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كلاً على العالم، ونعوذ بالله من علم عاد كلاً، وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً.

قال بعض الحكماء : العلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يطلب علم، ولولا العلم لم يطلب عمل ولأن أدع الحق جهلاً به، أحب الي من أن أدعه زهدًا فيه.

قال الخطيب: "وهل أدرك من أدرك من السلف الماضين الدرجات العلى إلا

---

(1) المصدر السابق ص173، وهذا الأثر يروي عن مجموعة من السلف منهم ابن المنكدر، وسفيان الثوري.

بإخلاص المعتقد، والعمل الصالح، والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا.

وهل وصل الحكماء إلى السعادة العظمى إلا بالتشمير في السعي والرضى بالميسور، وبذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم.

وهل جامع كتب العلم إلا كجامع الفضة والذهب، وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليهما، وهل المغرم بحبها إلا ككانزهما وكما لا تنفع الأموال إلا بإنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها وراعى واجباتها، فلينظر امرؤ لنفسه، وليغتنم وقته فإن الثواء قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف والاغترار غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير، والله تعالى بالمرصاد، وإليه المرجع والمعاد، {فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره} (الزلزلة: 7 – 8)".

الثالثة: الدعوة إليه

"فإذا حصل للعبد - بتوفيق الله له – العلم بدين الإسلام، والعمل به، فيجب عليه السعي في الدعوة إليه، كما هي طريقة الرسل وأتباعهم، وأعلى مراتب العلم: الدعوة إلى الحق، وسبيل الرشاد، ونفي الشرك والفساد، فإنه ما من نبي يبعث إلى قومه، إلا ويدعوهم إلى طاعة الله، وإفراده بالعبادة، وينهاهم عن الشرك ووسائله وذرائعه، ويبدأ بالأهم فالأهم بعد ذلك من شرائع الإسلام"(1).

وقال عز وجل مادحًا الدعاة إلى الله أهل الإيمان والتقوى والعمل الصالح والدعوة إلى الحق:

{ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين} [فصلت: 33].

"فهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي لا أحد أحسن قولاً، أي كلامًا، وطريقة وحالة {ممن دعا إلى الله} بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين و المعرضين ومجادلة

---

(1) حاشية ابن قاسم على الأصول الثلاثة ص (12).

المبطلين، بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه.

خصوصًا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن الدعوة إلى الله تحبيبه إلى عباده، بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله، وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه.

ومن ذلك الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك الوعظ لعموم الناس في أوقات المواسم، والعوارض، والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفراده، بما تشتمله الدعوة إلى الخير كله، و الترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: {وعمل صالحًا} أي مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح الذي يرضي ربه.

{وقال إنني من المسلمين} أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه. وهذه المرتبة تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم، وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل" (1).

والداعية إلى الله لابد أن يكون مقتفيًا في دعوته سبيل الرسول ﷺ كما هو حال أهل الإيمان والسنة في كل أمورهم وأحوالهم.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (575/6 – 576).

قال عز وجل مخاطبًا نبيه الكريم ﷺ: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمـة والموعظـة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلـم بالمهتدين} [النحل: 125] .

"أي ليكن دعاؤك للخلق، مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح.

{بالحكمة} أي كل أحد على حسب حاله وفهمه، وقبولـه و انقيـاده، ومـن الحكمة، الدعوة بالعلم، لا بالجهل، والبدأة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهـان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين.

فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهـو الأمـر، والنهي المقرون بالترغيب والترهيب إما بما تشتمل عليـه الأوامـر مـن المصـالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها.

وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به.

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل.

فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل، فيجـادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقـرب إلى حصـول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة، تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها" (1).

الرابعة: الصبر على الأذى فيه

"الصبر في اللغة : الحبس والكف في ضيق، ومنه قيل فلان صُبِـرَ: إذا أمسـك

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (4/254 - 255).

وحبس للقتل، قال تعالى: {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي} [الكهف: 28] ؛ أي احبس نفسك معهم.

فالصبر حبس النفس عن الجزع والسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

وقد ذكر الله تعالى الصبر في نحو من تسعين موضعًا". (1)

"والصبر على ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله" (2).

"ثم الصبر ينقسم بنوع آخر من القسمة على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله".

فالأول الاستعانة به، ورؤية أنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى:

{واصبر وما صبرك إلا بالله} يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: أن يكون الباعث على الصبر محبة الله وإرادة وجهه، والتقرب إليه، لا إظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأغراض.

والثالث: دوران العبد الذي مني مع الأحكام الدينية صابرًا نفسه معها سائرًا بسيرها مقيمًا بإقامتها، يتوجه معها أينما توجهت ركائبها وينزل معها حيث استقلت مضاربها، فهذا معنى كونه صابرًا مع الله، قد جعل نفسه وقفًا على أوامره ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين" (3).

"وهو على ثلاث درجات:

---

(1) بصائر ذوي التمييز – للفيروزأبادي (371/3).

(2) المرجع السابق (375/3).

(3) المرجع السابق (376/3).

الأولى: الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد.

وأحسن منها الصبر عن المعصية حياء .

الثانية: الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دوامًا، وبرعايتها إخلاصًا، وبتحسينها علمًا.

الثالثة: الصبر في البلاء بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج وتوين البلية بِعَد أيادي المنن، وتذكر سوالف النعم" (1).

"فمن قام بدين الإسلام؛ ودعا الناس إليه، فقد تحمل أمرًا عظيمًا، وقام مقام الرسل في الدعوة، وقصد أن يحول بين الناس وبين شهواتم وأهوائهم، واعتقاداتم الباطلة فحينئذ لابد أن يؤذوه فعليه أن يصبر ويحتسب" (2).

وقد أمر الله عز وجل خاتم أنبيائه وصفوة خلقه أن يصبر في سبيل الدعوة وفي سبيل دين الله؛ ومن ذلك الصبر على أذى أهل الكفر والعناد، وأن يقتدي في ذلك بأولي العزم من الرسل قال عز وجل: {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل} (الأحقاف: 35).

ففي هذه الآية يأمر الله تعالى رسوله. أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيًا لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم، والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم.

فهم أحق الخلق بالأسوة بم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم، فامتثل ﷺ، لأمر ربه، فصبر صبرًا لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوسٍ واحدة.

قاموا جميعاً بصده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة وهو صلي الله عليه وسلم لم يزل صادعًا، بأمر الله مقيمًا على جهاد أعداء الله صابرًا على

---

(1) المرجع السابق (381/3).

(2) حاشية ابن القاسم ص (12).

ما يناله من الأذى، حتى مكن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمته على سائر الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا(1).

وابتلاء من ينتسب إلى الحق وإلى الإيمان هي سنة الله عز وجل في خلقه، فكيف بمن انتسب إلى الدعوة والعلم.

قال عز وجل: {الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذي من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} [العنكبوت: 1-3].

ففي هذه الآيات يخبر تعالى عن تمام حكمته وأن حكمته، لا تقتضي أن كل من قال "إنه مؤمن" وادعى لنفسه الإيمان أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه فإنهم لو كان الأمر كذلك لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته تعالى وعادته في الأولين، وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء و الضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، و الغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الاحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

فمن كان عند ورود الشبهات، يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان ويجاهد شهواته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه، شكًا وريبًا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دل ذلك على عدم صحة

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (60/7).

إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله فمستقل ومستكثر.

فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه.

فالابتلاء والامتحان للنفوس، بمنزلة الكير، يخرج خبثها، وطيبها[1].

وقد أوذى رسل الله وأنبيائه فصبروا وثبتوا ومن بعدهم المصلحون في كل زمان ومكان.

والدليل قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم{والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}.

قال العلامة السعدي: أقسم تعالى بالعصر الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم، أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح.

والخسار مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خسارًا مطلقًا. كحال من خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه، دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:

* الإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه، لا يتم إلا به.

* والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، الواجبة والمستحبة.

* والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (60/66-67).

* والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.
فبالأمرين الأولين يكمل العبد نفسه.
وبالأمرين الأخيرين، يكمل غيره.
وبتكميل الأمور الأربعة، يكون العبد، قد سلم من الخسـار، وفـاز بـالربح العظيم"(1)

وقال ابن القيم - رحمه الله - : "أقسم الله سبحانه أن كل أحد خاسر إلا مـن كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما –كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره –بل أنفاسه - فيما ينال به المطالـب العالية، ويخلص به من الخسران المبين" (2).

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- : لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم.

أما الشافعي فهو الإمام محمد بن إدريس القرشي الإمام الشهير المتوفي سنة أربـع ومئتين رحمه الله.

ومقولته هذه لما "لعظم شأن هذه السورة مع غاية اختصارها، لو فكر الناس فيها لكفتهم، لجمعها الخير بحذافيره، فإنا دلت على العلم والعمل، والدعوة إلى الحـق، والصبر على الأذى فيه، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني، فهي حقيقة بـأن يقال فيها ما قاله هذا الإمام الجليل"(3).

وقال البخاري رحمه الله تعالى: باب العلم قبل القول والعمل

---

(1) تفسير السعدي(669/7-670).
(2) مدارج السالكين (30/1).
(3) حاشية ابن قاسم ص (14).

الإمام البخاري: هو محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح المتوفي سنة مئتين وست وخمسين رحمه الله.

"ترجم البخاري –رحمه الله- بالبداءة بالعلم، لأن تعلم العلم الفرض مقدم على القول والعمل، وذلك أن قول المرء وعمله لا يصح إلا إذا صدر عن علم وفي الحديث: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد" (1).

وقد قيل:

وكل من بغير علم يعملُ أعماله مردودة لا تقبل"(2).

والدليل قوله تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك} [محمد: 19] فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

"استدل المصنف –رحمه الله- بهذه الآية الكريمة على وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل، كما استدل بها البخاري رحمه الله على صحة ما ترجم به، وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بأمرين، بالعلم ثم العمل، والمبدوء به العلم في قوله {فاعلم أنه لا إله إلا الله} ثم العمل، والمبدوء به العلم في قوله {فاعلم أنه لا إله إلا الله} ثم أعقبه بالعمل في قوله {واستغفر لذنبك}، فدل على أن مرتبة العلم: مقدمة على مرتبة العمل .

وأن العلم: شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو مقدم عليهما، لأنه مصحح النية المصححة للعمل"(3).

وقال العلامة السعدي:

"العلم لا بد فيه من إقرار القلب، ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن

---

(1) رواه مسلم.

(2) حاشية ابن قاسم ص (15).

(3) حاشية ابن قاسم ص (15).

يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به –وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:

أحدهما –بل أعظمها- تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله، وعظمته، وجلاله. فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل، الذي كل حمد ومجد، وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك، أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية. فإن ذلك، يوجب تعلق القلب به، ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه، من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده، من النصر، والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا، داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده، المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة الطواغيت التي فتنت الناس وصرفتهم عن كتبه ورسله ومعرفة أوصاف الأوثان، والأنداد، التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها، نفعًا ولا ضررًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير، أو دفع شر.

فإن العلم بذلك، يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله، وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولاً ورأيًا،

وصوابًا، و علمًا وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون – قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، تنادي عليه بلسان حالها، بما أودعها من لطف صنعته، وبديع حكمته. وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها، إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه، وأعادها، عند تأمل العبد في بعضها، لابد أن يكون عنده يقين، و علم بذلك.

فكيف إذا اجتمعت وتواطأت، واتفقت، وقامت أدلة للتوحيد من كل جانب.

فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد – على تكرار الباطل والشبه – إلا نموًا وكمالاً.

هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير، وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته- فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به تفاصيله وجمله، ما لا يحصل في غيره.

وقوله: {واستغفر لذنبك} أي اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة، من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية وترك الذنوب، والعفو عن الجرائم" (1).

اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه مسائل والعمل بهن:

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (7/73 – 76)، وانظر القواعد الحسان في تفسير القرآن – له أيضًا ص(130).

(الأولى) أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً بل أرسل إلينا رسولاً فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار.

"أي اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مكلف من ذكر وأنثى وجوبًا عينيًا تعلم هذه المسائل، ومعرفتها، ثم العمل بمدولهن، فإن العمل هو ثمرة العلم .

الأولى: أن الله أوجدنا بعد أن لم نكن شيئًا؛ لعبادته، ورزقنا النعم لنستعين بها على ما خلقنا له، ولم يتركنا مهملين معطلين سدى، شبه البهائم، لا نؤمر ولا ننهي، قال تعالى: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} [القيامة :36] وقال سبحانه: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو} [ ]

وقد أرسل إلينا نبينا محمد بالهدى ودين الحق فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار وهو أصل عظيم من أصول الدين يجب معرفته واعتقاده، والعمل بمقتضاه.

فطاعته (ﷺ) طاعة لله سبحانه قال عز وجل {ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم}.

وقد أمرنا الله عز وجل بطاعة نبيه ﷺ في غير موضع من كتابه ونهانا عن عصيانه، و توعد من عصاه فقال سبحانه؛ {ومن يعصي الله ورسوله، ويتعد حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها وله عذاب مهين} [ ] (1).

والدليل قوله تعالى {إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهدًا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذًا وبيلاً} [المزمل: 15]

"يقول تعالى: احمدوا ربكم، على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه، وقوموا بهذه النعمة الجليلة.

---

(1) حاشية ابن قاسم ص (16).

وإياكم أن تكفروا، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون، حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه بل عصاه، فأخذه الله أخذًا وبيلاً أي: شديدًا بليغًا" (1).

ثم يتبع الله عز وجل بعد ذلك ويقول:

{فكيف تتقون إن كفرتم يومًا يجعل الولدان شيبًا * السماء منفطر به كان وعده مفعولاً * إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً}

"أي فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة يوم القيامة، اليوم المهول أمره، العظيم خطره، الذي يشيب الولدان، وتذوب الجمادات العظام فتنفطر السماء، وتنتثر نجومها {كان وعده مفعولاً} أي: لابد من وقوعه ولا حائل دونه.

أي إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهوالها تذكرة يتذكر بها المتقون، وينزجر بها المؤمنون.

{فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً} أي: طريقًا موصلاً إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح." (2)

(الثانية) أن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

"فهو سبحانه لا يرضى أن يجعل له شريك في عبادته، لا ملك مقرب عنده، ولا نبي مرسل، -يعني- فضلاً عن غيرهما من سائر المخلوقات، فإذا لم يرضى بعبادة من كان قريبًا منه كالملائكة، ولا نبيًا مرسلاً وهم أفضل الخلق، فغيرهم بطريق الأولى، لأن العبادة لا تصلح إلا لله وحده كما أنه المتفرد بالخلق

---

(1) تفسير السعدي (502/7).

(2) تفسير السعدي (503/7).

والرزق والتدبير، فهو المستحق للعبادة وحده، دون سواه" (1).

والدليل قوله تعالى: {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا} [الجن: 18]

قال ابن كثير: "يقول تعالى آمرًا عباده أن يوحدوه في محال عباداته، ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به كما قال قتادة في قوله تعالى {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا} قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده...

وقال سعيد بن جبير: نزلت في أعضاء السجود أي هي لله فلا تسجدوا بها لغيره" (2).

وقال السعدي: "أي: لا تدعوا دعاء عبادة ولا دعاء مسئلة، فإن المساجد التي هي أعظم محال للعبادة، مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته" (3).

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب.

"أي المسألة الثالثة من المسائل الثلاث التي يجب على المكلف معرفتها واعتقادها، والعمل بموجبها أن من أطاع الرسول فيما أمر به، واجتنب ما نهى عنه، ووحد الله في عبادته لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله، بل يجب عليه أن يصارمهم، ويقاطعهم، ويعاديهم أشد المعاداة، والمعادون لله هم الكافرون بالله، وقد حرم الله موالاتم على كل مسلم ومسلمة" (4).

---

(1) حاشية ابن القاسم ص(18).

(2) تفسير ابن كثير (432/4).

(3) تفسير السعدي (493/7).

(4) حاشية ابن قاسم ص(191) بتصرف يسير.

الموالاة مشتقة من الولاء وهو المحبة والمودة والقرب، وضد الموالاة المعـادة، ويعبر عنها بالبراء وهو البغض والعداوة والبعد، والولاء والبراء من أعمـال القلوب لكن تظهر مقتضياتهما على اللسان والجوارح.

يقول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: "وأصل الموالاة الحب، وأصل المعادة البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح مـا يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنـس والمعاونـة، وكالجهـاد والهجرة، ونحو ذلك من الأعمال" (1).

والولاء لا يكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين، قال سـبحانه: {إنمـا وليكم الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصـلاة ويؤتـون الزكـاة وهـم راكعون} [المائدة: 55] فالولاء للمؤمنين يكون بمحبتهم لإيمانهم، ونصرتهم، والنصح لهم، والدعاء لهم، والسلام عليهم وزيارة مريضهم، وتشييع ميتـهم، وإعانتهم والرحمة بهم وغير ذلك.

والبراءة من الكفار تكون ببغضهم –دينًا- ومفارقتهم، وعدم الركون إليهم أو الإعجاب بهم، و الحذر من التشبه بهم، وتحقيق مخالفتهم شـرعًا وجهـادهم بالمال واللسان والسنان ونحو ذلك من مقتضيات العداوة(2).

والدليل قوله تعالى :

{لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولوكانوا أباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلـوبهم الإيمـان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي

---

(1) الدرر السنية (157/2).

(2) انظر تفصيل ما تقدم في رسالة: "أوثق عرى الإيمان" للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب.

الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حـزب الله هـم المفلحـون} [المجادلة: 22]

"يقول الله تعالى: {لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله}.

أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى إيمانه ولوازمه، من محبة من قام بالإيمـان وموالاتـه، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه؛ وأهل هـذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي رسمه وثبته، وغرسه غرسًا، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه و الشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي بوحيه، ومعرفته، ومدده الإلهي، وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القـرار، التي فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وتختار ولهـم أفضـل النعـيم وأكبره.

وهو أن الله يحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدًا، ويرضون عن ربهم، بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبـات، ورفيـع الدرجات. بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا وراءه نهاية.

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مواد لأعـداء الله، محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره، فإن هذا ايمان زعمي، لا حقيقة له.

فإن كل أمر لابد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيـد شـيئًا، ولا

يصدق صاحبها"[1].

مكانة الولاء والبراء في الإسلام :

إن معرفة المسلم الملتزم بالإسلام عقيدة وعبادة لحكم الموالاة والمعـاداة في الله، تجعله ينطلق في تعامله مع الناس من فهم ثابت وتصور صحيح، في علاقاته مع الناس، فيعاملهم على أساس قربهم وبعدهم من الله، فكلما كان الإنسـان إلى أقرب، كانت مولاته ومحبته ومناصرته في الله أعظم، وكلما انحرف الإنسان عن طاعة الله عز وجل، أبغضه المؤمن على قدر انحرافه، وعاداه على قدر بعده عن الله، لأن محبة الله عز وجل هي الأساس في كل تصرف يتصـرفه العبـد المسلم ، فمحبة ما يحبه الله تابعة لمحبة الله منبثقة عنها، إذ ا لمحبة هـي أصـل الموالاة في الله، والبغض أصل المعاداة في الله، كما سبق إيضاح ذلك، وقد أخبر الله عز وجل أنه هو الولي، والمتولي لنا في كل شأن من شئوننا، وأنه لا يجوز أن نتخذ معه أو من دونه وليًا، أو أولياء، قال تعالى: {أم اتخذوا من دونه أوليـاء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو كل شيء قدير} [سورة الشورى : 99] فالذين اتخذوا من دونه أولياء، غلطوا أشد الغلط، وأجرموا أشـد الإجـرام، عندما اتخذوا حثالة البشر أو بعض المخلوقات أولياء لهم من دون الله، أو مع الله، قال تعالى {ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}[2].

وأصح القولين في ذلك أنهم يعـدلون بـالله غـيره، في العبـادة والمحبـة والموالاة[3] كما في قوله تعالى {تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسـويكم

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (7/322-323).

(2)سورة الأنعام آية (1).

(3) انظر مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية (1 /340) .

برب العالمين}[1]. وقال تعالى {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله}[2]. وقال تعالى: {بئس للظالمين بدلا}[3]. أي أن يبدلوا عبادة الله ومحبته وموالاته بغيره من الأنداد.

فالمسلم الحق هو الذي يتخذ الله وليًا، ويرضى بولايته دون سواه ويعتقد جازمًا أن ولاية الله عز وجل هي التي تنفع في الدنيا و الآخرة لأن ذلك مما أخبر الله به في قوله تعالى: {بل الله مولاكم وهو خير الناصرين}[4]. فالله هو الولي للمؤمنين، وهو خير الناصرين لهم، ففي ولايته وطاعته غنية وكفاية عن طاعة الكفار وموالاتهم، فيجب على المسلم أن يكون الله عز وجل هو الولي الذي يتقرب إليه العبد بالقول والعمل، فهو يتولى عباده المؤمنين بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وإعانتهم في جميع أمورهم[5]. قال تعالى {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}[6] وقال تعالى: {فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين}[7]. وقال تعالى: {قل أغير الله اتخذ وليًا فاطر

---

(1) سورة الشعراء الآيتان (97 - 98).

(2) سورة البقرة آية (165).

(3) سورة الكهف آية (50).

(4) سورة آل عمران آية (150).

(5) انظر تفسير ابن سعدي ج6 ص595.

(6) سورة البقرة آية (257).

(7) سورة يوسف آية (101).

السماوات والأرض}[1]. قل يا محمد "أغير الله اتخذ وليًا" أي ربًا ومعبـودا وناصرا ومحبوبا دون الله، وهو الذي فطر السموات والأرض، فكيف يليق أن اتخذ غير الخالق الرازق الغني الحميد[2].

قال الله تعالى: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين ابتعوه وهذا النبي والـذين آمنوا والله ولي المؤمنين}[3]. وقال تعالى: {نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة}[4].

فإذا كان الله عز وجل هو الولي والوالي والناصر والنافع والضـار، فمـن السفاهة والطيش بل ومن الكفر بعبادة الله، أن يتخذ المرء من دونه وليًـا أو نصيرًا، قال تعالى: {ولا تتخذوا منهم وليًا ولا نصيرًا}[5].

وقال تعالى: {وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير}[6].

فبين تعالى على جهة الإخبار بأن الله هو الولي وأنه لا ولي غيره وأنه هو ولي الصالحين، قال تعالى: {إن وليي الله الـذي نـزل الكتـاب وهـو يتـولى الصالحين}[7].

---

(1) سورة الأنعام آية (14).

(2) انظر تفسير القرطبي ح6 ص397.

وانظر تفسير ابن سعدي ج2 ص379- 380.

(3) سورة آل عمران آية (68).

(4) سورة فصلت آية (31).

(5) سورة النساء آية (89).

(6) سورة التوبة آية (74).

(7) سورة الأعراف آية (196).

فالإنسان عندما يتخذ الله وليًا إنما يفعل ذلك لأنه أمرٌ كلفه به، حيث يريد سبحانه وتعالى، من المسلم التجرد لله من تعظيم سواه، لأن الموالاة والتولي لغير الله، تعظيم لمن والاهم وتولاهم من دون الله، وهذا شرك في التعظيم، فالموالاة هي لب المحبة وثمرتها، والشرك في المحبة من أعظم أنواع الشرك، قال تعـالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله}(1).

فمتى أحب العبد غير الله لذاته والتفت إليه بقلبه كان عبـدًا لمـا أحبـه ورجاه، وإذا لم يحب أحد لذاته سوى الله، وأحب ما يحبه الله تقربًا إلى الله كان ذلك من تمام العبودية لله عز وجل، لأن العبد كلما ازداد حبًا لله ولما يحبه الله، ازداد عبودية وقربًا من الله وهذا الأمر هو جوهر الإسلام وحقيقته التي أرسل الله من أجلها جميع الرسل والأنبياء(2).

فيجب علينا أن نعطي حبنا وولاءنا لله عز وجل أولاً ثم لرسوله والمـؤمنين بهذا الدين حتى نكون من حزب الله، وتنتفي عنا صفة الانتماء إلى الأحـزاب الشيطانية، التي تعبدنا الله ببغضها وعـداوتها وجهادهـا والقضـاء عليهـا، فبالإضافة إلى أن موالاة غير الله شرك، هي كذلك موالاة غير نافعة في الـدنيا والآخرة، حيث إن الإنسان يقصد بموالاة من تولاه، أن يتقوى بقوته، ويعـز بعزته، ويرتفع برفعته، وهل هناك أحد، تنطبق عليه تلك الصفات بكمالها غير الله عز وجل، فالله يعد الذين آمنوا في مقابل الثقة به، وصدق الالتجاء اليـه، والولاء له وحده، ولرسوله، وللمؤمنين، يعدهم بالنصر والغلبة والتمكين، وقد جاء هذا الوعيد، بعد بيان قاعدة الإيمان ذاتها، في قوله تعالى: {ومن يتول الل

---

(1) سورة البقرة آية (165).

(2) انظر رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص54-58.

رسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون}(1). فإذا كان النصر والغلبة والعزة والكرامة، إنما تكون بموالاة الله ورسوله والذين آمنوا، فمن الانحراف عن العقيدة السليمة ، أن يخلع الإنسان صفة الموالاة والتولي بكمالها لأعـداء الله أو لمخلوقات ضعيفة، لا تنفع نفسها فضلاً عن غيرها، فالذين يحبون غـير الله، ويرجون سواه، في نصرة أو معونة أو تمكين، هؤلاء كأنما يتجاهلون مقام الباري عز وجل، ويستصغرون شأنه في المعونة والنصر، عندما يلجئون بالمودة وطلب النصرة من غير الله، كحال الذين يستعينون ويستنصـرون بالكفـار الشرقيين أو الكفار الغربيين، أو الهيئات الدولية، والأحزاب الجاهلية، وهـذا منتهى الضلال والانحراف، فالله سبحانه وتعالى أمر عباده أن يتخذوه وليًـا، دون غيره من المخلوقات، لأن ذلك من مقتضى عبوديتهم لـه، واعتـرافهم بربوبيته، وألوهيته عليهم، كما يجب عليهم خوفه، ورجاؤه، يجب عليهم محبته، وموالاته، دون غيره، وليس الدافع إلى موالاة الله، هو طلب النصرة والتمكين فقط، بل الدافع الأساسي أن هذا أمر تعبدنا الله به، أما ما يترتب على هـذا الأمر من نصرة ومودة وفلاح، فهذه ثمار تأتي في حينها، وتأتي لتحقيق قدر الله في التمكين لهذه الأمة، لا لتكون بذاتها هي الإغراء الوحيد على الـدخول في هذا الدين، فانتصار المسلمين على أعدائهم، وتفوقهم على سواهم، لا شـيء منه لذواتهم، وأشخاصهم، إنما يكون ذلك لحساب عقيدتهم، فيكون لهم ثواب الجهد في ذلك، فالله عز وجل لا يطلب ولاية أحد من خلقه ليزداد بهم عزًا أو قوة، أو أن يعينوه في شأن من شئونه، فإنه سبحانه وتعالى هو الغـني الحميـد الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه في الأرض ولا في السماء، قال تعالى {وما له

---

(1)سورة المائدة آية (56).

منهم من ظهير}[1]. وقال تعالى: {ولم يكن لـه ولي مـن الـذل وكـبره تكبيرًا}[2]. قال مجاهد: المعنى لم يحالف أحدا، ولا ابتغى نصرًا من أحد، أي لم يكن له ناصر يجيره من الذل، يعني لم يذل فيحتاج إلى ولي أو إلى ناصر؛ لعزته وكبريائه[3]. اهـ.

وأما قوله تعالى: {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}[4].

أي أن تكونوا سببًا في نصر دين الله، ينصركم الله على الكفار.

وقال قطرب: إن تنصروا نبي الله ينصركم الله[5] أ.هـ.

وقال تعالى: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}[6].

أي من ينصر دين الله، وينصر رسوله فإن الله ناصره[7]. وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحـواريين مـن أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله}[8]. فقوله: {كونوا أنصـار الله} معناه أنصار لدين الله، ومعنى {نحن أنصار الله} أي نحن أنصار ديـن الله. وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: {من أنصاري إلى الله}. أي مـن

---

(1) سورة سبأ آية (22).

(2) سورة الإسراء آية (111).

(3) انظر تفسير القرطبي ج(345/10).

(4) سورة محمد آية (7).

(5)انظر تفسير القرطبي (232/16).

(6) سورة الحج آية (40).

(7) انظر تفسير القرطبي (72/12).

(8) سورة الصف آية (14).

يكون معينًا إلى فيما يقرب إلى الله(1).

ومن خلال استعراض هذه الآيات و التي قبلها يتضح أن موالاة المسلم لربه ثم لرسوله، ثم للمؤمنين، عبادة تعبده الله بها، وحمله إياها وإلا فإن الله عز وجل غني عن عباده ليس محتاجًا إليهم في شيء، وهو كذلك قادر على نصرة دينه وأتباع دينه بقوله (كن فيكون) ولكنه جعل الموالاة في الله والمعاداة فيه أصلاً من الأصول الشرعية ليختبر عباده بذلك وليمتحن خلقه بهذا الواجب العظيم، فمن قام بذلك قام بواجب عظيم من واجبات الإسلام، ومن ضيع ذلك فهو لما سواه أضيع. والموالاة الحقيقية لله عز وجل، توجب موالاة ومحبة رسول الله ﷺ، لأن من لوازم محبة الله، محبة رسوله (ﷺ) وموالاة الله توجب موالاة رسوله (ﷺ) لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه ويوالي من يوالي محبوبه ويعادي من يعاديه، وقد ذكر الله عز وجل وجوب محبة رسوله (ﷺ) وموالاته في آيات وأحاديث كثيرة نذكر منها ما يلي:

أولاً : قول الله تعالى {ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون}(2).

ثانيًا: قول الله تعالى {إنما وليكم الله ورسوله، والذين آمنوا}(3).

ثالثًا: قول الله تعالى {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم}(4).

قال ابن عطية، وبعض العلماء:" هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لأن

---

(1) انظر تفسير القرطبي (18/89-90) وانظر فتح القدير : للشوكاني (5/223).

(2) سورة المائدة آية (56).

(3) سورة المائدة آية (55).

(4) سورة الأحزاب آية (6).

أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك والضلال، وهو يدعوهم إلى النجاة "[1] اهـ.

ويؤيد هذا المعنى حديث "إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيها" [2].

وأدلة وجوب محبة الرسول (ﷺ) وموالاته من السنة ما يلي:

1- ما روي أن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) قال سمعت رسول الله (ﷺ) جهارا غير سر – يقول: "إن آل أبي ليسوا بأوليائي، إنما الله وصالح المؤمنين" [3]. قال النووي في معنى الحديث إن وليي من كان صالحًا وإن بعد نسبه مني، وليس وليي من كان غير صالح وإن قرب نسبه[4].

2- وعن أنس (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين" [5].

فمحبة الرسول (ﷺ) بهذه الدرجة تقتضي أن مخالفة ذلك منقصة للإيمان[6].

3- عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال" ثلاث من كن فيه وجد بن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا

---

(1) انظر تفسير القرطبي ج14 ص122.

(2) رواه مسلم (789/4).

(3) رواه البخاري (فتح الباري - 10 /419)

(4) فتح الباري (421/10).

(5) رواه مسلم (68/1).

(6) انظر التحفة العراقية/ لابن تيمية ص35.

يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكــره أن يقذف بالنار"[1] ومحبة الرسول تستلزم محبة كل ماجاء بــه مــن عنــد الله، ومعاداة من عاداه .

فمن هذه الأحاديث وتلك الآيات يزول الشك باليقين، في وجوب محبــة الرسول (ﷺ) ومحبة كل ما جاء به من عنــد الله، مــن الأقــوال والأفعــال والاعتقادات، وأن من خالف ذلك فليس له في الإيمان حظ أو نصيب.

ومن مقتضيات محبة الله ومحبة رسوله، ومحبة ما جاء به الرســول (ﷺ) أن يحب المرء المسلم إخوانه المؤمنين وجماعة المسلمين، فإن هؤلاء تجب محبتهم في الله، ومناصرتم من أجل دين الله، فقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة علــى وجوب محبتهم، ومناصرتم بالقول والفعل والاعتقاد، ومن الأدلة على ذلــك من كتاب الله قول الله تعالى:

1- {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينــهون عن المنكر ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورســوله أولئــك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم}[2]. فقوله تعالى {والمؤمنون والمؤمنات}أي ذكورهم وإناثهم {بعضهم أولياء بعض} أي في المحبــة والمــوالاة والانتمــاء والنصرة والتعاطف[3].

2- قول الله تعالى {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض}[4].

---

(1) صحيح مسلم (166/1)

(2) سورة التوبة آية (71).

(3) انظر تفسير السعدي (264/3)، وانظر تفسير القرطبي (203/8).

(4) سورة الأنفال آية (72).

3- قول الله تعالى {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمـون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنـوا فإن حزب الله هم الغالبون}(1).

ففي تلك الآيات عقد موالاة ومحبة ومناصرة عقدها الله عز وجـل بـين المؤمنين في كل زمان ومكان، وذكر لنا نموذجًا في موالاة الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، كيف استقبلهم إخوانهم الأنصار،الذين آووا ونصروا الرسـول (ﷺ) ومن معه من أصحابه، وكيف أعانوهم بأموالهم وأنفسـهم وديـارهم، حسبما تقتضيه أخوة العقيدة الإسلامية، فصار بعضهم أولياء بعض، لكمـال إيمانهم، وتمام اتصال بعضهم ببعض(2).

وقد دلت السنة النبوية المطهرة على وجوب موالاة المسلمين بعضهم لبعض وإليك بعض الأدلة على ذلك.

1- قوله (ﷺ) أنه قال (ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعـاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى) (3).

2- ما روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله"

3- عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسـول الله (ﷺ) "المـؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا" وشبك بين أصابعه (4)

4- عن أنس (رضي الله عنه) – قال رسول الله ﷺ "انصر أخاك ظالمـا أو

---

(1) سورة المائدة الآيتان (55 - 56).

(2) انظر تفسير السعدي (193/3).

(3) رواه البخاري. (12/8).

(4)متفق عليه.

مظلوما". فقال رجل: يارسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا أرأيت إن كـان ظالمًا، كيف أنصره؟ قال: (تحجزه – أو تمنعه – مـن الظلـم، فـإن ذلـك نصره)(1).

5- عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! متى الساعة؟ قال "وما أعددت للساعة". قال: حب الله ورسوله. قال "فإنك مع من أحببت" (2).

قال أنس: فما فرحنا، بعد الاسلام، فرحًا أشد من قول النبي ﷺ "فإنك مع من أحببت". قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله. وأبا بكر وعمر. فـأرجو أن أكون معهم. وإن لم أعمل أعمالهم.

6- روي عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: قـال رسـول الله ﷺ: "الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء وأدناه أن تحـب على شيء من الجور، وتبغض على شيء من العدل" (3).

7- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قـال رسـول الله (ﷺ): "إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي. اليوم أظلهم في ظلي. يوم لا ظـل إلا ظلي" (4).

---

(1)رواه البخاري.

(2)رواه مسلم. (2032/4).

(3) رواه الحاكم من المستدرك وقال صحيح الإسناد، وأبو نعيم من الحلية عن عائشة (رضي الله عنها) مرفوعًا. ونظر تحفة الإخوان/ للشيخ حمود بن عبدالله النويجري. وانظر مجموعة التوحيد ص118.

(4) رواه مسلم: انظر صحيح مسلم جـ 4 ص1988.

8- وفي الحديث "أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله"(1).

فهذه الأدلة على وجوب محبة المؤمنين، وموالاتم ومناصرتم ودفع الأذى عنهم، وقد ذكر الله عز وجل أن الذين يعادون المؤمنين، أو من دان بالإسلام وعمل به ودعا إليه، ويسعون لإيصال الشر إليهم، وتشـريدهم عـن ديـار الإسلام، أن هؤلاء على خطر عظيم في خروجهم من الإسلام(2).

قال تعالى {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بتانًا وإثمًا مبينا}(3).

وفي الحديث "من عادي لي وليًا فقد آذنته بالحرب" (4).

وقد جعل الله حب الصحابة، ومن سار على نجهم إلى يوم الدين علامة، ودليلاً، من دلائل الايمان، كما ذكر أن بغضهم وبغض من يقتدي بم، وبمـن اقتدوا به، من دلائل الكفر، قال رسول الله (ﷺ) "آية المنافق، بغض الأنصار". "وآية المؤمن حب الأنصار" (5). وعن أنس عن النبي (ﷺ) أنه قال: "حـب الأنصار آية الإيمان. وبغضهم آية النفاق" (6). وعن البراء، عن النبي (ﷺ) أنه قال في الأنصار: "لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه

---

(1) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعًا، وهو حسن. انظر الإيمان لإبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة ص45. وانظر مسند الإمام أحمد جـ 4 ص286.

(2) انظر الجواب الفائض للرد على الرائض / تأليف سليمان بن سحمان مخطوطة بقسم المخطوطات بجامعة الرياض برقم (3413) الورقة (33).

(3) سورة النساء آية (112).

(4) رواه البخاري في باب التواضع. انظر فتح الباري (340/11).

(5) رواه مسلم. انظر صحيح مسلم (85/1).

(6) المصدر السابق.

الله، ومن أبغضهم أبغضه الله" [1]. وفي حديث عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنه قال: عهد النبي الأمي (ﷺ) إلي "أن لا يحـبني إلا مـؤمن، ولا يبغضني إلا منافق" [2]. ومعنى هذه الأحاديث، أن من عرف رتبة الأنصـار، وما كان منهم في نصرة الإسلام والسعي في إظهاره، وإيواء المسلمين، وقيامهم في مهمات الإسلام حق القيام و حبهم للنبي (ﷺ)، وحبـه إيـاهم وبـذلهم أموالهم، وأنفسهم بين يديه، وقتالهم معه، ومعاداتهم سائر الناس، مـن غـير المسلمين إيثارًا للإسلام، ومن عرف فضل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وقربة رسول الله (ﷺ)، وحب النبي (ﷺ)، له وما كان منه في نصرة الإسلام، وسوابقه فيه، ثم أحب الأنصار وعليًا لهذا– كان ذلك من دلائل صحة إيمانه، وصدقه في إسلامه، لسروره بظهور الإسلام، والقيام بما يرضى الله سـبحانه وتعالى، ورسوله (ﷺ) ومن أبغضهم كان ببغضه لهم علـى نفاقـه وفسـاد سريرته[3]. ويقاس على ذلك حب، أو بغض من سار على نجهم واقتفـى أثرهم إلى يوم الدين.

وقد دلت بعض الأحاديث أن القطيعة بين الإخوة المسلمين وعدم المـوالاة في الله من علامات الساعة وأشراطها، فقد روي عن حذيفة (رضي الله عنـه) قال سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: "علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ولكن أخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها، أن بين يديها فتنة وهرج، قالوا يا رسول الله الفتنة قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال بلسان الحبشة القتل،

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق ص (86).

(3) المصدر السابق ص (85).

ويلقي بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحدا" [1].

وهذا للأسف هو الحاصل بين عامة المسلمين في العصر الحاضر.

وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من حديث طويل أن من دعائه ﷺ: (اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سلمًا لأوليائك وعدوا، لأعدائك نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك) [2].

ومما تقدم يتضح لنا بكل جلاء ووضوح، وجوب موالاة الله ورسوله والمؤمنين، موالاة وتوليا بالقول والفعل والاعتقاد، إذا كنا صادقين في انتسابنا إلى أمة الإسلام، فالحب في الله والبغض في الله أصل عظيم من أصول الإيمان، يجب على العبد مراعاته، ولهذا جاء في الحديث المتقدم: "أوثق عرى الإيمان، الحب في الله، والبغض في الله"...... الحديث.

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب (رحمه الله): أصل دين الإسلام، وقاعداته أمران:-

الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى ذلك، والموالاة فيه، وتكفير من تركه، قال تعالى {إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله}[3].

الثاني: الإنذار عن الشرك، في عبادة الله، والتغليظ في ذلك، والمعاداة فيه، وتكفير من فعله[4].

---

(1) مسند أحمد (389/5).

(2) سنن الترمذي (148/5).

(3) سورة الممتحنة آية (4).

(4) انظر مجموعة التوحيد ص (33-34).

ثم يقول جاء في الحديث الصحيح، (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله) [(1)]. فقوله وكفر بما يعبد من دون الله، تأكيد للنفي، فلا يكون معصومًا إلا بذلك، لأن شهادة أن لا إله إلا الله، قيدت في الأحاديث بقيود ثقال، منها العلم، والإخلاص، والصدق، واليقين، وعدم الشك، وقبول ذلك ومحبته، والمعاداة فيه، والموالاة عليه) [(2)] اهـ.

فمن والى الله ورسوله والمؤمنين، ولم يعاد المشركين، لم يصح إيمانه، ولم يستقم إسلامه، لأن عداوة الكفار واجبة، بالقدر الذي يجب فيه، موالاة الله ورسوله، والمؤمنين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (الإخلاص محبة الله، وإرادة وجهه، فمن أحب الله أحب دينه، ومن لا فلا) [(3)].

وقال الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله -: الواجب على كل عبد أن يعرف أن من صدق الرسول ﷺ، ووحد الله، لا يجوز له أن يواد من حاد الله، ورسوله، حتى يتوب المحاد من المحادة لله ورسوله[(4)].اهـ.

والدليل على ذلك قوله تعالى: {لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم}[(5)]. فإذا كان الله عز وجل، قد نهى عن موادة الأب والابن والأخ

([1]) رواه مسلم (53/1).

([2]) انظر مجموعة التوحيد ص (35).

([3]) المصدر السابق ص36.

([4]) المصدر السابق.

([5]) سورة المجادلة آية (22).

والعشيرة، إذا كانوا كفارًا، فما بالك بمن يواد الكفار، الذين لا يرتبط بهم بنسب أو سبب مباح، وقال الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمهما الله - في معرض شرحه لكلام الشيخ ابن القيم - رحمه الله - في باب التوبة، قال: (يتبين لك أن الإسلام، لا يستقيم إلا بمعاداة أهل الشرك، فإن لم يعادهم فهو منهم، وإن لم يفعل فعلهم) [1].

ولأن محبة الله ومحبة الكفار، لا تجتمع في قلب مؤمن، حتى في حال الإكراه الملجئ، الذي يعذر فيه الإنسان بالنطق في كلمة الكفر، لا يعذر الإنسان برضا القلب عنهم، لأنه إذا رضى بقلبه، فليس بعد ذلك في قلبه ذرة من إيمان.

وفي كتاب وقعه علماء مكة المكرمة، بعد فتحها، على يد سعود ابن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، قالوا فيه: (ومن لم يدخل في هذا الدين ويعمل به، ويوالي أهله، ويعادي أعداءه، فهو عندنا كافر بالله واليوم الآخر، وواجب على إمام المسلمين جهاده وقتاله، حتى يتوب إلى الله مما هو عليه، ويعمل بهذا الدين) [2]. أ.هـ.

وقد وقع عليه أحد عشر عالما من علماء مكة الأجلاء .

يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - (لا تضيعوا حظكم من الله، وتحبوا دين اليهود والنصارى، على دين نبيكم، فما ظنكم بمن واجه الله، وهو يعلم من قلبه أنه عرف التوحيد، وأنه يعلم أنه دين الحق، وهو يبغضه ويبغض من أتى به، ويبغض من اتبعه، ويعرف أن دعوة غيره هي الكفر ولكن

([1]) انظر مجموعة التوحيد ص (35).

([2]) الدرر السنية (318/1).

مع ذلك يحبه ويحب من اتبعه، أتظنون أن الله يغفر لهذا) [1]

إن الموالاة كما قلنا في التعريف الشرعي هي المحبة القلبية وما يترتب عليه من أقوال وأفعال.

والمحبة لغير الله شرك كما تقدم إيضاح ذلك، فإخلاص الموحد لله يقتضي الحب في الله، والبغض فيه، والمعادة في الله، والموالاة فيه لأن العبد إذا أخلص لله في المحبة، أحب طاعته وأهل طاعته، وأبغض معصيته وأهل معصيته، على معاصيهم. فعلى قدر المحبة لله، تكون الموالاة بين المسلمين والمعادة للكافرين[2].

والمحبة لله وفي الله ليست من قبيل محبة العوض فقط، بل هي أيضًا إضافة لما يجده المسلم في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، محبة يجد المؤمن في قبله وفعله آثارها الحسنة، ونتائجها المحمودة، في دار الدنيا قبل الآخرة، بخلاف محبة الأجير والعامل الذي يعمل لمحبة العوض فقط، أما حال العمل، فلا يجد إلا التعب والضيق والنصب، وإنما يدفعه للعمل محبة العوض الذي ينتظره بعد تمام العمل.

حيث إن محبة الله وحده، ومحبة ما يحبه الله، تتفق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فلا تعارض أو تناقض بين ما أمر الله به وبين ما هو مودع في نفس الإنسان من حب وبغض، ولذلك كانت الموالاة في الله والمعاداة فيه ملة أبينا إبراهيم (عليه السلام) وهدي نبينا محمد ﷺ قال تعالى: {والذين آمنوا

([1]) انظر الدرر السنية (61/1).

([2]) انظر الدرر السنية جـ (25/11).

أشد حبًا لله}[1]. والموالاة في الله، هي سبب تناصر المسلمين فيما بينهم، وتعاونهم على ما يحقق لهم العزة والكرامة في الدنيا والآخرة.

وقد عد الشيخ محمد بن عبدالوهاب (رحمه الله) من نواقض الإسلام العشرة: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين[2]. مستدلاً بقول الله تعالى {ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}[3].

وقد أجمع علماء الإسلام أن من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم، أو اعتقد أن نظامهم أهدى وأفضل من هدي الله ورسوله، أو أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فهو كافر، لعدم استسلامه وانقياده انقيادًا كاملا لله عز وجل[4]. أهـ.

وعداوة الكفار أمر واجب على المسلم، ولو كان هذا الكافر من القرابة في النسب، قال تعالى {ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم

([1]) سورة البقرة آية (165).

([2]) انظر مجموعة التوحيد ص (28).

([3]) سورة المائدة آية (51).

([4]) الدرر السنية (176/2).

الفاسقين}[1].

فنهى سبحانه وتعالى في الآية الأولى، المؤمنين عن موالاة ومـوادة أقـرب الناس إليهم إذا كانوا كفارًا، وبين أن الذي يتولى أباه أو أخاه الكـافر، ظـالم لنفسه، يحملها على محمل قد حرمه الله عليها، فكيف بمن تولى الكافرين وهم أعداء له ولآبائه ولدينه، أفلا يكون هذا ظالمًا بلى والله إنه أظلم الظالمين، وقد عرف العلماء الظلم بأنه وضع الشيء في غير موضعه[2].

ثم بين في الآية الثانية أن هذه الأعذار الثمانية، التي يعتذر بها المعتذرون، لا تصح أن تكون عذرًا في موالاة، و موادة الكافرين فليس لأحد أن يـواليهم، خوفًا على أبيه، أو أخيه، أو بلاده، أو أمواله، أو مركزه، أو زوجته، وأولاده، فإن الله قد سد باب الأعذار بهذه الأمور ونحوها، وعد من يعتـذر بهـا مـن المنافقين، قال تعالى {سيقول لك المخلفون من الأعـراب شـغلتنا أموالنـا وأهلونا}[3].

وقد يعترض معترض، على أن هذه الآية والتي قبلها نزلت في شأن الجهاد، فما علاقتهما بالموالاة والمعاداة، فنقول إن علاقتهما بالموالاة والمعـاداة مـن وجهين:

الأول: إذا كانت هذه الأعذار الثمانية المذكورة في الآية ليست عذرًا في ترك الجهاد، الذي هو فرض كفاية في بعض أحواله، فكونها لا تكون عـذرًا، في ترك عداوة المشركين ومقاطعتهم بطريق الأولى.

([1]) سورة التوبة (23 – 24).

([2]) انظر مورد الظمآن لدروس الزمان للشيخ عبدالعزيز السلمان جـ (105/3).

([3]) سورة الفتح آية (11).

الثاني: قوله تعالى {أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله} فمحبـة الله ورسوله، توجب إيثار عداوة المشركين ومن في حكمهم، ومقاطعتهم على هذه الثمانية، كما أن محبة الجهاد توجب إيثاره عليها[1].

وقد ذكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب (رحمه الله): (أن المبغض لما جاء بـه الرسول ﷺ كافر بالإجماع ولو عمل به) [2]. ثم يقول في موضع آخر (فـلا ينبغي لرجل يؤمن بالله ورسوله و اليوم الآخر: أن يرد شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ لكونه مخالفًا لهواه أو لما عليه أهل وقته، ومشائخه، فإن الكفر كما قال ابن القيم (رحمه الله) في نونيته:

فالكفر ليس سوى العناد ورد ما جاء الرسول به لقول فلان

فانظر لعلك هكذا، دون التي قد قالها، فتبوء بالخسران[3]

وقال تعالى: {إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير}[4] أ.هـ.

أي إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في النـاس، وهو التباس الأمر، واختلاط المسلم بالكافر، على غير تمييز فيقع بذلك فساد عريض[5].

وفي رسالة بعث بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب (رحمه الله) إلى عبدالله بـن

([1]) نظر مجموعة التوحيد ص (262).

([2]) انظر الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص (230).

([3]) المصدر السابق ص (240).

([4]) سورة الأنفال أية (73).

([5]) ملحق المصنفات – مختصر تفسير سورة الأنفال للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص (25).

علي، ومحمد بن جمباز، يأمرهما بمخاطبة من لديهم، قال فيها (ولكن أخبروهم أن الحب والبغض، والموالاة والمعاداة، لا يصير للرجل دين إلا بها. فلا ينفعهم ترك الشرك، ولا ينفعهم قول (لا إله إلا الله)، حتى يبغضوا لله) [(1)].

وقال: (أبلغوهم، أن المعاداة، ملة أبينا إبراهيم (عليه السلام) ونحن مأمورون في متابعته. قال تعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه} إلى قوله تعالى: {حتى تؤمنوا بالله وحده}[(2)].

ثم قال: (واذكروا لهم أن الواجب على الرجل، أن يعلم عياله، وأهل بيته، الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة فيه، مثل تعليم الوضوء والصلاة، لأنه لا صحة لإسلام المرء، إلا بصحة الصلاة، ولا صحة لإسلامه أيضًا إلا بصحة الموالاة والمعاداة في الله) [(3)]. وفي مسائل لخصها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عن ابن تيمية (رحمهما الله) قوله: "إن الحسنات أمور وجودية، متعلقة بالرحمة والحكمة، لأنا إما فعل مأمور، أو ترك محظور، والترك أمر وجودي، فتركه لما عرف أنه ذنب، وكراهته له، ومنع نفسه منه، أمور وجودية، وإنما يثاب على الترك، على هذا الوجه، وقد جعل النبي ﷺ البغض في الله، من أوثق عرى الإيمان، وهو أصل الترك، وجعل المنع لله، من كمال الإيمان، وهو أصل الترك أيضًا، فبراءة الخليل (عليه السلام) من قومه المشركين ومعبوداتهم ليست تركًا محضًا، بل صادرًا عن بغض وعداوة لهم،

([1]) الرسائل الشخصية/ محمد بن عبدالوهاب ص (322).

([2]) المصدر السابق.

([3]) الرسائل الشخصية، محمد بن عبدالوهاب ص 323.

لبغضهم ومعاداتهم لله" [1]. ثم يقول الشيخ محمد بن عبـدالوهاب – إن الله سبحانه وتعالى يحب عباده المؤمنين فيريد الإحسان إليهم، وهم يحبونه فيريدون طاعته، وما من مؤمن إلا ويجد في قلبه محبة الله ورسوله والمؤمنين، والمحبة هذه تكون لكل محبوب بحسبه محبة الله هي الأساس ومحبة الرسول ﷺ، من محبة الله، ومحبة المؤمنين من محبة الله ومحبة رسوله، فإذا سمع المؤمن، من يسب أحد هؤلاء المحبوبين لديه، هان عليه ذلك الساب وانعقد القلب على عداوته، ومهاجرته، بل وجب السعي إلى إرجاعه إلى الحق أو محاربته على ذلك، خاصة إذا كـان السب لله أو لرسوله ﷺ لأن ذلك لا يصدر إلا عـن كـافر أومرتـد عـن الإسلام[2]، قال تعالى {لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون مـن حاد الله ورسوله}[3] ا.هـ.

وعلى هذا، فإن بغض الكفار واجب ومحبتهم ممتنعة، وعلى العكـس مـن ذلك أهل الإيمان، فإن حبهم واجب وبغضهم ممتنع.

يقول الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود (رحمهم الله) – وهو من العلماء العاملين – في رسالة بعث با إلى بلاد العجم وبلاد الروم قال فيها: (نحـن لا نكفر إلا من عرف التوحيد وسبه وسماه دين الخوارج، وعرف الشرك وأحبه وأحب أهله ودعا إليه وحض الناس عليه، بعد ما قامت عليه الحجـة، وإن لم يفعل الشرك أو فعله وسماه بغير اسمه، بعد ما عرف أن الله حرمه، أو كره مـا

([1]) ملحق المصنفات للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص (36).

([2]) انظر العقيدة الإسلامية / محمد بن عبدالوهاب ص (355).

([3]) سورة المادة آية (22).

أنزل الله أو أبغض ما أنزل الله[1]. قال تعالى: {ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم}[2].

فنستنتج من ذلك، أن أكبر ذنب وأضله وأعظمه منافاة لأهل الإسلام، الولاء لأعداء الله، من حب ومعاونة، ومناصرة لهم على كفرهم، لأن من أنواع الشرك الرئيسية شرك المحبة والولاء والشرك بأنواعه المتعددة من أعظم الذنوب. قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}[3]. وشرك الولاء للأعداء يتخذ صورًا متعددة منها السعي فيما يظهر به دين الكفار، وما هم عليه من باطل وشرك، يضاف إلى ذلك انشراح الصدر لهم، وطاعتهم والثناء عليهم ومدح من دخل تحت أمرهم المنكر، وانضم إلى سلكهم وحرض على ترك جهادهم ومسالمتهم، ودعا إلى عقد الأخوة معهم والطاعة لهم وتكثير سوادهم[4].

وقد روى عن جابر (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: "ستكون أمراء، من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم، فليس مني ولست منه، ولن يرد على الحوض" [5].

وروي عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ "من أعان

([1]) انظر الدرر السنية جـ 1 ص 145، 146.

([2]) سورة محمد آية (9).

([3]) سورة النساء آية (48).

([4]) انظر الدرر السنية (80/11).

([5]) رواه أحمد (95/2).

على خصومة بظلم أو يعين على ظلم لم يـزل في سـخط الله تعـالى حـتى ينـزع"[1].

وروي أيضًا عن امرأة يقال لها فسيلة قالت: سمعت أبي يقـول: سـألت رسول الله ﷺ فقلت: أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا. "ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم" [2].

ويقول الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (رحمهم الله) أن الله افترض على المؤمنين عداوة المشركين من الكفار والمنافقين ومـن حـذا حذوهم، وقطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين وبين أن من تولى الكفار فهـو منهم[3].

قال تعالى: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم}[4].

وقال تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقـون إليهم بالمودة}... إلى قوله {ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون}[5]أ.هـ.

فالذين ينادون بالشيوعية، أو الاشتراكية، أو يدعون إلى الأحزاب البعثية، أو القومية، أو الماسونية، هؤلاء كفار وإن عاشوا بين المسلمين، وتسموا بأسماء أهل الإسلام، لأنهم لم يرضوا بالإسلام دينًا، ولم يعتقدوا بكماله وتمامه، وإلا لم

---

[1] رواه بن ماجه، سنن ابن ماجه (52/2). وانظر الحلية لأبي نعيم (74/5، 247).

[2] رواه ابن ماجه، (462/2).

[3] انظر مجموعة التوحيد ص (113).

[4] سورة المائدة آية (51).

[5] سورة الممتحنة من آية (1 – 9).

ينتموا ويدعوا إلى تلك الأحزاب الكافرة. قال تعالى {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا}[1].

وقال تعالى {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا}[2].

وقال تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}[3].

وقد بين الله عز وجل في كتابه الكريم، وسنة رسوله المصطفى العظيم أن الناس في هذه الحياة قسمان لا ثالث لهما، حزب الله، وحزب الشيطان، وأمر المسلم أن ينضم إلى حزب الله، يحبه ويواليه ويناصره بجميع ما يملك، إن أراد أن يكون من حزب الله المفلحين، قال تعالى {لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله}... إلى قوله {أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون}[4]. أما من ضل وانحرف، وشقي في دنياه وأخراه، فهو الذي يتولى ويوالي حزب الشيطان، وحزب الشيطان يتخذ مظاهر متعددة وأشكالاً مختلفة، ولكن يجمعها شيء واحد هو تعارضها مع الإسلام جملة وتفصيلاً، فكل حزب يتعارض مع الإسلام هو حزب الشيطان مهما أطلق عليه من أسماء براقة، وألفاظ منمقة، قال تعالى {استحوذ عليهم الشيطان

([1]) سورة المائدة آية (3).

([2]) سورة النساء آية (65).

([3]) سورة آل عمران آية (85).

([4]) سورة المجادلة آية (22).

فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون}[1]. فيجب على المسلم أن يتعامل مع الناس، على أساس أن هناك من الناس من هم أولياء لله، ومنهم من هم أولياء للشيطان، وقد فرق الله بينهم بقوله تعالى في شأن أوليائه {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[2]. وقوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}[3]. وقال تعالى عن أولياء الشيطان {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم}[4]. وقال تعالى: {ومن يتخذ الشيطان وليًا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا}[5]. وقال تعالى: {أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو}[6]. فإذا عرف الناس أن فيهم، أولياء للرحمن، وأولياء للشيطان، فيجب على المسلم أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرق الرسول ﷺ بينهما[7].

---

[1] سورة المجادلة آية (19).

[2] سورة يونس آية (62).

[3] سورة البقرة أية (257).

[4] سورة الأنعام آية (121).

[5] سورة النساء آية (119).

[6] سورة الكهف آية (50).

[7] انظر مجموعة التوحيد ص 482.

فأولياء الله لا تجوز معاداتم أو محاربتهم، فعن أبي هريرة (رضي الله عنـه) قال: قال رسول الله ﷺ: "من عادى لي وليًا فقد آذنتـه بـالحرب" [(1)]... الحديث.

فيؤخذ من ذلك أن من كره من أحب الله خالف الله، ومـن خـالف الله عانده، ومن عانده أهلكه الله.

وإذا ثبت ذلك في جانب المعاداة ثبت ضد ذلك في جانب الموالاة لأوليـاء الله، فمن والى أولياء الله أكرمه الله، ومن عاداهم عاداه الله.

قال الطوفي[(2)]: (لما كان ولي الله هو من تولى الله بالطاعة والتقوى، تولاه بالحفظ والنصرة، وقد أجرى الله العادة بأن عدو العدو صديق، وصديق العدو عدو، فعدو ولي الله، عدو الله ومن عادى إنسانًا كان كمن حاربـه، ومـن حارب ولي الله كان كمن حارب الله) [(3)].

فالله عز وجل يدافع عن الذين آمنوا، قال تعالى {إن الله يدافع عن الذين

([1]) رواه البخاري جـ 11 ص 340.

##([2]) هو سليمان بن عبدالقوي بن عبدالحكيم بن سعيد ئبن سعيد الطوفي الصرصري البغدادي الحنبلي، ولد سنة (657هـ) ونشأ نشأة العلماء فهو فقيه، أصولي، مشارك في أنواع العلوم، ولد بقرية طوفي من أعمال بغداد، وتوفي فب الخليل بفلسطين سنة (716هـ) من تصانيفه الكثيرة: بغية الشامل في أمهات المسائل في أصول الدين، مختصر الحاصل في أصول الفقه، شرح مقامات الحريري في مجلدات، الإكسير في قواعد التنفسير، مختصر الجامع الصحيح للترمذي.

أنظر معجم المؤلفين / عمر رضا كحالة جـ 4 ص 266.

([3]) انظر فتح الباري جـ 11 ص 343.

آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور}[1]. فهذه كرامة من الله عز وجـل للذين آمنوا به ،ووالوه، وأحبوه، وأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر به، ونهوا عمـا نهـى عنـه، وأعطوا لمن يحب أن يعطي، ومنعوا من يحب أن يمنع، فمن أجل ذلك أحاطهم الله بعنايته ورعايته قال تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}.

فمن لم يعاد الكافرين ويوال المسلمين فليس من حزب الله ولا مـن أهـل ولايته.

يقول الشيخ سليمان بن سحمان:

فمن لم يعاد المشركين ومن لم يو ال ولم يبغض ولم يتجنب
فليس على منهاج سنة أحمد وليس على نهج قويم معرب[2]

ويقول في موضع آخر:

ومن كان ذا حب لمولاه إنما محبته للدين شرط فقيد
ومن لا فلا والحب لله إنما يتم بحب الدين دين محمد
فعاد الذي عادى لدين محمد ووال الذي والاه من كل مهتد
وأحبب رسول الله أكمل من دعا إلى الله وأكمل مرشد
أحب من الأولاد والنفس بل ومن جميع الورى والمال من كل اتلد
وأحبب لحب الله من كان مؤمنًا وأبغض لبغض الله أهل التمرد
وما الدين إلا الحب والبغض والولا كذاك البراء من كل غاو ومعتد[3]

([1]) سورة الحج آية (38).

([2]) عقود الجواهر المنضدة الحسان / سليمان بن سحمان ص 248.

([3]) المصدر السابق ص (259).

فخلاصة القول في أننا محتاجون إلى ولاية الله ونصرته وعونه لنا، وهـذا لا يتحقق إلا إذا كانت موالاتنا في الله، ومعاداتنا فيه. وأن مـن لم يـوال في الله ويعاد فيه فليس بمسلم، وأنه لا عز لنا في الدنيا والآخرة إلا بالمولاة في الله التي تجعل المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسـد بالسهر والحمى. ولا فوز لنا في الآخرة إلا بذلك، فمن والى الكفار فهو معهم دنيا وأخرى، قال تعالى {إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا}(1). وقال تعالى {بشر المنافقين بأن لهم عذابًا أليمًا . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعًا}(2).

5*اعلم أرشدك الله لطاعته: أن الحنفية ملة إبراهيم:- أن تعبد الله مخلصًـا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها.

"الحنفية هي: ملة إبراهيم عليه السلام، وهي طريقته وشريعته، وهي طريقة جميع الأنبياء عليهم السلام وهي أن تعبد الله مخلصًا له الدين.

فهذه هي حقيقة ملة إبراهيم، عبادة الله بالإخلاص، والإخلاص هو حـب الله، وإرادة وجهه" (3).

قال عز وجل: {إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرًا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وأتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} النحل [120-123]

---

(1) سورة النساء آية (140).

(2) سورة النساء الآيتان (138 – 139).

(3) حاشية الأصول الثلاثة –لابن قاسم.

قال العلامة السعدي:

"يخبر تعالى، عما فضل به خليله، عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية و المناقب الكاملة فقال: {إن إبراهيم كان أمة} أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير، هاديا مهتديا".

{قانتا لله} أي مديمًا لطاعة ربه، مخلصا له الدين.

{حنيفًا} مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضًا عمن سواه.

{ولم يك من المشركين} في قوله وعمله وجميع أحواله، لأنه إمام الموحدين الحنفاء" (1).

"والحنيف مشتق من الحنف، و هو الميل فالحنيف: المائل عن الشرك قصدًا إلى التوحيد، والحنيف: المستقيم، المستمك بالإسلام، المقبل على الله المعرض عن كل ما سواه" (2).

قال الفيروزآبادي قوله تعالى: {قانتًا لله حنيفًا} "أي مائلاً عن الباطل إلى الحق، وعن الضلال إلى الاستقامة" (3).

ثم أمر الله عز وجل نبيه محمد ﷺ باتباع ملة إبراهيم فقال سبحانه:

{ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} [النحل: 123]

وكذلك أمر الله المؤمنين بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام في تمسكه بالتوحيد وبراءته من الشرك و المشركين.

قال عز وجل: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا

---

(1) تفسير السعدي (252/4).
(2) حاشية ابن القاسم ص(22).
(3) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (505/2).

لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} [الممتحنة: 3]

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي:

{قد كانت لكم} يا معشر المؤمنين {أسوة حسنة} أي قدوة صالحة وائتمام ينفعكم.

{في إبراهيم والذين معه} من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا.

{إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله} أي: إذ تبرأ إبراهيم - عليه السلام -، ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح فقالوا: {كفرنا بكم وبدا} أي ظهر وبان {بيننا وبينكم العداوة والبغضاء} أي البغض بالقلوب وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان.

وليس لتلك العداوة والبغضاء، وقت ولا حد، بل ذلك {أبدًا} ما دمتم مستمرين على كفركم.

{حتى تؤمنوا بالله وحده} أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية.

فلكم أيها المؤمنون، أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، في القيام بالإيمان والتوحيد، ولوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده" (1).

وقال العلامة حمد بن عتيق - عليه رحمة الله رب العالمين -:

في قوله تعالى {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم...} الآية.

---

(1) تفسير السعدي (7/352-353).

قال: "فنقول: {قد كانت لكم أسوة حسنة} كقوله تعالى {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا} فأمرنا سبحانه أن نتأسى بإبراهيم الخليل ومن معه من المرسلين في قولهم لقومهم:

{إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله..} إلى آخره وإذا كان هذا واجبًا على المسلم أن يقول هذا لقومه الذين هو بين أظهرهم، فكونه واجبًا مع الكفار الأبعدين المخالفين له في جميع الأمور أبين وأبين.

وهاهنا نكتة بديعة في قوله {إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله} وهي أن الله تعالى قدم البراءة من المشركين العابدين غير الله على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله، لأن الأول أهم من الثاني، فإنه قد تبرأ من الأوثان ولا يتبرأ ممن عبدها، فلا يكون آتيًا بالواجب عليه، وأما إذا تبرأ من المشركين، فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم، وهذا كقوله تعالى: {وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًا} فقدم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم وكذا قوله: {فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله} وقوله: {وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله} فعليك بهذه النكتة فإنه تفتح لك بابًا إلى عداوة أعداء الله، فكم من إنسان لا يقع منه الشرك ولكنه لا يعادي أهله ... ثم قال: {كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء لأن الأولى أهم من الثانية، فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم، فلا يكون آتيًا بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء، ولابد أيضًا أن تكون العداوة والبغضاء باديتين ظاهرتين بينتين.

ويواصل الشيخ ابن عتيق كلامه:

"واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب، فإنها لا تنفع حتى تظهر آثارها وتتبين علاماتها، ولا تكون كذلك حتى تقترن بالعداوة والمقاطعة،

فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين، وأما إذا وجدت الموالاة والمواصلة، فإن ذلك يدل على عدم البغضاء، فعليك بتأمل هذا الموضع فإنه يجلوا عنـك شبهات كثيرة"[1].

كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبـدون} [ ]، ومعـنى يعبدون يوحدون.

"أي أن الله ما أوجد سبحانه وتعالى الثقلين إلا لحكمـة عظيمـة، وهـذه الحكمة العظيمة هي: عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة مـا سـواه، وأفادت الآية: أن الخلق لم يخلقوا عبثًا، ولم يتركوا سدى.

قال ابن عباس كل موضع في القرآن اعبدوا الله فمعناه وحدوا الله.

والعبادة في اللغة التذلل والخضوع من قولهم طريق معبد، أي: مذلل، قـد وطئته الأقدام.

وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات لأنم يفعلونا لله خاضـعين ذالين" [2].

وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نى عنـه الشرك. وهو: دعوة غيره معه، والدليل قوله تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا} [ ]

وقد تقدم معنا في المقدمة شيئًا من بيان التوحيد وفضله، وأنقل هنـا مـن

(1) بيان النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك (ص189 ضمن مجموعة التوحيد)
(2) حاشية الأصول الثلاثة – لابن قاسم ص(22).

كلام ابن القيم حيث قال: "اعلم أن حاجة العبد أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكـل عليـه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه، والعـين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد وروحه وقلبه لا صلاح لها إلا بإلاهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن الدنيا إلا بذكره، وهـي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لهـا إلا بمحبتـها وعبوديتها له، ورضاه وإكرامه لها" (1).

وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو: دعوة غيره معه، والـدليل قولـه تعـالى {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا} [ ]

قال ابن القيم أيضًا – مبيِّنًا خطورة الشرك:

"الشرك أعظم الذنوب، لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره، أي: إلا بالتوبـة منه، وما عداه، فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلا توبـة وإن شـاء عذب به، وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله وإنما كان كذلك، لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم إذ مضمونه تنقـيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به كما قال تعالى {ثم الـذين كفروا بربهم يعدلون} [الأنعام: 2] ولأنه مناقض للمقصود بـالخلق والأمـر مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاسـتكبار عـن طاعته والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال ﷺ: "لا تقوم الساعة حـتى لا يقـال في الأرض الله الله" رواه مسلم ولأن الشرك تشبيه للمخلـوق بالخـالق تعـالى

---

(1) طريق الهجرتين (57-58).

وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل، وأنواع العبادة كلها بالله وحده. فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فضلا عن غيره شبيهًا بمن له الخلق كله، وله الملك كله وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فأزمة الأمور كلها بيديه سبحانه، ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات، ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة، وغاية الحب مع غاية الذل كل ذلك يجب عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره، فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له، ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة " (1).

والدليل قوله تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا} [النساء: 36]

"يأمر سبحان بعبادته وحده لا شريك له، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وشيئًا نكرة في سياق النهي، فعم الشرك قليله وكثيره، وقرن سبحانه الأمر بالعبادة التي

---

(1) من كلام ابن القيم "رحمه الله" نقله عنه صاحب تيسير العزيز الحميد بمعناه ص (115 – 116).

فرضها على عباده، بالنهي عن الشرك الذي حرمه، فدلت على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة.

وتسمى هذه الآية: آية الحقوق العشرة، لأنها اشتملت على حقوق عشرة أحدها: الأمر بالتوحيد، ثم عطف عليه التسعة الباقية.

وابتداؤه تعالى بالأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك أدل دليل على أنه هو أهمها، فإنه لا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، فدلت على أنه هو أهمها، فدلت على أن التوحيد أوجب الواجبات، وأن ضده هو الشرك: أعظم المحرمات" (1).

وقال العلامة السعدي:

"يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة، وذلاً، وإخلاصًا له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

وينهى عن الشرك به شيئا، لا شركا أصغر، ولا أكبر، لا ملكًا، ولا نبيًا، ولا وليًا ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتًا ولا حياةً، ولا نشورًا.

بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل، الذي لا يشركه، ولا يعينه عليه أحد.

ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه، أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب" (2).

---

(1) حاشية الأصول الثلاثة –لابن قاسم ص(24).
(2) تفسير السعدي (63/2).

الأصـول

الثـــــــــلاثـة

فإذا قيل لك ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمدا ﷺ.

"أي إذا سألك سائل فقال لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على كل مكلف معرفتها والعمل بمقتضاها؟

فقل: معرفة العبد ربه، بما تعرف به إليه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ من وحدانيته، وأسمائه وصفاته، وهذا أصل الأصول فيجب علينا معرفته، لنعبده على بصيرة ويقين.

والثاني من الأصول: معرفة دين الله الذي تعبدنا به، وهو فعل ما أوجب علينا أن نفعله، وترك ما أوجب علينا أن نتركه، وهذا أصل عظيم، فيجب علينا معرفته.

والأصل الثالث: معرفة نبيه ﷺ، فإنه الواسطة بيننا وبين الله عز وجل، ولا طريق لنا إلى ما تعبدنا به إلا بما جاء به ﷺ، وهو وإن كان بشرًا، فأهمية معرفته من أهمية معرفة مرسله وما أرسل به.

وذكر المصنف رحمه الله هذه الأصول الثلاثة مجملة، ثم ذكرها بعد مفصلة أصلاً أصلاً، تتميما للفائدة، وتنشيطا للقارئ فإنه إذا عرفها مجملة وعرف ألفاظها، وضبطها، بقي متشوقًا إلى معرفة معانيها، وهي المقصود بهذه النبذة، وما تقدمها من المسائل: فلعل بعض تلاميذه قرنها بها" (1).

---

(1) حاشية ابن قاسم ص (25).

الأصل الأول :

معرفة الرب

الأصل الأول : معرفة الرب :

فإذا قيل لك من ربك؟ فقل ربي الله الذي رباني وربي جميع العالمين بنعمه، وهو معبودي ليس لي معبود سواه.

"هذا شروع في تفصيل الأصول الثلاثة التي تقدمت مجملة، ذكرها هاهنا مفصلة، فكأنه قال: الأصل الأول من أصول الدين الثلاثة، التي يجب على العبد معرفتها، إذ قال لك قائل من ربك؟ أي: من خالقك ورازقك ومعبودك، الذي ليس لك معبود سواه.

فقل ربي هو الله، خالقي ومالكي، ومعبودي، الذي أوجدني من العدم، ورباني بالنعم، الظاهرة والباطنة" (1).

قال ابن قتيبة في "غريب القران": ومن صفاته (الرب)، والرب المالك، يقال: هذا رب الدار، ورب الضيعة ورب الغلام، أي مالكه، قال الله سبحانه {ارجع إلى ربك} أي: إلى سيدك، ولا يقال لمخلوق: هذا الرب، معرفًا بالألف واللام، كما يقال لله، إنما يقال: هذا رب كذا، فيعرف بالإضافة، لأن الله مالك كل شيء فإذا قيل: الرب؛ دلت الألف واللام على معنى العموم، وإذا قيل لمخلوق: رب كذا ورب كذا؛ نسب إلى شيء خاص؛ لأنه لا يملك شيئًا غيره"(2).

وقال ابن القيم: "وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة، وهي (الله) و(الرب)، و(الرحمن)، كيف نشأ عنها الخلق والأمر. والثواب والعقاب، وكيف جمعت الخلق وفرقتهم، فلها الجمع ولها الفرق.

---

(1) المرجع السابق ص(25).
(2) غريب القرآن: ص(9).

فاسم (الرب) له الجمع الجامع لجميع المخلوقات؛ فهو رب كـل شـيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل مـن في السـموات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبيـة، وافترقـوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إلـه إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخـوف والحـب والإنابـة والإخبات والخشية والتذلل والخضوع إلا له، وهنا افترق النـاس، وصـاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة، فالإلهية هي التي فرقتهم كما أن الربوبية هي التي جمعتهم فالدين والشرع، والأمـر والنـهي –مظهره وقيامه- من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب، والعقاب والجنة والنار من صفة الملك، وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه، وعدله، وكل واحدة مـن هـذه الأمـور لا تنفـك عـن الأخرى..." (1) إلخ.

والدليل قوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: 2] وكل ما سـوى الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم.

"الحمد هو الثناء على المحمود، مع حبـه وإجلالـه وتعظيمـه، والاسـم الشريف: علم على ربنا تبارك وتعالى، لا يسمى به سواه، والـرب: المالـك والسيد، ولا يطلق إلا على الله تعالى، ورب مضاف والعالمين مضـاف إليـه، والمراد: جميع المخلوقات وهذه الآية هي: أول آية في المصحف، بعد البسملة، وآخر دعوى أهل الجنة، وفيها تفرده بجميع الخلـق وربوبيتـهم وملكهـم وتصرف فيهم بما يشاء، وهو معبودهم ليس لهم معبود سواه، فإن الـرب إذا

(1) مدارج السالكين (34/1).

أفرد دخل فيه المعبود، فهو المالك المتصرف المعبود وحده، دون كل من سواه" (1).

قال العلامة السعدي:

{الحمد لله} هو الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل، بجميع الوجوه.

{رب العالمين} الرب، هو المربي جميع العالمين وهم من سوى الله، بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء، فما بم من نعمة، فمنه تعالى.

وتربيته تعالى لخلقه نوعان:

عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة تربية لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر.

ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

فدل قوله {رب العالمين} على انفراده بالخلق، والتدبير، والنعم، وكمال غناه.

وتمام فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار(2)".

---

(1) حاشية ابن قاسم ص(26).
(2) تفسير السعدي (34/1).

فإذا قيل لك بم عرفت ربك؟ فقل بآياته ومخلوقاته

أي فقل عرفته سبحانه بآياته ومخلوقاته، التي نصبها دلالة على وحدانيته، وتفرده بالربوبية والإلهية، والآيات جمع آية، والآية هي: العلامة والدلالة، والبرهان والحجة(1)".

قال الفيروز أبادي: "أما الآية في أصل اللغة: بمعنى العجب، وبمعنى العلامة، وبمعنى الجماعة، سميت آية القرآن آية لأنها علامة دالة على ما تضمنته من الأحكام، وعلامة دالة على انقطاعه عما بعده وعما قبله، أو لأن فيها عجائب من القصص، والأمثال، والتفصيل، والإجمال، والتميز عن كلام المخلوقين..." (2).

وقال أيضًا: "الآية العلامة الظاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مدرك الظاهر منها علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته، إذ كان حكمها سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات، والمعقولات، فمن علم بملازمة العلَم للطريق المنهج ثم وجد العلَم علم أنه وجد الطريق،وكذا إذا علم شيئًا مصنوعًا علم أنه لابد له من صانع" (3).

"والمخلوقات: جمع مخلوق، وهو ما أوجد بعد العدم.

وآيات الرب سبحانه هي: دلالاته وبراهينه التي بها يعرفه العباد، ويعرفون أسمائه وصفاته وتوحيده، وأمره ونهيه، وآياته العَيانية الخلقية، والنظر فيها، والاستدلال بها، يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية.

والرسل تخبر عن الله سبحانه بكلامه الذي تكلم به، وهو آياته القولية،

---

(1) حاشية ابن قاسم ص(27).
(2) بصائر ذوي التمييز (85/1).
(3) المرجع السابق (63/2).

ويستدلون على ذلك بمفعولاته، التي تشهد على صحة ذلك، وهـي آياتـه العَيانية، والعقل يجمع بين هذه وهذه، فيجزم بصحة ما جاءت بـه الرسـل، فتتفق شهادة السمع و البصر، والعقل والفطرة، وكـل شـيء مـن آياتـه ومخلوقاته، وإن دق؛ فهو دال على وحدانيته وتفرده بالربوبية، كمـا قـال الشاعر:

يعصى فواعجبًا كيف الإله أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة أبدًا شاهد
وفي كل شي له آية تدل على أنه واحد

وقال آخر:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك
على قصب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقال آخر:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
قد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فإيجاد هذه المخلوقات: أوضح دليل على وجود الباري تعـالى، وتفـرده بالربوبية والإلهية، ونعرف ربنا تبارك وتعالى أيضًا : بصـدق الرسـول ﷺ، بالطرق الدالة على ذلك، وهي كثيرة، فالكتاب والسنة مملوء بذلك" (1).

ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر، ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهما.

---

(1)حاشية بن قاسم ص(27-28).

"أي ومن أعظم آياته المشاهدة بالأبصار الليل والنهار، وكون الليل يأتي على النهار فيغطيه، حتى كأنه لم يكن، ثم يأتي النهار فيذهب بظلمة الليل، حتى كأن الليل لم يكن، فمجيء هذا، وذهاب هذا بهذه الصفة، وهذه الصورة المشاهدة: دال أعظم دلالة على وحدانية خالقه وموجوده.

ومن أعظم آياته المشاهدة بالأبصار: الشمس والقمر وكونهما يجريان هذا الجريان المتقن {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون} دل أعظم دلالة على وحدانية موجدهما تعالى وتقدس.

ومن أعظم مخلوقات الله الدالة على وحدانيته تعالى، السموات السبع، وسعتها وارتفاعها، والأرضون السبع، وامتدادها وسعة أرجائها، وما في السموات السبع، من الكواكب الزاهرة، والآيات الباهرة، وما في الأرضين السبع من الجبال والبحار، وأصناف المخلوقات، من الحيوانات والنباتات، وسائر الموجودات، وما بين السموات والأرض، من الأهوية، والسحاب، وغير ذلك: دال على وحدانية الباري جل جلاله، وعلى تفرده بالخلق والتدبير"(1)

[الليل والنهار] :

ومن آياته سبحانه و تعالى الليل والنهار، وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبدئه؛ كقوله تعالى: {ومن آياته الليل والنهار} [فصلت: 37]، وقوله: {وهو الذي جعل لكم الليل لباسًا والنوم سباتًا وجعل النهار نشورًا} [الفرقان: 47]، وقوله عز وجل: {وهو

---

(1)حاشية بن قاسم ص(28-29) .

الذي خلق الليل والشمس والقمر كل في فلك يسبحون} [الأنبياء: 33]، وقوله عز وجل: {الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا} [غافر: 61].

وهذا كثير في القرآن.

فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته، كيف جعل الليل سكنًا ولباسًا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي و التعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها، جاء فالق الإصباح –سبحانه وتعالى- بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق، وأزالها، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها.

فيا له من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهد النفوس له بحيث صار عادة ومألفًا منعها عن الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وهذا أيضًا من آياته الباهرة أن يَعْمَى عن هذه الآيات الواضحات البينات من شاء من خلقه فلا يهتدي بها ولا يبصرها كمن هو واقف في الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء

وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه

ويسأل"[1].

[مقادير الليل والنهار] :

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالهما أربعة[2] وعشرين ساعة، وجعلا يتعارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه.

قال تعالى: {يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل} [فاطر: 13]، وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى: يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه.

وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما نقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة.

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع

([1]) مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والولاية - لابن القيم (2/39-40)

(2) كذا في الأصول المخطوطة، والجادة: "أربعًا".

عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضـع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه.

والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشـمس وتغيب وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعـة ويكـون فيهـا اعتدالان: خريفي وربيعي.

[الإنارة في الليل] :

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك، فـإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء علـى الأبـدان والنبات، فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان.

فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنـوار ولم يجعلـه ظلمة داجية حندسًا(1) لا ضوء فيه أصلاً، فكان لا يتمكن الحيوان فيه مـن شيء من الحركة ولا الأعمال.

ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعلم لا يتـهيأ لـه بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر أو لخوفه بالنهار – كحال كثير من الحيوان – جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرةٌ كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع فجعل ضـوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس لئلا يستوي الليل والنـهار فتفـوت حكمة الاختلاف بينهما والتفاوت الذي قدره العزيز العليم.

فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمـة، ولم يجعـل

---

(1) هي الليل المظلم، وجمعها حنادس. "القاموس المحيط " (ص 694).

الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور، رحمةً منه وإحسانًا، فسـبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه"(1).

*6[الشمس والقمر] :

"ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليـل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كـان النـاس يسـعون في معايشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانوا يتهنؤن بالعيش مع فقد النور؟ ثم تأمل الحكمة في غروبها؛ فإنه لولا غروبهـا لم يكـن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعـاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء.

ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شـروق الشـمس واتصـال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤوا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هـذا – مـع تضادهما – متعاونين متظاهرين، بما تمام مصالح العالم.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل: {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة مـن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون} [القصص: 71 – 72]، وخص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصـرفه،

---

(1) مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والولاية - لابن القيم (56/2-59) .

وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات ما لا يسمع في النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس، فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله: {أفلا تسمعون} راجع إلى قوله: {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم} به، وقوله: {أفلا تبصرون} راجع إلى قوله: {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة}.

وقال تعالى: {تبارك الذي جعل في السماء بروجًا وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا} [الفرقان: 61-62]، فذكر تعالى خَلق الليل والنهار، وأنهما خِلفةٌ، أي: يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما.

وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار؛ كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يُحايِثُه، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثًا حتى يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عَقِيبَه فيطلبه حثيثًا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه.

[الشمس وأحوالها] :

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول، وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحدًا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه؛ فلو كان صيفًا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء، ولو كان شتاء لفاتت منافع الصيف، وكذلك لو كان ربيعًا كله، أو خريفًا كله.

ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها، وتبرد الظواهر ويستكثف الهواء فيه، فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها، وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حلله حرارةُ الصيف من الأبدان.

وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيظهر النبات، ويتنور الشجر بالزهر، ويتحرك الحيوان للتناسل.

وفي الصيف يحتد الهواء ويسخن جدًا فتنضج الثمار وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التي انعقدت في الشتاء وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف، ولهذا تبرد العيون والآبار ولا تضم المعدة الطعام التي كانت تضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة، لأنها كانت تضمها بالحرارة التي سكنت في البطون، فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد، وغارت البرودة فيه.

فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم، وجعله الله بحكمته برزخًا بين سَمومِ الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجدُ أذاه ويعظم ضرره، فإذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه، حتى تأتي جمهرة البرد بعد استعداد وقبول.

حكمة بالغة وآية باهرة.

وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج وترتيب.

فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين.

[النور والإضاءة] :

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أَوْدِعَاهُ من النور والإضاءة، وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ي لانا مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنةِ وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يعلم حساب الأعمار و الآجال المؤجلة للديون والإيجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك، فلـولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها م لة بعد م لة لم يعلـم شيء من ذلك.

وقد نبه الله تعالى على هذا في غير موضع من كتابه، كقوله: {هو الـذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون} [يونس: 5]، وقـال تعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب} [الإسراء: 12].

[طلوع الشمس على العالم] :

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم، كيف قدره العزيـز العلـيم سبحانه، فإنه لو كانت تطلع في موضعٍ من السماء فتقفُ فيه ولا تَعْدُوهُ لمـا وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن ظل أحد جوانب كُرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، فكان يكون الليل دائمًا سرمدًا على من لم تطلع علـيهم، والنهار دائمًا سرمدًا على من هي طالعةٌ عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء.

فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدرَ طُلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشى جهةً بعد جهةٍ حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النـهار

فيختلفَ عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم"[1].

[خلق السماء] :

تأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة، كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها! بحيث لا تصعد علواً كالنار، ولا تهبطُ نازلة كالأجسام الثقيلة، ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقهـا، بـل هـي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمـت[2] ولا عوج.

ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشهدها موافقة للبصر وتقوية له، حتى إن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمـان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد، وقال الأطباء: إن من كَل بصرُه فإنه من دوائه أن يُديم الاطلاع إلى إجانة[3] خضراء مملوءةٍ ماء.

فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيـه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتنا له، هذا بعض فوائد هذا اللون، والحكمة فيه أضعاف ذلك"[4].

[الأرض وخلقتها] :

"وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيـات فاطرهـا

([1]) مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والولاية(2/50-55) .

(2) وهن ضعف.

(3) هي الإناء.

([4]) مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والولاية (2/49) .

وبديعها، خَلَقها سبحانه فراشًا ومهادًا، وذللها لعباده، وجعل فيها أرزاقهـم وأقواتم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتم، وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بم، ووسع أكنافها ودحاها، فمدها وبسطها، وطحاها فوسعها من جوانبها، وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتا للأموات تضمهم في بطنـها إذا مـاتوا، فظهرها وطنٌ للأحياء وطنٌ للأموات.

وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه، ودعا عباده إلى النظـر إليهـا، والتفكر في خلقها؛ فقـال تعـالى: {والأرض فرشـناها فـنعم الماهـدون} [الذاريات: 48]، {الله الذي جعل لكم الأرض قرارًا} [غافر: 64]، {الذي جعل لكم الأرض فراشا} [البقرة: 22]، {أفلا ينظرون إلى الإبـل كيـف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سـطحت} [الغاشـية: 17-20]، {إن في السـموات والأرض لآيـات للمؤمنين} [الجاثية: 3]...

وهذا كثير في القرآن.

فانظر إليها وهي ميتة هامدة خاشعة، فإذا أنزلنـا عليهـا المـاء اهتـزت فتحركت، وربت فارتفعت، واخضرت وأنبتت من كل زوج بيج، فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر، بيج للناظرين، كريم للمتناولين، فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانا ومنافعها، والفواكه والثمار، وأنواع الأدوية ومراعي الدواب والطير.

ثم انظر إلى قطعها المتجاورات، وكيف يـ ل عليها مـاءٌ واحـدٌ فتنبـت الأزواج المختلفةَ المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللقاح واحدٌ، والأم واحدةٌ، كما قال تعالى: {وفي الأرض قطع متجاورات وجنـات

من أعناب وزرع ونخيل صنوانٌ وغير صنوانٍ يسقى بماءٍ واحدٍ ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون} [الرعد: 4]، فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعةً في بطن هذه الأم؟ وكيف كان حملها من لقاح واحد؟ صنع الله الذي أتقن كل شيء، لا إله إلا هو.

ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده ودعاهم إلى التفكر فيه.

قال الله تعالى: {وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور} [الحج: 5-7]، فجعل النظر في هذه الآية وما قبلها من خلق الجنين دليلاً على هذه النتائج الخمس مستلزمًا للعلم بها.

ثم انظره كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب؟ وكيف نصبها فأحسن نصبها؟ وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض لئلا تضمحل على تطاول السنين وترادف الأمطار و الرياح، بل أتقن صنعها وأحكم وضعها، وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها، ثم هدى الناس إلى استخراج تلك المعادن منها، وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلي والزينة واللباس والسلاح وآلات المعاش على اختلافها، ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم علم شيء منه ولا قدرة عليه.

ومن آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض يدرك بحس اللمس عند هبوبه، يدركُ جسمه ولا يرى شخصه، فهو يجري بين السماء والأرض والطير محلقة فيه سابحةٌ بأجنحتها في أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة

وُبشرًا بين يدي رحمته، ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل.

وتسمى رياح الرحمة المبشرات والنشرَ والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقح، ورياح العذاب العاصف والقاصف – وهما في البحر - والعقيم و الصرصرَ – وهما في البر -، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيمًا، وأودعه عذأبا أليمًا.

وجعله نقمةً على من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا ونحسًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه وهي مختلفة في مهابا، فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال.

وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف؛ فريحٌ لينةٌ رطبةٌ تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه وأخرى تلكه وُتْعِطبه، وأخرى تشده وُتصَلبه وأخرى تُوْهِنُهُ و تضعفه.

ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها، فريح تثير السحاب وريح ُتلقحُهُ، وريحٌ تحمله على متونا وريح تغذي النبات.

ولما كانت الريح مختلفة في مهابا وطبائعها جعل لكل ريحٍ ريحًا مقابلتها تكسر سورتا(1) وحدتا، وتبقي لينَها ورحمتها، فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فإنه ريحٌ واحدةٌ ترسل من وجهٍ واحدٍ لإهلاك ما ترسَلُ بإهلاكه، فلا تقوم لها ريحٌ أخرى تقابلها وتكسر سورتا وتدفع حدتا، بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما أتى عليه.

وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف اطرد هذا فيه في البر، وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ واحد، كقوله تعالى: {هو الذي

---

(1) شدتا.

يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان} [يونس: 22]، فـإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من وجه واحدٍ، فإذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها.

فالمقصود منها في البحر خلاف المقصود منها في البر، إذ المقصود في البحر أن تكون واحدةً طيبةً لا يعارضها شيء فأفردت هنا وجمعَت في البر.

ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه، من الشدة والقوة والبأس ما تقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة، ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه.

فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق(1) مثلاً وامتلأ به، ثم وضع عليه الجسم الثقيل -كالرجل وغيره- وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يُطـق، ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه، فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوي الشديد.

وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لا يرسب فيه؛ لأن الهواء يمتنـع من الغوص في الماء فتتعلق به السفينة المشحونة المُوقَرةُ.

فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغَرق، وهذا كالذي يهوى في قليب فيتعلق بذيل رجل قـوي شديد يمتنع عن السقوط في القليب فينجو بتعلقه به، فسبحان من علق هـذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد!

ومن آياته السحاب المسخرُ بين السماء والأرض، كيف ينشـئه سـبحانه

---

(1) وعاء من جلد يتخذ للماء والشراب.

بالرياح فتثيره كِسَفًا؟! ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض، ثم تلقحه الريح –وهي التي سماها سبحانه لواقح- ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوى عليها اهراقَ ماءه عليها، فيرسل سبحانه عليه الريح وهو في الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذي ويهدم ما يـ ل عليه بجملته، حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها، فهي روايا الأرض محمولةٌ على ظهر الرياح.

وفي "الترمذي" وغيره أن النبي ﷺ لما رأى السحاب قال: "هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه" (1) فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التي عليها ميرتهم(2).

وكان الحسن إذا رأى السحاب قال: في هذا –والله- رزقكم، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم.

وفي "الصحيح" عن النبي ﷺ قال: "بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرض إذ سمع صوتًا في سحابةٍ: اسق حديقة فلانٍ، فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة، فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها، فإذا برجل معه مِسْحاةٌ يَسحي الماء بها، فقال: ما اسمك يا عبدالله؟ قال: فلان، للاسم الذي سمعه في السحابة..." (3).

وبالجملة؛ فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء، وهو مع لينه

---

(1) #(برقم: 3298) هو تمام الحديث المتقدم قبل صفحات –وله بقية-، وقد رواه –أيضًا- ابن أبي عاصم في "السنة" (678)، وأبو الشيخ في "العظمة" (201) و(202)، وأحمد (370/2) والبيهقي في "الأسماء والصفات" (399-400). وضعفه البيهقي، وابن الجوزي في "العلل المتناهية" (13/1)، والذهبي في "العلو" (ص60) معلين له بالإرسال.

(2) طعامهم.

(3) "صحيح مسلم" (2984).

ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض، إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء فيرسله وينزله منه مُقطعًا بالقطرات، كل قطرةٍ بقدرٍ مخصوص اقتضته حكمته ورحمته، فيرش السحاب الماء على الأرض رشًا، ويرسله قطرات مفصلةً، لا تختلط قطرةٌ منها بأخرى، ولا يتقدم متأخرها، ولا يتأخرُ متقدمها، ولا تدرك قطرة صاحبتها فتمتزج بها، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرةً قطرةً، قد عينت كل قطرة منها لجزءٍ من الأرض لا تتعداه إلى غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدةٍ لعجزوا عنه.

فتأمل كيف يسوقه رزقًا للعباد والدواب والطير والذر والنمل، يسوقه رزقًا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلانيّ، فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا.

ثم كيف أودعه في الأرض، ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات، فهذا النبات يغذي، وهذا يصلح الغذاء، وهذا ينفذه، وهذا يضعف، وهذا سم قاتل، وهذا شفاء من السم، وهذا يمرض، وهذا دواء من المرض، وهذا يُبرِدُ، وهذا يُسخِنُ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق، وهذا إذا حصل فيها ولدَ الصفراء واستحال إليها، وهذا يدفع البلغم والسوداء، وهذا يستحيل إليهما، وهذا يهيج الدم، وهذا يسكنه، وهذا ينوم، وهذا يمنع النوم، وهذا يفرح، وهذا يجلب الغم... إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا تكاد تخلو ورقةٌ منه ولا عرقٌ ولا ثمرةٌ من منافع تعجز عقول البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها.

وانظر إلى مجاري الماء في تلك العروق الرقيقةِ الضئيلة الضعيفة التي لا يكاد

البصر يدركها إلا بعد تحديقه! كيف يقوى على قسره وعلى اجتذابه من مقره ومركزه إلى فوق، ثم ينصرف في تلك المجاري بحسب قبولها وسعتها وضيقها، ثم تتفرق وتتشعب وتدق إلى غاية لا ينالها البصر.

ثم انظر إلى تكون حمل الشجر وتقلبه من حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار، ترى العجب العجاب، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين، بينا تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها إذ كساها ربها وخالقها من الزهر أحسن كسوةٍ، ثم سلبها تلك الكسوة وكساها من الورق كسوةً هي أثبت من الأولى، ثم أطلع فيها حملها ضعيفًا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبًا لتلك الثمرة الضعيفة لتستجن به من الحر والبرد والآفات، ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها، وغذاها في تلك العروق والمجاري فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبان أمه، ثم رباها ونماها شيئًا فشيئًا حتى استوت وكملت وتناهى إدراكها فأخرج ذلك الجَنْيَ اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء.

هذا وكم لله من آية في كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه، تفنى الأعمار دون الإحاطة بها وبجميع تفاصيلها!"[1]

والدليل قوله تعالى:

{ومن آياته الليل والنهار و الشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون} [فصلت: 37]

قال ابن كثير:

"يقول تعالى منبهًا خلقه على قدرته العظيمة وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر {ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر} أي أنه خلق

([1])مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والولاية(31-38) . وانظر المزيد من التأملات في خلق الله وآياته في مفتاح دارالسعادة وشفاء العليل لابن القيم.

الليل بظلامه والنهار بضيائه وهما متعاقبان لا يفتـران، والشـمس ونورهـا وإشراقها والقمر وضياؤه وتقدير منازله في فلكه واختلاف سـيره في سمائـه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشـهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لمـا كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبـه تعالى على أنما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسـخيره فقـال: {لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون} أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه لا يغفر أن يشرك به ولهذا قال تعالى: {فإن استكبروا} أي عن إفراد العبادة له وأبـوا إلا أن يشركوا معه غيره {تبارك الله} أي عظم وتعالى، وكثر خيره وإحسانه.

فتبارك في نفسه، لعظمة أوصافه وكمالها و بارك غيره بإحلال الخير الجزيل، والبر الكثير فكل بركة في الكون، فمن آثار رحمته، ولهذا قـال: {تبـارك الله رب العالمين}.

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده المعبـود المقصود في الحوائج كلها، أمر يترتب على ذلك فقال {ادعوا ربكم تضـرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين...}

وقوله تعالى {إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيـام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار، يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخراتٌ بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} [الأعراف: 54].

قال السعدي: "يقول تعالى مبينًا أنه الرب المعبود وحده لا شريك لـه {إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض} وما فيهما، على عظمهما وسعتهما وإحكامهما، و إتقانما وبديع خلقهما

{في ستة أيام} أولها: يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة فلما قضاهما، وأودع فيهما من أمره ما أودع {استوى} تبارك وتعالى على {العرش} العظيم، الذي يسع السموات وا لأرض، وما فيهما، وما بينهما.

استوى استواءً يليق بجلاله، وعظمته، وسلطانه. فاستوى على العرش، واحتوى على الممالك وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال:

{يغشى الليل} المظلم {النهار} المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الأدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب، الذي حصل لهم في النهار.

{يطلبه حثيثًا} كلما جاء الليل، ذهب النهار، وكلما جاء النهار، ذهب الليل وهكذا أبدًا، على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار.

{والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره} أي بتسخيره وتدبيره الدال على ما له من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها، دال على كمال قدرته.

وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان، دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها، دال على سعة رحمته وعلمه، وأنه الإله الحق، الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

{ألا له الخلق والأمر} أي له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها، وأوصافها، وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات.

فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية. وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء.قال عز وجل {فإن

استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون} قال سبحانه {فإن استكبروا} أي عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معـه غيره {فالذين عند ربك} يعني الملائكة {يسبحون له بالليل والنهار وهـم لا يسئمون} كقوله عز وجل {فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين} [ ].

فمن أتى بالعبادة كاملة، كان من المتقين، ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه" (1).

والرب هو المعبود، والدليل قوله تعالى {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الـذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكـم الأرض فراشًـا والسماء بناءً * وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم، فـلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون} [البقرة: 21-22]

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - "الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة"

.

قال ابن كثير: "شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانيته ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسـباغه علـيهم الـنعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشًا أي مهدًا كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات والسماء بناء وهو السقف" (2).

وقال السعدي:

"هذا أمر عام لجميع الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة، لامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعـالى

---

(1) تفسير السعدي (1/57-59).
(2) ابن كثير (1/56).

{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}

ثم استدل سبحانه على وجوب عبادته وحده بأنه ربكم، الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشًا تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من وجوه الانتفاع بها.

وجعل السماء بناءً، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم.

{وأنزل من السماء ماء} والسماء هو كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون المراد هنا، السحاب.

فأنزل منه تعالى ماء {فأخرج به من الثمرات} كالحبوب، والثمار من نخيل وفواكه وزروع وغيرها {رزقًا لكم} به ترتزقون وتتقوتون وتعيشون وتفكهون.

{فلا تجعلوا لله أندادًا} أي: أشباهًا ونظراء من المخلوقين فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبونه، وهم مثلكم مخلوقون، مرزوقون ، مُدَبرون ، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا ينفعونكم، ولا يضرون {وأنتم تعلمون} أن الله ليس له شريك ولا نظير، لا في الخلق، والرزق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال.

فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؛ هذا من أعجب العجب وأسفه السفه.

وهذه الآية، جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة ما سواه، وهو ذكر

توحيد الربوبية، المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير.

فإذا كان كل أحد، مقرًا بأنه ليس له شريك بذلك، فكذلك فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك في عبادته، وهذا أوضح دليل عقلي، على وحدانية الباري تعالى، وبطلان الشرك وقوله {لعلكم تتقون} يحتمل أن المعنى أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك.

ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح وهما متلازمان"(1).

وأنواع العبادة التي أمر الله بها ، مثل ألإسلام ، ةالإيمان ،والإحسان ، ومنه الدعاء ، والخوف ،والرجاء ، والتوكل ،والرغبة ، والرهبة ،والخشوع ،والخشية والإنابة ، والاستعانة ، والاستعاذة ، والاستغاثة ،والذبح والنذ ،وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها .

والدليل قوله تعالى :{ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا } [الجن : 18] .

فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر .

والدليل قوله تعالى : { ومن يدع مع الله إلهًا آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون } [المؤمنون : 117]

وفي الحديث: "الدعاء مخ العبادة".

الحديث رواه الترمذي في سننه (455/5) رقم (3371) كتاب الدعوات – باب ما جاء في فضل الدعاء وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (57/1-58) .

الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

قلت: وإسناده ضعيف، وقد حكم عليه بالضعف الشيخ الألباني في ضعيف الجامع رقم (3003).

ويغني عنه قوله ﷺ: "الدعاء هو العبادة" رواه الترمذي عقب الحديث المتقدم وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

وكذلك غيره من الأحاديث الصحاح وسيأتي شيء منها.

وقوله صلى الله عليه وسلم: الدعاء هو العبادة "أي أن العبادة ليست غير الدعاء، أو إنما هي الدعاء نفسه".

وأما لفظه: "مخ العبادة" فمخ الشيء هو خالصه.

ومن الأحاديث الثابتة في فضل الدعاء:

- قوله ﷺ لابن عباس: "إذا سألت فاسأل الله".

رواه الترمذي (667/4) وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

- وقوله ﷺ: "ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء".

رواه الترمذي (445/5) والبخاري في الأدب المفرد (712/2) وابن حبان (115/2)، والحاكم (49/1)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (5392) من حديث أبي هريرة.

والدليل قوله تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر: 60]

وقال العلامة السعدي:

"هذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم".

وأمرهم بدعائه، دعاء العبادة، ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم.

وتوعد من استكبر عنها فقال: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جـزاء على استكبارهم" (1).

"والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة كما حققه غير واحد منـهم: شيخ الإسلام وابن القيم، وغيرهما، ويراد به في القرآن هذا تارة وهذا تـارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان.

فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشـف ضـر، فالمعبود لابد أن يكون مالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دون الله ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا كقوله: {قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا والله هو السميع العليم} [المائـدة: 80]، وقولـه: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شـفعاؤنا عند الله} [يونس: 19] وذلك كثير في القرآن يبين أن المعبود لابد وأن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يُدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويـدعى خوفًـا ورجاءً دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مسـتلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء متضمن لدعاء العبادة" (2).

"وأما دعاء العبادة، فهو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات مـن الصـلاة، والذبح، والنذر والصيام، والحج وغيرها، خوفًا وطمعًا، يرجو رحمته، ويخاف عذابه، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، فالعابد الذي يريـد الجنـة ويهرب من النار، وهو سائل راغب راهب، يرغب في حصول مراده، ويرهب من فواته، وهو سائل لما يطلبه بامتثال الأمر في فعل العبادة، وقد فسر قولـه

---

(1) تفسير السعدي (540/6).
(2) تيسير العزيز الحميد (215).

تعالى: {ادعوني استجب لكم} [غافر: 60] بذا وهـذا. قيـل: اعبـدوني وامتثلوا أمري أستجب لكم، وقيل سلوني أعطكم، وعلى هذا القـول تـدل الأحاديث والآثار" (1).

قال الشيخ سليمان آل الشيخ: بعد أن ذكر الكلام المتقدم: -

"إذا تبين ذلك، فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئًا من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله وصـلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله، فما أتى بهما حقيقة، وإن تلفظ بهما، كاليهود الذين يقولون لا إله إلا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسـلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعًا" (2).

ثم ذكر الشيخ سليمان بعض أقوال أهل العلم في ذلك، فقال:

"وإن كنا غنيين بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ عن كل كلام، إلا أنه قد صـار بعض الناس منتسبًا إلى طائفة معينة، فلو أتيته بكل آية من كتاب الله وكل سنة عن رسول الله ﷺ لم يقبل حتى تأتيه بشيء من كلام العلماء، أو بشيء مـن كلام طائفته التي ينتسب إليها.

قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي في كتاب "الفنون": لمـا صـعبت التكاليف على الجهال والطغام، وعدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهـم عندي كفار لهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وخطاب المـوتى بـالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا أو كذا، أو إلقاء الخـرق علـى

---

(1) تيسير العزيز الحميد ص (227).
(2) نفس المرجع السابق.

الشجر اقتداء "بمن عبداللات والعزى". نقله غير واحد مقررين له، راضين به منهم الإمام ابن الجوزي، والإمام ابن مفلـح صـاحب كتـاب الفـروع، وغيرهما...

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "من جعل بينه و بين الله وسـائط يتوكـل عليهم ويسألهم، كفر إجماعًا" نقله غير واحد مقررين له، منهم ابن مفلـح في "الفروع" وصاحب "الإنصاف" وصاحب "الغاية"، وصـاحب "الإقنـاع" وشارحه وغيرهم" أ.هـ.[(1)].

ودليل الخوف قوله تعالى {فلا تخافوهم وخافون إن كنـتم مـؤمنين} [آل عمران: 175]

قال ابن القيم: "ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين م لة الخوف، وهـي من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد."

قال الله تعالى {فلا تخافوهم وخافون إن كنـتم مـؤمنين} [آل عمـران: 175]، وقال تعالى {فإياي فارهبون} [ ]، وقـال {فـلا تخشـوا النـاس واخشون} [ ]، ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون – إلى قوله – أولئك يسارعون في الخيرات وهـم لهـا سابقون}.

وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، قول الله {والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة} [ ] أهـو الـذي يـزني، ويشرب الخمر، ويسرق؛ قال: لا، يا ابنة الصديق. ولكنـه الرجـل يصـوم ويصلي ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه" قال الحسن عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق

---

(1) المرجع السابق ص(227-229).

جمع إساءة وأمنًا".

ويواصل ابن القيم كلامه فيقول :

"والوجل" و "الخوف" و "الخشية" و "الرهبة" ألفاظ متقاربة غير مترادفة.

قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخــوف لا أنــه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

"والخشية" أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، كما قال تعالى {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [ ] فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: "إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية"

"فالخوف" حركة، و "الخشية" انجماع، وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيال ونحو ذلك له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف .

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية، ومنه انخش الشيء، و المضاعف والمعتل أخوان، كتقضى البازي وتقضض.

وأما الرهبة: فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وبين الرهب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى، يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع.

وأما "الوجل" فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما "الهيبة" فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبـة والمعرفة.

و"الإجلال": تعظيم مقرون بالحب(1).

قال صاحب تيسير العزيز الحميد: "والخوف على ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشـاء مـن مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشيئته... فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلاً، لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله ندًا يخافـه هـذا الخوف فهو مشرك.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنـهي عن المنكر بغير عذر إلا لخوف الناس، فهذا محرم.

الثالث: خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة و هو الذي قال الله فيـه: {ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد} [إبراهيم: 15] {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن: 47] وقال تعالى: {يخافون يومًا كـان شـره مسـتطيرًا} [الدهر: 8] وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان ، ونسـبة الأول إليـه كنسبة الإسلام إلى الإحسان، ولهذا قال شيخ الإسلام: هذا الخوف ما حجزك عن معاصي الله، فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه.

بقي قسم رابع، وهو: الخوف الطبيعي، كالخوف من عدو وسبع، وهـدم وغرق ونحو ذلك، فهذا لا يذم، وهو الذي ذكره الله عن موسى عليه السلام في قوله: {فخرج منها خائفًا يترقب} [القصص: 22] (2).

قوله تعالى {فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: 175].

---

(1) مختصر مدارج السالكين (269 – 270).
(2) تيسير العزيز الحميد (484 – 486) باختصار.

أول هذه الآية {إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه}.

قال ابن القيم: "ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، فأخبر تعالى أن هذا من كيده وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه قال قتادة: يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: {فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم (1)".

قال الشيخ سليمان آل الشيخ: فأمر تعالى بإخلاص هذا الخوف له، وأخبر أن ذلك شرط في الإيمان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب، ففيه أن إخلاص الخوف لله من الفرائض"(3).

ودليل الرجاء قوله تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا}.

قال الفيروزآبادي "الرجاء: الاستبشار بوجود فضل الرب تعالى، والارتياح لمطالعة كرمه".

وقيل: هو الثقة بوجود الرب.

وقيل: الرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة وهو من أجل منازل السالكين وأعلاها وأشرفها وقد مدح الله تعالى أهله وأثنى عليهم فقال: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر}.

وأخبر الله تعالى عن خواص عباده.. أنهم كانوا راجين له خائفين.

وفي الحديث الصحيح فيما يروي عن ربه تعالى: "ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي".

---

(1)، (3) تيسير العزيز الحميد (486 – 487).

فالرجاء عبودية وتعلق بالله من حيث اسمه البر المحسن، فذلك التعبد والتعلق بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري. فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته على غضبه، ولولا روح ا لرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة...

والرجاء ثلاثة أنواع:

نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، ورجل أذنب ذنبًا ثم تاب منه، فهو راجٍ لمغفرته.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب" (1).

وقال قبل ذلك:

"والفرق بين الرجاء والتمني أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طرق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد، وحسن التوكل"(2).

وقوله {فمن كان يرجو...} [الكهف: 110].

قال السعدي: "{فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا} وهو الموافق لشرع الله من واجب ومستحب ، {ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا} أي: لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصًا لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين

---

(1) بصائر ذوي التمييز (3/46 – 48)

(2) المرجع السابق.

الإخلاص و المتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب.

وأما من عدا ذلك فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه" (1).

واختلف العلماء في أيهما يكون الغالب على العبد، الخوف أم الرجاء.

فقيل إن العبد إذا كان صحيحًا يستحب أن يغلب عليه جانب الخوف. وإذا كان في حالة المرض يغلب جانب الرجاء.

وقال قوم: يستحب الاقتصار على الرجاء عند الإشراف على الموت لما يتضمنه الرجاء من الافتقار إلى الله تعالى ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذر فيتعين حسن الظن بالله برجاء عفوه ومغفرته، واستدلوا بحديث "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله" (2).

وقالت طائفة ثالثة لا يهمل جانب الخوف أصلاً بحيث يجزم بأنه آمن، واستدلوا بحديث أنس عند الترمذي أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: "كيف تجدك؟" فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله ﷺ: "لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو أمنه مما يخاف" (3) قال الترمذي: هذا حديث غريب.

ولقد حث الله تعالى – عباده في مواضع كثيرة في كتابه على أن يتعبدوه بالرجاء وحده لا شريك له قال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر} [الأحزاب: 21].

وقال عز وجل: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك

---

(1) تفسير السعدي (5/87 – 88).

(2) رواه مسلم من حديث جابر بن عبدالله (4/2206).

(3) سنن الترمذي (2/227).

بعبادة ربه أحدًا} [الكهف: 110].

وقال عز وجل: {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم} فهذه الآية فيها حث الإنسان على أن يكون راجيًا في ثواب المصير إلى الله تعالى، فالرجاء سبب من الأسباب التي ينال بها العبد ما عند الله من مغفرة ذنوبه وهدايته وتوفيقه وإعانته على طاعته ودخوله الجنة ونجاته من النار.

قال ابن القيم: "لولا روح الرجا لعطلت عبودية القلب والجوارح وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات" (1).

وقد ذم الله الكافرين الذين لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الزائلة واطمأنوا إليها فقد حكم لهم بأن مأواهم النار قال تعالى {إن الذين لا يرجونلقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون} [يونس: 7 – 8].

والآيات في عبودية الرجاء كثيرة نكتفي بما ذكرنا. أما الأحاديث فقد تقدم شيء منها ونزيد هنا:

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار" (2).

---

(1) مدارج السالكين (42/2).

(2) صحيح البخاري (301/11 – مع الفتح) وانظر صحيح مسلم (2109/4).

فهذا الحديث دل على أنه يستحب للعبد أن يجمع بين الخوف والرجاء ولا ينبغي له أن يغلب أحدهما على الآخر فإنه لو غلب جانب الرجاء وانمك في العصيان لربه فإن ذلك قد يؤدي به إلى أن يمكر الله به وإذا غلب عليه جانب الخوف ربما جره ذلك إلى اليأس والغرض من الرجاء أن الإنسان لو وقع في تقصير فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويرجو منه أن يمحو عنه الذنب وكذلك إذا وفقه الله للإتيان بالطاعة يرجو من الله أن يقبلها منه، أما أن يقع في معصية الله ويرجو عدم المؤاخذة بدون أن يندم على فعلها أو يقلع فهذا مصاب بالغرور، قال أبو عثمان الجيزي: "من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل ، ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو" (1).

ومن الأحاديث الدالة على عبودية الرجاء الحديث القدسي الذي رواه الترمذي في سننه من حديث أنس بن مالك، قال سمعت النبي ﷺ يقول قال الله تبارك وتعالى: "يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي" (2).

فعلى العبد المسلم أن يلح على ربه ويرجوه ويستسلم لله في ذلك ويحذر من تلاعب الشيطان به فيؤدي به ذلك إلى ترك الرجاء وإذا وقع في ذلك لم تكتمل عبوديته لربه سبحانه وتعالى، وكلما قوي تعلق العبد برجائه ربه وخوفه منه كثر فرحه يوم القيامة بحصول مرجوه فينبغي للعبد أن يكون خائفًا راجيًا لأن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء متضمن للخوف فكل راج خائف وكل خائف راج ولذلك جاء الرجاء في موضع يصلح فيه وقوع الخوف في قوله تعالى: {ما لكم لا ترجون لله وقارًا} قال الشوكاني رحمه الله: "أي أيُّ

---

(1) فتح الباري (301/11).

(2) سنن الترمذي (/).

عذر لكم في ترك الرجاء، والرجاء هنا بمعنى الخوف أي ما لكم لا تخافون الله"(1).

وختامًا: ينبغي لكل مكلف أن يمضي حياته بين الخوف والرجاء ولا يفرط في الرجاء حتى يصير مع المرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان شيء ولا يوغل في الخوف حتى يكون في صف الخوارج والمعتزلة الذين قالوا إن صاحب الكبيرة مخلد في النار إذا مات ولم يتب بل عليه أن يلزم الطريق الوسط بينهما كما قال عز وجل: {يرجون رحمته ويخافون عذابه} [الإسراء: 57].

وقد ذكر المصنف هنا بعض أنواع العبادات منها ما هو عبادات قلبية ومنها ما هو عبادات بدنية وبين كلا النوعين نوع اشتراك وتعلق.

وأهل السنة رحمهم الله يقسمون الأعمال التي هي جزء من الإيمان ومن لوازمه إلى:

1- عمل القلب: كالإخلاص والمحبة والرضا والتوكل والخوف، والرجاء، وغير ذلك.

2- عمل اللسان: كالذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس وغير ذلك.

3- عمل الخوارج: الصلاة والجهاد، والحج والعمرة، والصدقة، وصلة الأرحام، وغير ذلك.

قال ابن القيم:

"حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل".

والقول قسمان:

* قول القلب: وهو الاعتقاد.

---

(1) فتح القدير (498/5).

* وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان:

* عمل القلب: وهو نيته وإخلاصه.

* وعمل الجوارح.

فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها، وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة، فأهل السنة مجموعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه، واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول بل ويقرون به سرًا وجهرًا.

ويقولون: ليس بكاذب، ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به" (1).

"من أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل:

* قول القلب واللسان.

* وعمل القلب واللسان والجوارح.

* وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

* أما قول القلب فمعناه يكون بتصديقه وإيقانه قال تعالى: {والذي جاء بالصدق، وصدق به أولئك هم المتقون}[ ].

وقال عز وجل {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا}[ ].

وقال سبحانه {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا}[ ].

* أما قول اللسان فهو: النطق بالشهادتين والإقرار بلوازمهما. قال عز و

---

(1) كتاب الصلاة – لابن القيم ص (24).

جل : {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون }

وقال سبحانه : {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} [ ].

وقال ﷺ لسفيان بن عبدالله: "قل آمنت بالله ثم استقم".

* أما عمل القلب فهو النية والإخلاص والمحبة، والانقياد والإقبال على الله عز وجل والتوكل عليه والإنابة.

ولوازم ذلك وتوابعه.

قال سبحانه: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغـداة والعشـي يريـدون وجهه} [ ].

وقال: {إنما نطعمكم لوجه الله}[ ].

وقال: {والذين آمنوا أشد حبًا لله}[ ].

* أما عمل اللسان، فهو ما لا يؤدي إلا به كتلاوة القرآن، وسائر الأذكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك.

قال عز وجل: {واتل ما أوحي إليك من الكتـاب}، وقـال سـبحانه: {واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخفية ودون الجهر مـن القـول بالغـدو والأصال، ولا تكن من الغافلين} [ ].

* أما عمل الجوارح فهو: ما لا يؤدى إلا بها؛ كالقيام والركوع والسجود والحج، والجهاد، وغير ذلك.

{يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون}[ ].

{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم} [ ].

وقال ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إلـه إلا الله،

وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"ا.هـ.[1]

قال الشيخ الفوزان: "والفرق بين أقوال القلب وأعماله: أن أقوالـه هـي العقائد التي يعترف با ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله، وهي محبة الخير، وإرادته الجازمة، وكراهية الشر، والعزم على تركه. وأعمال القلب تنشأ عنها أعمال الجوارح وأقوال اللسان ومن ثم أقـوال اللسان وأعمال الجوارح من الإيمان" [2].

ودليل التوكل قوله تعالى: {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين} [المائدة: 23].

وقال: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} [الطلاق: 3].

" اعلم - رحمني الله وإياك - أن التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكـل فلان أمره إلى فلان، أي فوض أمره إليه واعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل، ولا يتوكل الإنسان علـى غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة و القوة، والهداية، فإذا عرفت هذا فقس عليه التوكل على الله سبحانه، وإذا ثبت في نفسك أنـه لا فاعـل سـواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه لـيس وراء قدرتـه قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحـده لا محالة. ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين:

* إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال.

* وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة

---

(1) مختصر الأسئلة والأجوبة على الواسطية ص (126 – 128).

(2) شرح العقيدة الواسطية ص 179 - للفوزان.

عليه، فإن القلب قد يـ عج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين، فإنه من كان يتناول عسلاً، فشُبه بين يديه بالعَذرة ربما نفر طبعه منه وتعـذر عليه تناوله.

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقنًا كونه ميتًا جمادًا في الحال ولا ينفر طبعـه عـن سـائر الجمادات، وذلك جبن في القلب. وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان منـه، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضًا، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مـع غلق الباب وإحكامه.

فإذًا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعًا" (1).

ويمكن أن نقول: " التوكل هو اعتماد القلب على الله وثقته به، واعتقـاد أنه كافيه" (2).

والآيات والأحاديث في الأمر بالتوكل والحث عليه كثيرة ومن ذلك:

{ولله غيب السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله فاعبـده وتوكـل عليه} [هود: 123].

{رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً} [المزمل: 9].

{إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبم وإذا تليت علـيهم آياتـه زادتم إيمانًا وعلى ربم يتوكلون} [الأنفال: 2].

{الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فـزادهم إيمانًـا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} [آل عمران: 173].

ومن الأحاديث:

---

(1) مختصر منهاج القاصدين – لأحمد بن عبدالرحمن المقدسي (332).

(2) معارج القبول (446/2).

قال رسول الله ﷺ: "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بلا حساب هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون"(1).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لو أنكم توكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا" (2).

{وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين}.

"قال أبو السعادات بن الأثير: يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان، أي ألجأته واعتمدت عليه فيه، ووكل فلان فلانًا: إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجز عن القيام بأمر نفسه" (3).

"في الآية دليل على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين... ولذلك أمر الله به في غير آية من القرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطًا في الإيمان، والإسلام ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه كما في الآية.

{يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين}

وفي الآية أن موسى عليه السلام أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التي

---

(1) رواه البخاري (305/11) كتاب الرقاق، باب من يتوكل على الله فهو حسبه، ومسلم (218) كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

(2) رواه الترمذي (573/4) وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجه (4161)، وابن حبان (2548)، والحاكم (318/4).

(3) النهاية في غريب الحديث.

كتبها الله لهم، ولا يرتدوا على أدبارهم خوفًا من الجبارين، بل يمضوا قدمًا لا يهابونهم، ولا يخشونهم، متوكلين على الله في هزيمتهم، مصدقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين.

قال ابن القيم: فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه.

وفي الآية الأخرى، وقال موسى: {يا قوم إن كنتم أمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} [يونس: 85] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل.

وقال : {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} [إبراهيم: 12] فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه. وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، فهو دليل على ضعف الإيمان ولابد، والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقوماته إلا على ساق التوكل" (1).

قال الشيخ سليمان آل الشيخ:

"وفي الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة. وعلى أنه فرض، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وما جاء أحدٌ مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب

---

(1) تيسير العزيز الحميد (497).

ظنه فيه، فإنه مشرك {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق} [الحج: 32]" (1).

{ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب}

وقوله: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} [الطلاق: 30]

"قال ابن القيم: أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لابد منه كالحر، والبرد، والجوع، والعطش.

وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبدًا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء، وهو في الحقيقة إحسان إليه، وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يشتفي به منه.

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته فقال: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} [الطلاق: 4] ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض، ومن فيهن، لجعل له مخرجًا، وكفاه ونصره" (2).اهـ. كلام ابن القيم.

"وفي الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار، لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه، لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسبًا له، ذكره شيخ الإسلام.

---

(1) المرجع السابق.

(2) تيسير العزيز الحميد (501).

وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل، لأنه تبارك وتعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل، كما قال تعالى {واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون} [المائدة: 13] فجعل التقوى الذي هو قيامٌ بالأسباب المأمور بها، فحينئذ إذا توكل على الله، فهو حسبه، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبًا بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها" [1] ذكر معناه ابن القيم.

أقسام التوكل:

* التوكل عبادة وهو فرض: وصرفه لغير الله شرك.

* "لكن التوكل على غير الله قسمان :

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ، والرزق والشفاعة، فهذا شرك أكبر، فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله عز وجل.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة العادية، كمن يتوكل على أمير أو سلطان، فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك.

فهذا نوع شرك خفي .

و الوكالة الجائزة هي توكل الإنسان في فعل مقدور عليه، ولكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وكله، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكله فيه" [2].

---

(1) تيسير العزيز الحميد (502).

(2) تيسير العزيز الحميد (498).

*** بين التوكل والأخذ بالأسباب:**

قال ابن القيم:

"اعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصوله المدعو به" (1).

"وقد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين، ربط المسببات بأسبابها، فلا يجوز للإنسان تعطيلها مهما أمكنه القيام بها، فإذا فعلها عبودية يكون قد أتى بعبودية القلب بالتوكل وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة، وتحقيق التوكل موقوف على القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصح توكله، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًا، كما أن من عطلها يكون توكله عجزا، وعجزه توكلاً لله" (2).

"فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية.

بل التجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعًا وحسا، وما أخل رسول

---

(1) مدارج السالكين (118/2).

(2) الفوائد (86).

الله ﷺ بشيء من الأسباب، وقد ظاهر بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عريانا، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة، واستأجر دليلاً مشركًا على دين قومه، يدله على طريق الهجرة.

وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد، وجميع أصحابه، وهم أولو التوكل حقًا، وأكمل المتوكلين بعدهم: هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثرًا من غبارهم" (1).

ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا، وكانوا لنا خاشعين} [الأنبياء: 90]

"قال الثوري رغبًا فيما عندنا ورهبا مما عندنا"

{وكانوا لنا خاشعين} قال ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله.

وقال مجاهد: مؤمنين حقًا.

وقال أبو العالية: خائفين.

وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدا .

وقال الحسن وقتادة والضحاك: {خاشعين} أي متذللين لله عز وجل(2).

وقال العلامة السعدي: {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات} أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها.

{ويدعوننا رغبًا ورهبًا} أي يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا، من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين،

---

(1) تهذيب مدارج السالكين (338-339).

(2) تفسير ابن كثير.

وهم راغبون لا غافلون، لا لاهون ولا مدلون

{وكانوا لنا خاشعين} أي خاضعين متذللين متضـرعين وهـذا لكمـال معرفتهم بربهم" [(1)].

"والفرق بين الرغبة والرجاء أن الرجاء طمع والرغبة طلب، فهـي ثمـرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه" [(2)].

"أما الرهبة فهي الإمعان في الهروب من المكروه وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وبين الرهب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى يجمعهما الاشتقاق الأوسـط الذي هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع" [(3)].

"أما الخشوع" في أصل اللغة الانخفاض، والذل والسـكون قـال تعـالى {وخشعت الأصوات للرحمن} أي سكنت، وذلت وخضعت، ومنه وصـف الأرض بالخشوع، وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات قال تعالى: {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها المـاء اهتـزت وربت}

والخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه.

وقيل "الخشوع" الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع فمن علاماته:

"أن العبد إذا خولفت وَرُد عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد...

وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح وجماع الخشوع التذلل للأمر، والاستسلام للحكم، والاتضاع لنظر الحق.

---

(1) تفسير السعدي (5/259).

(2) تذيب مدارج السالكين (307).

(3) تذيب مدارج السالكين (270).

التذلل للأمر: تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال، ومواطأة الظاهر للباطن، مع إظهار الضعف، والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل، والإعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل.

وأما الاستسلام للحكم الشرعي: فبعدم معارضته برأي أو شهوة.

وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب إليها وإطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح.

واعلم أن نمو الخشوع إنما يكون بترقب آفات النفس والعمل، ورؤية كل ذي فضل عليك، فإن انتظار ظهور نقائض نفسك وعملك وعيوبهما لك: يجعل القلب خاشعًا لا محالة، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله، ونقائصهما.

من الكبر، والعجب، والرياء، وضعف الصدق، وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفساني، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربك، وغير ذلك من عيوب النفس، ومفسدات الأعمال.

وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك، فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها، ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم، فلا تعارضهم عليها، فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها.

ولا تطالبهم بحقوق نفسك، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم، وتنسى فضل نفسك.

ويكمل الخشوع بتصفية الوقت من مراءاة الخلق، وتجريد رؤية الفضل، فيخفي أحواله عن الخلق جهده، كخشوعه وذله وانكساره، لئلا يراه الناس فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها، فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله.

وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالك، والمعصوم من عصمه الله، فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء وأنه ممن

لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه- من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء، وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدى وابن المكدى وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول:

والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاما جيدًا.

وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهره أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي والخير أن يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات، لازم أبدًا كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنده عبد له آتي

وأما تجريد رؤية الفضل: فهو أن لا يرى الفضل والإحسان إلا من الله، فهو المان به بلا سبب من العبد، ولا وسيلة سبقت منه توسل بها إلى إحسانه، بل إن جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه، وبفضله عليه من غير استحقاق منه، ولا بذل عوض استوجب به ذلك، كما قال تعالى: {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين} [ ]

وكذلك يشهد أن ما زوي عنه من الدنيا، أو ما لحقه منها من ضرر وأذى فهو منه أيضًا من الله عليه من وجوه كثيرة، ويستخرجها الفكر الصحيح، كما قال بعض السلف: "يا ابن آدم لا تدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته

فيما أعطاك، أو نعمته فيما زوي عنك؟

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت، إن كان الغنى، إن فيه للشكر، وإن كان الفقر، إن فيه للصبر".

وقال بعض السلف: "نعمته فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها، إني رأيته أعطاها قومًا فاغتروا" (1)أ.هـ.

ودليل الخشية قوله تعالى {فلا تخشوهم واخشون} [البقرة: 150]

قال الفيروزآبادي: "هي خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه. ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [28: فاطر]

وقوله: {وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم} [النساء: 9].أي ليستشعروا خوفًا عن معرفة

وقوله {لمن خشي العنت منكم} [النساء: 25] أي لمن خاف خوفًا اقتضاه معرفته بذلك عن نفسه.

وقال تعالى: {فلا تخشوا الناس واخشون} [المائدة: 44]

ومدح الله تعالى أهلها {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، أولئك يسارعون في الخيرات، وهم لها سابقون} [المؤمنون: 57-61]" (2).

وقال ابن القيم: "الخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [ ] فهي خوف مقرون بمعرفة.

---

(1) تهذيب مدارج السالكين ص(275-278).

(2) بصائر ذوي التمييز (544/2).

وقال النبي ﷺ: "إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية"(1)#.

فالخوف حركة، والخشية انجماع، وانقباض وسكون".

وقد قدمنا نقل تمام كلام ابن القيم عند الكلام على الخوف، والفرق بينه وبين غيره من الألفاظ التي تقاربه، فلينظر.

ودليل الإنابة قوله تعالى {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له} [الزمر: 54]

الإنابة نوع من أنواع العبودية، لا يجوز صرفها إلا لله وحده لا شريك له.

أما تعريفها لغة:

جاء في الصحاح للجوهري: "وأناب إلى الله –تعالى- أقبل وتاب" (2).

وجاء في لسان العرب: "وناب فلان إلى الله –تعالى- وأناب إليه إنابة فهو منيب: أقبل وتاب، ورجع إلى الطاعة، وقيل: ناب لزم الطاعة وأناب تاب ورجع... إلى أن قال: الإنابة الرجوع إلى الله بالتوبة" (3).

وأما شرعًا فقد عرفها ابن القيم "رحمه الله" بتعريفين فقال:

"الإنابة هي: عكوف القلب على الله –عز وجل- كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال، والتعظيم وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبه على الله –وحده- عكف على التماثيل المتنوعة، كما قال إمام الحنفاء {ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون} [الأنبياء: 52] فكان حظ قومه العكوف على التماثيل وكان –حظه- العكوف على الرب الجليل" (4).

---

(1)

(2) الصحاح (229/1).

(3) لسان العرب (775/1).

(4) الفوائد ص (190).

وقال رحمه الله معرفًا بتعريف آخر:

"والإنابة الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه وهي تتضمن المحبة، والخشية فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل"(1).

"وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: {وأنيبوا إلى ربكم} [الزمر: 54]، وقال سبحانه: {إن إبراهيم لحليم أواه منيب} [ ].

وأخبر سبحانه أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة فقال: {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها} إلى أن قال: {تبصرة وذكرى لكل عبد منيب} [ ]

وقال تعالى: {منيبين إليه واتقوه} [ ]".(2)

"والإنابة قسمان:

إنابة لربوبيته –تعالى- وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

قال تعالى: {وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه} فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو الواقع.

وهذه "الإنابة" لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء {ثم إذا أذاقهم منه رحمه إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما أتيناهم} [ ] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: هي إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة.

وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له والإقبال عليه، والإعراض

---

(1) طريق الهجرتين ص(173).

(2) تذيب مدارج السالكين (231) .

عما سواه.

فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع" (1).

"ومن علامات الإنابة:

ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارج لهم الرحمة، واخش على نفسك النقمة، فإن كنت لابد مستهينًا بم ماقتًا لهم، لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشد مقتًا منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتًا.

هذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله، فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني –لم يجد بدًا من مقتهم، ولا يمكنه غير ذلك ألبتة.

ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك كان لنفسه أشد مقتًا واستهانة فهذا هو الفقيه" (2).

وأما قوله تعالى: {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون} [الزمر:]

فهذه الآية تضمنت الأمر من الله تعالى – لجميع عباده بالإنابة إليه وحده دون سواه، وأن يسلموا له أنفسهم وقلوبم وينقادوا له انقيادًا تامًا ظاهرا

---

(1) تهذيب مدارج السالكين (231-232).

(2) تهذيب مدارج السالكين (234).

وباطنا عن طواعية ورضا قبل أن يـ ل بم العذاب فلايجدون من ينصرهم من دونه ويدفع عنهم عقابه لأنه لا طاقة لأحد في مواجهة عذاب الله الذي يحـل بالمتمردين على أوامر الله.

قال العلامة ابن جرير الطبري حول هذه الآية: "يقول تعالى ذكره، وأقبلوا أيها الناس إلى ربكم بالتوبة وارجعوا إليه بالطاعة واستجيبوا له إلى ما دعاكم إليه من توحيده، وإفراد الألوهية له، وإخلاص العبادة لـه..." إلى أن قـال: "قال ابن زيد: الإنابة: الرجوع إلى الطاعة، والـ وع عمـا كـانوا عليـه {وأسلموا له} يقول: واخضعوا له بالطاعة"# (1).

فتبين بذلك أن الإنابة نوع من أنواع العبادة يجب على العبـد أن يحققهـا ويجعلها من خالص حقه تعالى فلا ينيب إلا إلى ربه، ولا يتوب إلا إليه.

ودليل الاستعانة قوله تعالى: {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: 5]

وفي الحديث "إذا استعنت فاستعن بالله"

الاستعانة: هي طلب العون.

وقال ابن الأثير: "الإغاثة: الاعانة، فعلى هـذا تكـون الاسـتغاثة هـي الاستعانة، ولا ريب أن من استغاثك فأغثته فقد أعنته، إلا أن لفظ الاسـتغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة بخلاف الاستعانة "# (2).

قال شيخ الإسلام: "تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال الله العون علـى مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: {إياك نعبد وإياك نستعين} [ ]"(3)

قال ابن القاسم: "الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وسر الخلق والكتب والشرائع، والثواب والعقاب، يرجع إلى هاتين الكلمـتين، وعليهمـا مـدار العبودية، والتوحيد، والأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تـبرؤ مـن الحـول والقوة، وهذا المعنى في غير آية من كتاب الله، وتقديم المعمول علـى العامـل

---

(1)

(2) النهاية – لابن الأثير ( ).

(3) حاشية ابن القاسم ص(41).

يفيد الحصر، أي: نستعين بك وحدك دون سواك، فهذا النوع: أجل أنــواع العبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر، وكذا قوله: {إياك نعبــد} أي: لا نعبــد أحدًا سواك، فالعبادة لله وحده، والاستعانة به وحده، جل وعــلا وتقــدس" (1).

8*قال ابن القيم: "وسر الخلق والأمر، والكتب والشــرائع، والثــواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى وهو {إياك نعبد} ونصفهما لعبده، وهو {إياك نستعين}.

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقــول: طريق معبد أي مذلل، والتعبد التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكــون محبا خاضعا....

"والاستعانة" تجمع أصلين: "الثقة بالله" "والاعتماد عليه" فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره –مع ثقته به- لاستغنائه عنه وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به –لحاجته إليه ولعدم من يقوم مقامه، فيحتــاج إلى إعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.

"والتوكل" معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقة {إياك نعبد وإياك نستعين}(2) أي نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة.

لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عمــا عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وتقديم العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتمامًا

---

(1)المرجع السابق .

(2) تذيب مدارج السالكين ص (63).

بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

والعبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال، الظاهرة والباطنة.

"والاستعانة": هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة، بما، هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور. فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بما.

وإنما تكون العبادة عبادة، إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصودًا با وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة.

وذكر الاستعانة بعد "العبادة" مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي" (1).

وفي الحديث: "إذا استعنت فاستعن بالله".

هذه قطعة من حديث جليل رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، و أوله "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله".

قال الحافظ ابن رجب "رحمه الله" في شرح هذا الحديث:

"وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل فمن أعانه الله، فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قوله: "لا حول ولا قوة إلا بالله" فإن المعنى لا تحول للعبد حال إلى

---

(1) تفسير السعدي (1/35-36).

حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة، وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز" (1).

ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً.

كتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه.

ومن كلام بعض السلف: يارب عَجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك، عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك" (2).

ودليل الاستعاذة قوله تعالى {قل أعوذ برب الفلق} [ ] و{قل أعوذ برب الناس} [ ].

"الاستعاذة: الالتجاء، والاعتصام، والتحرز.

وحقيقتها: الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا، وملجأ فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه، وألقى نفسه بين يديه واعتصم به، واستجار به والتجأ إليه، وهذا تمثيل وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والاطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه، أمر لا تحيط به

---

(1) قطعة من حديث رواه أحمد (366/2)، ومسلم (2264) وابن ماجه (4168)، وابن حبان (5721).

(2) جامع العلوم والحكم – لابن رجب (481/1-482).

العبارة " [(1)].

وقال ابن كثير: " الاستعاذة إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعيذ يكون لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير "[(2)]

وقوله {قل أعوذ برب الفلق}

قال السعدي:" أي قل متعوذا {أعوذ} أي ألجأ، وألوذ، وأعتصم {برب الفلق} أي فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح}[(3)].

و {قل أعوذ برب الناس}

"أمر الله عز وجل نبيه أن يستعيذ به من الوسواس الخناس، يعني الشيطان، الجاثم على قلب الإنسان، فإذا ذُكر الله خنس، وإذا غفل وسوس.

وذكر الله تعالى في هذه السورة ثلاث صفات من صفات الربوبية والملك والإلهية، وأمر المستعيذ أن يستعيذ بها، من شر الشيطان الموكل بالإنسان، وثبت عنه ﷺ أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم" [(4)].

"والاستعاذة بالله عز و جل عبادة أمر الله بها في غير آية وتواترت السنن عن النبي ﷺ بذلك. قال الله تعالى: {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه هو السميع العليم} [فصلت: 37].

وقال سبحانه. {وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون} [المؤمنون: 99-100]

وقال: {فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير} [غافر: 56]

---

(1) من كلام ابن القيم نقلاً عن تيسير العزيز الحميد (209).

(2) تفسير ابن كثير (14/1) .

(3) تيسير الكريم الرحمن (687/7) .

(4) حاشية ابن القاسم ص (42).

وقال تعالى {قل أعوذ برب الفلق} [الفلق: 2]

وقال تعالى: {قل أعوذ برب الناس. ملك الناس . إله الناس} [الناس: 2-4]

فإذا كان تعالى هو ربنا ومَلكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى. ولا يخاف، ولا يرجى، ولا يحب غيره، ولا يذل، ولا يخضع لغيره، ولا يتوكل إلا عليـه، لأن من تخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه، إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك، ومتولي شأنك، فهو ربك، ولا رب لك سواه، وتكون مملوكه وعبده الحـق، فهو ملك الناس حقا، وكلهم عبيده، ومماليكه، أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتـك إلى حياتـك وروحك، فهو الإله الحق إله الناس، فمن كان ربم وملكهم وإلههـم، فهـم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غـير حماه، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعا بربوبيتـه وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجيء العبد عند النوازل ونزول عدوه بـه إلى ربه وملكه وإلهه" (1).

ودليل الاستغاثة قوله تعالى {إذ تسـتغيثون ربكـم فاسـتجاب لكـم} [الأنفال: 9].

"قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الاستغاثة هي طلب الغوث، وهـو إزالـة الشدة كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون".

وقال غيره: الفرق بين الاستغاثة والدعاء:

أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب كما قال تعالى {فاستغاثه الذي من

---

(1) من كلام ابن القيم بتصرف نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ص(210).

شيعته على الذي من عدوه} [القصص: 15]، وقال: [إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم} [الأنفال: 100] والدعاء أعم من الاستغاثة لأنه يكون من المكروب وغيره، فعلى هذا عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص" (1).

"وقال أبو السعادات ابن الأثير: "ولا ريب أن من استغاثك فأغثته فقد أعنته، إلا أن لفظ الاستغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة، بخلاف الاستغاثة" (2).

وقوله تعالى: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم} [الأنفال: 9]

"أي إذ تستجيرون ربكم، وتطلبون منه الغوث، فاستجاب لكم وذلك أنه لما كان يوم بدر، ونظر رسول الله ﷺ إلى كثرة المشركين جعل يهتف بربه ويناشده، فأمده الله بالنصر على عدوه، فقتلوا وأسروا، وظهر الإسلام، وسمي يوم الفرقان" (3).

وقال السعدي: "اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم، {فاستجاب لكم} وأغاثكم بعدة أمور منها أن الله أمدكم {بألف من الملائكة مردفين} أي يردف بعضهم بعضًا" (4).

وقال ابن القيم رحمه الله: "ومن أنواعه –أي الشرك طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد

---

(1) تيسير العزيز الحميد ص(214).

(2) النهاية لابن الأثير ( ).

(3) حاشية ابن القاسم (43).

(4) تيسير الكريم الرحمن (147/3).

انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا فضلاً عمن استغاث به أو سأله أن يشفع إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده فإن الله سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بأذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد.

فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كما أمرنا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، وندعو لهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة، وجعلوا قبورهم أوثانًا تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنم راضون منهم بذا، وأنم أمروهم به، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم! ولله دَرُّ خليله عليه الصلاة والسلام حيث قال: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرًا من الناس} [إبراهيم: 36-37].

وما نجا من أشرك بذا الشرك الأكبر، إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله" (1).

ودليل الذبح قوله تعالى{قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} [الأنعام: 162]

(1) من كلام ابن القيم في مدارج السالكين ونقله عنه صاحب تيسير العزيز الحميد ص(230-231).

قال ابن كثير حول الآية التي ذكرها المصنف من سورة الأنعام:

"يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله {فصل لربك وانحر} [الكوثر: 3] أي أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين يعبدون الاصنام، ويذبحون لها، فأمره الله بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد في قوله: {صلاتي ونسكي} [الأنعام: 162] قال: النسك الذبح في الحج والعمرة.

وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير: ونسكي: ذبحي وكذا قال الضحاك" (1).

"وقال غيره: ومحياي ومماتي، أي وما آتيه في حيات، وأموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لله رب العالمين خالصة لوجهه لا شريك له، وبذلك من الإخلاص أمرت وأنا أول المسلمين، لأن إسلام كل نبي متقدم لإسلام أمته.

"قال قتادة: {وأنا أول المسلمين} أي: من هذه الأمة، قال ابن كثير: وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتم إلى الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: 26] وأخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه. {فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله، وأمرت أن أكون من المسلمين} [يونس: 73] وذكر آيات في هذا المعنى" (2).

---

(1) تفسير ابن كثير (189/2).

(2) تفسير ابن كثير (190/2).

قال الشيخ سليمان آل الشيخ: "وفي الآية دلائل متعددة على أن الذبح لغير الله شرك، كما هو بين عند التأمل، وفيها بيان العبادة، وأن التوحيد مناف للشرك مضاد له" (1).

قال ابن قاسم:

"وقد جمع تعالى بين هاتين العبادتين – أي الصلاة والنسك – اللتين هما أفضل العبادات، وأفضل القربات لله تعالى في هذه الآية، كما جمع بينهما في الآية الثانية، وهي قوله: {فصل لربك وانحر} أي أخلص لربك الصلاة، ونحر الْبُدن ونحوها، على اسمه وحده.

فالصلاة أفضل العبادات البدنية، والذبح أفضل العبادات المالية، وإنما كان الذبح أفضلها، لأنه يجتمع فيه أمران، الأول: أنه طاعة لله. والثاني: أنه بذل ماله، وطابت به نفسه، والبذل مشترك في جنس المال، لكن زاد الذبح على غيره، من حيث أن الحيوانات محبوبة لأربابا، يوجد لذبحها ألم في النفوس من شدة محبتها، فإذا بذله لله، وسمحت نفسه بإيذاق الحيوان الموت، صار أفضل من مطلق العبادات المالية، وكذلك ما يجتمع له عند النحر، إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين، وحسن الظن بالله: أمر عجيب فصرفُه لغير الله شرك أكبر"(2).

ومن السنة: "لعن الله من ذبح لغير الله"(3).

الحديث رواه مسلم من طرق عن علي بن أبى طالب رضي الله عنه.

وقوله "لعن الله:" قالوا: اللعنة: البعد عن مظان الرحمة ومواطنها.

---

(1) تيسير العزيز الحميد (188).

(2) حاشية ابن قاسم ص(44).

(3) رواه مسلم .

قيل: واللعين والملعون: من حقت عليه اللعنة، أو دعي عليه بها" (1).

قال ابن الأثير: "أصل اللعنة، الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق: السب والدعاء" (2).

وقوله: "من ذبح لغير الله".

"قال النووي: المراد به أن يذبح باسم غير اسم الله تعالى، كمن يذبح للصنم أو للصليب، أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما وسلم، أو للكعبة، ونحو ذلك، وكل هذا حرام، و لا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له، كان ذلك كفرا، فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك صار بالذبح مرتدًا" (3).

وقال شيخ الإسلام "رحمه الله" قوله تعالى {وما أهل به لغير الله} [البقرة: 174] ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقال: هذه الذبيحة لكذا. وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم، وقال فيه: باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحنا للحم، وقلنا عليه: بسم الله، فإن عبادة الله بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، فكذلك الشرك بالصلاة لغيره.

والنسك لغيره أعظم من الاستعانة باسم غيره في فواتح الأمور، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو

---

(1) تيسير العزيز الحميد (190).

(2) النهاية – لابن الأثير ( ).

(3) شرح النووي على صحيح مسلم ( ).

الزهرة أو قصد به ذلك أولى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاسـتعانة بغير الله.

كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، الذين قد يتقربون إلى الكواكب بالذبح والنجوم، ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان". (1)

ودليل النذر قوله تعالى {يوفون بالنذر، ويخافون يوما كان شره مستطيرا} [الإنسان: 7].

"النذر في اللغة: الإيجاب، ومنه قولهم: نذرت دم فلان، إذا أوجبته".

وشرعًا: إيجاب المكلف على نفسه، ما ليس واجبا عليه شـرعاً، تعظيمـا للمنذور له" (2).

وقوله عز وجل : {يوفون بالنذر...}

"أي يتعبدون لله، بما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر، فأثنى الله علـيهم بالإيفاء به، وهو سبحانه لا يثني إلا على فاعل عبادة.

وقال عز وجل {وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه} يعني وسيجازيكم عليه، فدل على أنه عبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر" (3).

وقال الشيخ سليمان آل الشيخ: "مدح الله عز وجل الموفين بالنـذر، والله تعالى لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب، أو ترك محرم، لا يمدح علـى فعل المباح المجرد وذلك هو العبادة، فمن فعل ذلك لغير الله متقربًا إليه فقـد

---

(1) نقله صاحب تيسير العزيز الحميد ص(190-191).

(2) حاشية ابن القاسم (45).

(3) المرجع السابق ص(45).

أشرك" (1).

وقال أيضًا فيمن نذر للقبور ونحوها "دهنا لتنور به، ويقول إنا تقبل النذر كما يقول بعض الضالين، قال رحمه الله:

"فهذا نذر معصية باتفاق العلماء، لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالاً من النقد أو غيره للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة، فإن هؤلاء السدنة فيهم شبه من السدنة التي كانت للات والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، والمجاورون هناك فيهم شبه من العاكفين الذين قال فيه إبراهيم الخليل عليه السلام: {ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون} [الأنبياء: 53] والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام، وقوله تعالى: "وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم} [الأعراف: 138]

فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع التي لا فضل للشريعة في المجاورة فيها نذر معصية. وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان المجاورين عندها، أو لسدنة الأبدال التي في الهند والمجاورين عندها" (2).

وقال الإمام الأذرعي في "شرح منهاج النووي":

"وأما النذر للمشاهد التي بنيت على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم من حلها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأنبياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك وهو الغالب والواقع من قصود العاقد في تعظيم البقعة والمشهد والزاوية أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطل غير منعقد فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات لأنفسها، ويرون

---

(1) تيسير العزيز الحميد (203).

(2) المرجع السابق.

أنا مما يدفع به البلاء، ويستجلب به النعماء، ويستفشى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل: إنه جلس إليها أو استند إليها عبد صالح، وينذرون لبعض القبور السُرج والشموع والزيت، ويقولون القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، وقدوم غائب، وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقًا، من ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة، وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء، فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبركًا وتعظيمًا، ظانًا أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه.

والإيقاد المذكور محرم سواء انتفع به هناك منتفع أم لا... إلى أخر كلامه" (1).

وقال صاحب تيسير العزيز الحميد رحمه الله "فهذه النذور الواقعة من عباد القبور وأشباههم لمن يعتقدون فيه نفعًا أو ضرًا فيتقرب إليه بالنذر، ليقضي حاجته أو ليشفع له، كل ذلك شرك في العبادة، وهو شبيه بما ذكر الله عن المشركين في قوله: {وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون} [الأنعام: 137].

روى ابن أبي حاتم في تفسير الآية: "يعني جعلوا لله جزءا من الحرث ولشركائهم ولأوثانهم جزءًا فما ذهبت به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه، وقالوا: الله عن هذا غني، وما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى

---

(1) المرجع السابق.

جزء الله أخذوه وعباد القبور يجعلون لله جزءاً من أموالهم بالنذر والصدقة، وللأموات والطواغيت جزءاً كذلك، وقد نص غير واحد من العلماء على أن النذر لغير الله شرك" (1).

قال شيخ الإسلام: "وأما ما نذره لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر للمخلوق ليس عليه وفاء ولا كفارة، فإن كليهما شرك، والشرك ليس له حرمة ، بل عليه أن يستغفر الله من هذا "(2)

وقال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار:

"النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ضرورية فيأتي إلى بعض الصلحاء، ويجعل على رأسه سترة ويقول: "يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي و قضيت حاجتي، فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء ومن الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه منها: أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق. ومنها أن المنذور له ميت والميت لا يملك، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر، إلى أن قال: إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقربًا إليهم فحرام بإجماع المسلمين" (3).

---

(1) تيسير العزيز الحميد (204).

(2) المرجع السابق .

(3) نقله عنه ابن نجيم في "البحر الرائق شرح كنز الدقائق" في آخر كتاب الصوم.

الأصل الثاني
معرفة دين الإسلام بالأدلة.

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة.

وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وكل مرتبة لها أركان.

فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

فدليل الشهادة قوله تعالى {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} [آل عمران: 18]

قال العلامة السعدي "رحمه الله":

"هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله، وقيامه بالقسط.

وذلك يتضمن الشهادة، على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء، فإن الشرع والدين، أصله وقاعدته، توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده، بصفات العظمة والكبرياء، والمجد، والعز والقدرة، والجلال، ونعوت الجود، والبر والرحمة، والإحسان، والجمال بكماله المطلق الذي لا يحصى أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام.

والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة، كله قسط وعدل {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله} [ ].

فتوحيد الله، ودينه وجزاؤه، قد ثبت ثبوتًا لا ريب فيه. وهو أعظم الحقائق

وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين، والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

- وفي هذه الآية: فضيلة العلم والعلماء، لأن الله خصهم بالذكر، من دون البشر.

- وقرن شهادتهم، بشهادته وشهادة ملائكته.

- وجعل شهادتهم، من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه.

- وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

- وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون.

- وفي هذا من الفضل والشرف، وعلو المكانة، ما لا يقادر قدره" (1).

قال الشيخ عبدالرحمن بن قاسم:

"وهذا فيه أعظم حاث لك على طلب العلم، فإن الله شهد واستشهد الملائكة، واستشهد أهل العلم، ففي هذه الشهادة رفعة أهل العلم، حيث استشهدوا على ما شهد به رب العالمين، وأي ثناء أشرف من هذا الثناء عليهم وتعديلهم، وشهادته لهم أنهم أولو العلم وجعلهم حجة على من أنكرها فدل على فضل العلم" (2).

قال "والمراد بالعلم: العلم الشرعي، الذي هو نور القلوب وحياتها، وغيره: علم نسبي إضافي، إما إلى أمور دنيوية، أو علوم حسابية، وصناعية، أو غير ذلك، وأهله ليسوا من أهل العلم، الذين استشهدهم الله فلا يطلق هذا العلم

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (364/1 – 365).

(2) حاشية ابن قاسم (49).

إلا على العلم الشرعي الديني" (1).

ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحده (لا إله) نافيًا جميع ما يعبد من دون الله (إلا الله) مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه.

"معنى شهادة "أن لا إله إلا الله" أن يعترف الانسان، بلسانه وقلبه بأنه لا معبود حق إلا الله عز وجل، لأن إله بمعنى مألوه، والتأله التعبد، والمعنى أنه لا معبود حق إلا الله وحده .

وهذه الجملة مشتملة على نفي وإثبات أما النفي فهو "لا إله"، وأما الإثبات ففي "إلا الله" والله "لفظ الجلالة" بدل من خبر "لا" المحذوف، و التقدير "لا إله حق إلا الله" فهو إقرار باللسان بعد أن آمن به القلب بأنه لا معبود حق إلا الله عز وجل، وهذا يتضمن إخلاص العبادة لله وحده ونفي العبادة عما سواه.

وبتقديرنا الخبر بهذه الكلمة "حق" يتبين الجواب عن الإشكال الذي يورده كثير من الناس، وهو كيف تقولون لا إله إلا الله مع أن هناك آلهة تعبد من دون الله، وقد سماها الله تعالى آلهة وسماها عابدها آلهة قال الله تبارك وتعالى: {فما أغنت عنهم ألهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك} [هود: 101] وقال تعالى: {ولا تجعل مع الله إلهًا آخر} [الإسراء: 39] وقال تعالى: {ولا تدع مع الله إلَها آخر} [القصص: 88].

وقوله: {لن ندعوا من دونه إلهًا} [الكهف: 14] فكيف يمكن أن نقول "لا إله إلا الله" مع ثبوت الألوهية لغير الله عز وجل، والرسل يقولون لأقوامهم {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}.

---

(1) المرجع السابق (50).

والجواب على هذا الإشكال يتبين بتقدير الخبر في "لا إله إلا الله" فنقـول: هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي آلهة، لكنها آلهة باطلة ليست آلهة حقـة وليس لها من حق الألوهية شيء، ويدل لذلك قوله تعالى {ذلك بأن الله هـو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل، وأن الله هو العلي الكـبير} [لقمـان: 30]، ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى {أفرأيتم اللات والعزى ومنـاة الثالثـة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضـيزى إن هـي إلا أسمـاء سميتموها أنتم وأبائكم ما أنزل الله بها من سـلطان} [الـنجم: 19-23] ، وقوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام: {ما تعبدون من دون إلا أسماء سميتموها أنتم وآباوئكم ما أنزل الله بها من سلطان} [يوسف: 40].

إذن فمعنى "لا إله إلا الله" لا معبود حق إلا الله عز وجل، فأما المعبـودات سواه فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدها ليست حقيقية، أي ألوهية باطلة بـل الألوهية الحق هي ألوهية الله عز وجل" (1).

فائدة:

"لا إله إلا الله" تشتمل على جميع أنواع التوحيد إمـا بالتضـمن، وإمـا بالالتزام وذلك أن قول القائل "أشهد أن لا إله إلا الله" يتبادر إلى الـذهن أن المراد بها توحيد العبادة – الذي يسمى توحيد الألوهية- وهو متضمن لتوحيد الربوبية، لأن كل من عبدالله وحده، فإنه لن يعبده حتى يكـون مقـرًا لـه بالربوبية، وكذلك متضمن لتوحيد الأسماء والصفات، لأن الإنسان لا يعبد إلا من علم أنه مستحق للعبادة لما له من الأسماء والصفات، ولهذا قال إبـراهيم لإبيه : {يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا} [مـريم: 42] فتوحيد العبادة متضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسمـاء والصـفات"

---

(1) المجموع الثمين من فتاوي الشيخ العثيمين (20/2).

ٍ(1)

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمةً باقية في عقبه لعلهم يرجعون} [الزخرف: 2-28]

"أي وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله، الذي بينها بيانًا تامًا من القرآن، فإنه تعالى بينها في كتابه في غيره موضع، ولم يكل عباده في بيان معناها إلى أحد سواه.

ففي هذه الآيات أخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله، إمام الحنفاء، ووالد من بعده من الأنبياء، أنه قال لأبيه آزر، وقومه أهل بابل وملكهم النمرود، وكانوا يعبدون الأصنام {إنني براء} أي بريء {مما تعبدون} من الأوثان، وهذا فيه معنى "لا إله" (2).

وقوله: {إنني براء مما تعبدون} "أي مبغض له مجتنبٌ معادٌ لأهله" (3).

وقوله {إلا الذي فطرني} أي "فإني أتولاه وأرجوا أن يهديني للعلم بالحق والعمل بالحق" (4).

"وفيه معنى إلا الله"؛ فدلت الآية على ما دلت عليه لا إلا الله، ولهذا يقال: للا النافية للجنس، عند النحاة لام التبرئة؛ فالخليل عليه السلام، تبرأ من آلهتهم سوى الله، ولم يتبرأ من عبادة الله، بل استثنى من المعبودين ربه.

{فإنه سيهدين} أي يرشدني لدينه القويم وصراته المستقيم.

---

(1) الموع الثمين (22/2).

(2) حاشية ابن قاسم (53).

(3) تيسير الكريم الرحمن (641/6).

(4) المرجع السابق.

وقد أمرنا تعالى أن نتأسى به كما قال تعال {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم} [ ].

{وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه لعلهم يرجعون}.

"أي كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، باقية في نسله وذريته، يقتدي بـه فيها من هداه الله من ذريته {لعلهم} أي لعل أهل مكة وغيرهم. {يرجعـون} إلى دين إبراهيم الخليل.

والكلمة هي: لا إله إلا الله بإجماع المفسرين فعبر عن معنى لا إله بقولـه: {إنني براء مما تعبدون}.

وعبر عن معنى "إلا الله"، هو البراء من عبادة كل ما سوى الله وإخـلاص العبادة بجميع أنواعها لله.

وبين تعالى معنى "لا إله إلا الله" في آيات كثيرة من كتابه، يتعذر حصرها، كقوله: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} [ ]، وفي {ألا تعبـدوا} مـا في معنى لا إله إلا الله، وقوله {إلا إياه} هو الإثبات الذي أثبتته لا إله إلا الله، إذ لا يعبر عن الشيء إلا بمعناه، فبهذا ونحوه تعرف أن معـنى "لا إلـه إلا الله" النفي والإثبات، والولاء والبراء، والتجريد والتفريد.

وهذه التفاسير ونحوها: ترجع إلى معنى واحد، وهو: تجريد غير الله عـن الألوهية، وتفريدها لله وحده، دون كل من سواه، والبراءة من تأله غـير الله بالكلية.

ومن اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة، ولا يدخل النار فهـو ضال، مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة(1).

9*فائدة:

---

(1) حاشية ابن قاسم (54).

سئل الشيخ عبدالله أبابطين "رحمه الله" عن معنى لا إله إلا الله وعن معـنى الطاغوت الذي أمرنا الله باجتنابه والكفر به. فأجاب:

"(الإله) هو المألوه الذي تأله القلوب وتحبه، وقد دل صريح القرآن علـى معنى "الإله" وأنه المعبود كما في قوله تعالى: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومـه إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمةً باقيـة في عقبه لعلهم يرجعون} [الزخرف: 26 – 28].

قال المفسرون: هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده. والمعنى، جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في ذريةٍ إبراهيم، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم، بعضهم عن بعـض. وهـي كلمة (لا إله إلا الله) فتبين أن موالاة الله بعبادته والبراءة من كل معبود سواه، هو معنى لا إله إلا الله" (1)؟

وقوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا. ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64].

"هذه الآية الكريمة كان النبي ﷺ يكتب با إلى ملوك أهل الكتاب.

وكان يقرأ أحيانًا في الركعة الأولى من سنة الفجر {قولوا آمنا بالله} الآية.

ويقرأ با في الركعة الآخرة من سنة الصبح لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفقت عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية، المبني على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلـهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئًا من خصائص الربوبية، ولا مـن نعوت الإلهية.

---

(1) الدرر السنية (143/2).

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا، فقد اهتدوا {فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} كقوله تعالى {قل يا أيها الكافرون} إلى آخرها" [(1)].

قال الشيخ عبدالرحمن بن قاسم:

{فإن امتنعوا وأدبروا، وأعرضوا عن الإجابة إلى إفراد الله بالعبادة، فقولوا أنتم يا أمة محمد لهم: {اشهدوا بأنا مسلمون} مخلصون لله بالتوحيد دونم.

أي: صرحوا لهم مشافهة، إنكم مسلمون، و إنم كفار، وإنكم برءاء منهم، وهم برءاء منكم.

وهذا دال على أنه لابد أن تبين للكفار، حتى يتفهموا ويتحققوا، إنم ليسوا على دين، وإن دينك خلاف دينهم. الذي هم عليه، وأن دينهم خلاف دينك[(2)].

ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله قوله تعالى : {لقد جائكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم} [التوبة: 128]

"يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بما بعث فيهم النبي الأمي، الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له.

وهو ﷺ في غاية النصح لهم والسعي في مصالحهم.

{عزيز عليه ما عنتم} أي يشق عليه الأمر، الذي يشق عليكم ويعنتكم.

{حريص عليكم} فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (389/1).

(2) حاشية ابن قاسم (55).

{بالمؤمنين رؤوف رحيم} أي شديد الرأفة والرحمة بهم. أرحم بهم من والديهم ولهذا كان حقه مقدم على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتوقيره وتعزيزه"(1).

ومعنى شهادة أن محمد رسول الله:

طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع.

"ولا شك أن طاعته ﷺ من علامات الإيمان به، فإن التصديق الجازم بصدقه يستلزم طاعته فيما بلغه عن الله تعالى، فمن خالفه في ذلك أو شيء منه عنادًا أو تاونًا لم يكن صادقًا في شهادته له بالرسالة، ولقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن.

قال عز وجل : {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر} [النساء: 59].

وقال تعالى {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين} [المائدة:92].

وقد رتب الله عز وجل على طاعة نبيه ﷺ جزيل الثواب فقال تعالى: {وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون} [النور: 56].

وقال تعالى: {ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا} [الأحزاب: 71].

وورد في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (319/3).

"من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله" (1).

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: "كل الناس يدخل الالجنة إلا من أبى. قالوا: يا رسول الله وكيف يأبى؟ قـال: مـن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى" (2)(3).

"وأما تصديقه فيما أخبر، فهو إقرارٌ عملي وترجمة حقيقيـة كشـهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، وإلا كيف يكون الإنسان مقر بالشهادة وهو مكـذب لصاحبها أو لبعض ما جاء به.

إن هذا التصديق يجب أن يكون ظاهرًا وباطنًا بحيث لا يختلف الظاهر عـن الباطن، وإلا كان صاحب ذلك الاعتقاد من المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون.

وأن يكون ذلك التصديق في كل آن وحين لا تـؤثر عليـه الأحـداث والتقلبات والدعايات والإشاعات المضللة وما يروجه أعداء الإسلام من أفكار وأباطيل.

إن قبول جميع ما جاء به ﷺ وما بينه للناس من أمور تتعلق بالدنيا والـدين والعمل به والدعوة إليه، هو التصديق العملي لما جاء به ﷺ، وأما مخالفته مـا جاء به ﷺ أورده أو محاربته، فإنه تكذيب غير تصديق" (4).

واجتناب ما نى عنه وزجر.

فقد توعد الله على معصيته بالعقوبة الشديدة فقال سبحانه: {ومن يعـص

---

(1) رواه البخاري (7137).

(2) البخاري (7280).

(3) الشهادتان، معناهما وما تستلزمه كل منهما (44-46) للشيخ عبدالله بن جبرين.

(4) لا إله إلا الله تفسير وتوضيح – حمدان بن راجح.

الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها وله عذاب مهين} [النساء: 13-14].

وحكى عن أهل النار قولهم: {ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا} [الأحزاب: 66].

وأن لا يعبد الله إلا بما شرع

قال عز وجل: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر و ذكر الله كثيرا} [الأحزاب: 21]

وقال عز وجل {وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}

وقال سبحانه: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفـر لكـم ذنوبكم والله غفور رحيم، قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين} [آل عمران: 31-32]

والخير كل الخير في متابعته ﷺ لأنه هو المبلغ عن ربه عز وجل.

ولا يكون متبعا من أحدث في هذا الدين. ولا يكون متبعا من شهد شهادة أن محمدا رسول الله بلسانه فقط، ولم يتبع ذلك عملاً.

ولا يكون متبعا من سار خلف فلان وفلان وترك هدي محمد ﷺ.

ولا يكون متبعا من رأى أن هدي محمد ﷺ لا يفي بمقتضيات العصر"(1).

اعلم علمني الله وإياك أن المتابعة لا تتحقق إلا بستة أوصاف:

"أن تكون العبادة موافقة للشريعة في سببها، وجنسها، وقدرها وكيفيتها، وزمانا ، و مكانا.

أولاً – أن تكون العبادة موافقة للشريعة في سببها:

فأي إنسان يتعبد لله بعبادة مبنية على سبب لم يثبت بالشرع، فهي عبـادة

---

(1) لا إله إلا الله محمد رسول الله – تفسير وتوضيح – حمدان الهاجري.

مردودة ليس عليها أمر الله ورسوله، ومثال ذلك الاحتفال بمولد النبي ﷺ، وكذلك الذين يحتفلون بليلة السابع والعشرين من رجب، يدعون أن النبي ﷺ عرج به في تلك الليلة، فهو غير موافق للشرع ومردود:

أولاً : لأنه لم يثبت من الناحية التاريخية أن معراج الرسول ﷺ كان ليلة السابع والعشرين، وكتب الحديث التي بين أيدينا ليس فيها حرف واحد يدل على أن النبي ﷺ عرج به في ليلة السابع والعشرين من رجب، ومعلوم أن هذا من باب الخبر الذي لا يثبت إلا بالأسانيد الصحيحة.

ثانياً: وعلى تقدير ثبوته فهل من حقنا أن نحدث فيه عبادة أو نجعله عيدًا؟ أبدا.

ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة، ورأى الأنصار لهم يومان يلعبون فيهما، قال: إن الله أبدلكم بخير منهما، وذكر لهم عيد الفطر وعيد الأضحى، وهذا يدل على كراهة النبي ﷺ لأي عيد يحدث في الإسلام سوى الأعياد الإسلامية وهي ثلاثة: عيدان سنويان وهما عيد الفطر والأضحى، وعيد أسبوعي وهو الجمعة.

فعلى تقدير ثبوت أن الرسول ﷺ عرج به ليلة السابع والعشرين من رجب – وهذا دون ثبوته خرط القتاد- لا يمكن أن نحدث فيه شيئًا بدون إذن من الشارع.

لذلك فالاحتفال بليلة سبع وعشرين على أنها الليلة التي عرج فيها برسول الله ﷺ هذه بدعة، لأنها بنيت على سبب لم يأت به الشرع.

واعلم أن البدع أمرها عظيم، وأثرها على القلوب سيء، حتى وإن كان الإنسان في تلك اللحظة يجد من قلبه رقة ولينا، فإن الأمر سيكون بعد ذلك بالعكس قطعا، لأن فرح القلب بالباطل لا يدوم، بل يعقبه الألم والندم والحسرة، وكل البدع فيها خطورة، لأنها تتضمن القدح في الرسالة، لأن

مقتضى هذه البدعة أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يتم الشريعة، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} [ ].

والغريب أن بعض المبتلين بهذه البدع تجدهم يحرصون غاية الحرص على تنفيذها، مع أنهم متساهلون فيما هو أنفع وأصح وأجدى.

ثانيا – أن تكون العبادة موافقة للشريعة في جنسها:

مثل أن يضحى الإنسان، بفرس، فلو ضحى الإنسان بفرس، كان بذلك مخالفا للشريعة في جنسها.

ثالثًا – أن تكون العبادة موافقة للشريعة في قدرها:

لو أن أحدا من الناس قال إنه يصلي الظهر ستًا، فهل هذه العبادة تكون موافقة للشريعة؟ كلا، لأنها غير موافقة لها في القدر.

ولو أن أحدًا من الناس قال سبحان الله والحمد لله والله أكبر خمسا وثلاثين مرة دبر الصلاة المكتوبة فهل يصح ذلك؟

والجواب: إننا نقول إن قصدت التعبد لله تعالى بهذا العدد فأنت مخطيء، وإن قصدت الزيادة على ما شرع الرسول ﷺ، ولكنك تعتقد أن المشروع ثلاثة وثلاثون فالزيادة لا بأس بها هنا، لأنك فصلتها عن التعبد بذلك.

رابعا – أن تكون العبادة موافقة للشريعة في كيفيتها:

لو أن الإنسان فعل العبادة بجنسها وقدرها وسببها، لكن خالف الشرع في كيفيتها، فلا يصح ذلك.

مثال ذلك: رجل أحدث حدثا أصغر، وتوضأ لكنه غسل رجليه ثم مسح رأسه، ثم غسل يديه، ثم غسل وجهه، فهل يصح وضوءه ؟ كلا لأنه خالف

الشرع في الكيفية.

خامسا – أن تكون العبادة موافقة للشريعة في الزمان:

مثل أن يصوم الإنسان رمضان في شعبان، أو في شوال، أو أن يصلي الظهر قبل الزوال، أو بعد أن يصير ظل كل شيء مثله، لأنه إن صلاها قبل الزوال صلاها قبل الوقت، وإن صلى بعد أن يصير ظل كل شيء مثله، صلاها بعد الوقت فلا تصح صلاته.

ولهذا نقول إذا ترك الإنسان الصلاة عمدا. حتى خرج وقتها بدون عذر، فإن صلاته لا تقبل منه، حتى لو صلى ألف مرة.

وهنا نأخذ قاعدة مهمة في هذا الباب وهي (كل عبادة مؤقتة إذا أخرجها الإنسان عن وقتها بدون عذر فهي غير مقبولة بل مردودة).

ودليل ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"(1).

سادسًا: أن تكون العبادة موافقة للشريعة في مكانا:

فلو أن إنسانًا وقف يوم عرفة بمزدلفة، لم يصح وقوفه، لعدم موافقة العبادة للشرع في مكانا.

وكذلك على سبيل المثال لو أن إنسانًا اعتكف في م له، فلا يصح ذلك، لأن مكان الاعتكاف هو المسجد، ولهذا لا يصح للمرأة أن تعتكف في بيتها، لأن ذلك ليس مكانًا للاعتكاف.

والنبي ﷺ لما رأى بعض زوجاته ضربن أخبية لهن في المسجد، أمر بنقض الأخبية وإلغاء الاعتكاف ولم يرشدهن إلى أن يعتكفن في بيوتن، وهذا يدل على أنه ليس للمرأة اعتكاف في بيتها لمخالفة الشرع في المكان.

---

(1) رواه مسلم .

فهذه ستة أوصاف، لا تتحقق المتابعة إلا باجتماعها في العبادة"(1).

"هذا معنى شهادة أن محمدًا رسول الله، من طريق اللزوم، ولا ريب أنها تقتضي الإيمان به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، والانتهاء، عما عنه نهى وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد.

ولابد مع النطق بها؛ من العمل بما دلت عليه فقولها باللسان دون العمل بما دلت عليه، لا يصير به من أهل شهادة أن محمدًا رسول الله، كما أن قوله لا إله إلا الله بدون العمل بما دلت عليه لا يصير به من أهل شهادة أن لا إله إلا الله، على الحقيقة.

فأول ما يجب على الإنسان أن يعلم بقلبه علم اليقين وينطق بلسانه بالشهادتين، ويعمل بما دلت عليه"(2).

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} [البينة: 5].

{وما أ مروا} أي في سائر الشرائع {إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} أي قاصدين بجميع عباداتهم، الظاهرة والباطنة، وجه الله، وطلب الزلفى لديه.

{حنفاء} أي معرضين مائلين عن سائر الأديان، المخالفة لدين التوحيد.

وخص الصلاة والزكاة بالذكر، مع أنهما داخلان في قوله {ليعبدوا الله مخلصين له الدين} لفضلهما وشرفهما...

{وذلك} أي التوحيد والإخلاص في الدين هما {دين القيمة} أي الدين

---

(1) الكلام على المتابعة وضوابطها مستفاد من كلام العلامة العثيمين في كتابه دروس الحرم المكي ص (42-45) .

(2) حاشية ابن قاسم (58).

المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم" (1).

ودليل الصيام قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون} [البقرة: 183].

"يخبر تعالى بما من الله به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع والأوامر، التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تنشيط لهذه الأمة ، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة، التي اختصصتم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال: {لعلكم تتقون} فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

فمما اشتمل عليه من التقوى، أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقربًا بذلك إلى الله، راجيًا بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه، مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

ومنها أن الصيام يضيق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم، مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي.

ومنها أن الصائم في الغالب، تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى.

ومنها أن الغني إذا ذاق ألم الجوع، أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين،

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (7/657-658).

وهذا من خصال التقوى" (1).

ودليل الحج قوله تعالى {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} [آل عمران: 97].

أوجب الله عز وجل حج بيته الحرام على المكلفين المستطيعين إليه سـبيلاً. وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزوده، ولهـذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكن تطبيقه على جميع المركوبـات الحادثـة، والـتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها.

فمن أذعن لذلك وقام به، فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته فهو خارج عن الدين {... ومن كفر فإن الله غني عن العالمين}" (2).

ولابن القيم كلام لطيف حول حكم الشرائع والعبادات نورد منـه مـا يناسب المقام، قال رحمه الله:

"الشرائع كلها في أصولها – وإن تباينت – متفقة، مركـوز حسـنها في العقول، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمـة والمصـلحة والرحمة، بل من المحال أن تأتي بخلاف ما أتت به؛ {ولو اتبع الحـق أهـواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن} [المؤمنون: 71].

وكيف يجوز ذو العقل أن ترد شريعة أحكم الحاكمين بضد ما وردت به:

والصلاة قد وضعت على أكمل الوجوه وأحسنها التي تعبد بـها الخـالق تبارك وتعالى عباده من تضمنها للتعظيم له بأنواع الجوارح؛ من نطق اللسـان

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (221/1).

(2) تيسير الكريم الرحمن (403/1).

وعمل اليدين والرجلين، و الرأس وحواسه، وسائر أجزاء البدن، كل يأخذ حظه من الحكمة في هذه العبادة العظيمة المقدار، مع أخذ الحواس الباطنة بحظها منها، وقيام القلب بواجب عبوديته فيها، فهي مشتملة على الثناء والحمد والتمجيد والتسبيح والتكبير، وشهادة الحق، والقيام بين يدي الرب مقام العبد الذليل الخاضع المدبر المربوب، ثم التذلل له في هذا المقام، والتضرع والتقرب إليه بكلامه، ثم انحناء الظهر ذلاً له وخشوعًا واستكانة، ثم استوائه قائمًا ليستعد لخضوع أكمل له من الخضوع الأول – وهو السجود من قيام – فيضع أشرف شيء فيه – وهو وجهه – على التراب خشوعًا لربه واستكانة، وخضوعًا لعظمته، وذلاً لعزته وقد انكسر له قلبه، وذل له جسمه، وخشعت له جوارحه، ثم يستوي قاعدًا يتضرع له ويتذلل بين يديه، ويسأله من فضله، ثم يعود إلى حاله من الذل والخشوع والاستكانة، فلا يزال هذا دأبه حتى يقضي صلاته، فيجلس عند إرادة الانصراف منها مثنيًا على ربه، مسلمًا على نبيه وعلى عباده، ثم يصلي على رسوله ثم يسأل ربه من خيره وبره وفضله.

فأي شيء بعد هذه العبادة من الحسن؟ وأي كمال وراء هذا الكمال؟ وأي عبودية أشرف من هذه العبودية؟ فمن جوز عقله أن ترد الشريعة بضدها من كل وجه في القول والعمل – وأنه لا فرق في نفس الأمر بين هذه العبادة وبين ضدها من السخرية، والسب والبطر(1)، وكشف العورة، والبول على الساقين، والضحك والصفير، وأنواع المجون، وأمثال ذلك – فلْيُعَز عقله، وليسأل الله أن يهبه عقلاً سواه !

وأما حسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوي الحاجات والمسكنة

---

(1) هو الغلو في المرح والزهو، ويأتي بمعنى إنكار الحق ورفضه.

والخلة[1] من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم، ويخاف عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياء وأنفسَهم، وما فيها من الرحمة والإحسان والبر والطهرة، وإيثار أهل الإيثار، والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل، والخروج من سمات أهل الشح والبخل والدناءة: فأمر لا يستريب عاقل في حسنه ومصلحته، وأن الآمر به أحكم الحاكمين.

وليس يجوز في العقل ولا في الفطرة ألبته أن ترد شريعة من الحكيم العليم بضد ذلك أبدًا.

وأما الصوم فناهيك به من عبادة تكف النفس عن شهواتها، وتخرجها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين، فإن النفس إذا خليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهائم، فإذا كُفت شهواتُها لله ضيقت مجاري الشيطان، وصارت قريبة من الله بترك عادتها وشهواتها؛ مَحَبةً له، وإيثارًا لمرضاته، وتقربًا إليه، فيدع الصائم أحب الأشياء إليه وأعظمها لصوقًا بنفسه من الطعام والشراب والجماع من أجل ربه، فهو عبادة، ولا تتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة لله، فالصائم يدع طعامه وشرابه وشهواته من أجل ربه؛ وهذا معنى كون الصوم له تبارك وتعالى، وبهذا فسر النبي ﷺ هذه الإضافة في الحديث فقال: "يقول الله تعالى: كل عمل ابن آدم يُضَاعفُ الحسنة بعشرة أمثالها، قال الله: إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزى به يدع طعامه وشرابه من أجلي"[2]، حتى إن الصائم ليتصور بصورة من لا حاجة له في الدنيا إلا في تحصيل رضا الله.

وأي حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة، وتقمع النفس، وتحيي القلب وتفرحه، وتزهد في الدنيا وشهواتها، وترغب فيما عند

---

(1) الحاجة والفقر.

(2) رواه البخاري (5927)، ومسلم (1151) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الله، وتذكر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم، وأنهم قد أخذوا بنصيب من عيشهم، فتعطف قلوبهم عليهم، ويعلمون ما هم فيه من نعم الله فيزدادون له شكرًا.

وبالجملة، فعون الصوم على تقوى الله أمر مشهور، فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم، فهو شاهد لمن شرعه وأمر به بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه إنما شرعه إحسانًا إلى عباده، ورحمة بهم، ولطفًا بهم، لا بخلاً عليهم برزقه، ولا مجرد تكليف وتعذيب خال من الحكمة والمصلحة، بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة، وأن شرع هذه العبادات لهم من تمام نعمته عليهم، ورحمته بهم.

وأما الحج فشأن آخر لا يدركه إلا الحنفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم، وشأنه أجل من أن تحيط به العبارة، وهو خاصةُ هذا الدين الحنيف، حتى قيل في قوله تعالى: {حنفاء لله غير مشركين به} [الحج: 31]، أي: حجاجًا(1) وجعل الله بيته الحرام قيامًا للناس، فهو عمود العالم الذي عليه بناؤه، فلو ترك الناس كلهم الحج سنة لخرت السماء على الأرض، هكذا قال ترجمان القرآن ابن عباس.

فالبيت الحرام قيام العالم فلا يزال قيامًا ما دام هذا البيت محجوجًا، فالحج هو خاصة الحنيفية، ومعونة الصلاة، وسر قول العبد: لا إله إلا الله؛ فإنه مؤسس على التوحيد المحض والمحبة الخالصة، وهو استزارة المحبوب لأحبابه، ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم: لبيك اللهم لبيك، إجابة محب لدعوة حبيبه، ولهذا كان للتلبية موقع عند الله، وكلما أكثر العبد منها كان أحب إلى ربه وأحظى، فهو لا يملك نفسه أن

---

(1) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في "الدر المنشور" (45/6).

يقول: لبيك.. لبيك، حتى ينقطع َنفَسُهُ.

وأما أسرار ما في هذه العبادة من الإحرام واجتناب العوائد وكشف الرأس ونزع الثياب المعتادة والطواف والوقوف بعرفة ورمي الجمار وسائر شـعائر الحج فمما شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وعلمـت بـأن الذي شرع هذا لا حكمة فوق حكمته"(1).

*المرتبة الثانية

الإيمان، وهو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.

الإيمان لغة:

قال ابن منظور في لسان العرب ما ملخصه:

آمن بالشيء: صدق.

وحد الزجاج الإيمان فقال: الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولمـا أتى به النبي ﷺ، واعتقاده وتصديقه بالقلب، فمن كان على هذه الصفة فهـو مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شاك، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجـب عليه لا يدخله في ذلك ريب، وفي التنزيل العزيز {وما أنـت بمـؤمن لنـا} {يوسف: 17} أي بمصدق. والإيمان: التصديق.

واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق" (2).

وقال الشيخ ابن عثيمين:

"وأما الإيمان" فأكثر أهل العلم يقولون: إن الإيمان في اللغة التصديق.

---

(1) مفتاح دارالسعادة (320/2-324) .

(2) لسان العرب – لابن منظور (140/1،139).

ولكن في هذا نظر؛ لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة فإنها تتعدى بتعديتها، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه، والإيمان لا يتعدى بنفسه، فتقول مثلاً: صدقته، ولا تقول: آمنته! بل تقول: أمنت به. أو آمنت له، فلا يمكن أن نفسر فعلاً لازمًا لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول بنفسه، ثم إن كلمة "صدقت" لا تعطي معنى كلمة "آمنت" فإن "آمنت" تدل على طمأنينة بخبره أكثر من "صدقت".

ولهذا لو فسر الإيمان بالإقرار؛ لكان أجود؛ فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق؛ فتقول: أقر به؛ كما تقول: آمن به، وأقر له: كما تقول: آمن له" (1).

قال الشيخ حافظ الحكمي:

"من قال من أهل السنة في الإيمان هو التصديق على ظاهر اللغة أنهم إنما عنوا التصديق الإذعاني المستلزم للإنقياد ظاهرًا وباطنًا بلا شك، لم يعنوا مجرد التصديق.

فإن إبليس لم يكذب في أمر الله تعالى له بالسجود، وإنما أبى عن الانقياد كفرا واستكبارا، واليهود كانوا يعتقدون صدق الرسول ﷺ ولم يتبعوه، وفرعون كان يعتقد صدق موسى ولم ينقد بل جحد بآيات الله ظلما وعلوا، فأين هذا من تصديق من قال الله تعالى فيه {والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون}. [الزمر: 33].

وأين تصديق من قال الله تعالى فيهم {قالوا سمعنا وعصينا وقالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم} [البقرة: 76] من تصديق من قالوا {سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} [البقرة: 285] والله

---

(1) شرح العقيدة الواسطية (230/2).

الموفق"(1).

وشرعا:

الإيمان قولٌ وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح" (2).

قال الشيخ الفوزان شارحا تعريف شيخ الإسلام للإيمان: "هذا هو تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة: أنه قول وعمل – فالقول قسمان قول القلب وهو الاعتقاد وقول اللسان، وهو التكلم بكلمة الإسلام، والعمل قسمان: عمل القلب وهو نية وإخلاص، وعمل الجوارح – أي الأعضاء- كالصلاة والحج والجهاد.

والفرق بين أقوال القلب وأعماله: أن أقواله هي العقائد التي يعترف بها ويعتقدها وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله وهي محبة الخير وإرادته الجازمة و كراهية الشر والعزم على تركه.

وأعمال القلب تنشأ عنها أعمال الجوارح وأقوال اللسان، ومن ثم صارت أقوال اللسان وأعمال الجوارح من الإيمان" (3).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

"وقد تنوعت عبارات السلف فيه فتارة يقولون:

هو قول وعمل ونية واتباع السنة وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح.

وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية.

---

(1) معارج القبول (2/594-595).

(2) العقيدة الواسطية – لابن تيمية مع الروضة الندية ص(382).

(3) شرح العقيدة الواسطية – للفوزان ص(179).

وتارة يقولون: هو قول وعمل.

وكل هذا صحيح فإذا قالوا هو قول وعمل فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعًا، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق.

فإن الذي عليه السلف والفقهاء والجمهور يتناول اللفظ والمعنى جميعًا.

فمن قال من السلف: الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ومن أراد الاعتقاد أي أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب.

ومن قال قول وعمل ونية قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزادوا ذلك.

ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبًا لله إلا باتباع السنة وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل إنما أرادوا ما كان مشروعًا من الأقوال والأعمال، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذي جعلوه قولاً فقط فقالوا: بل هو قول وعمل.

والذين جعلوه أربعة(1) فسروا مرادهم، كما سئل سهل بن عبدالله التستري عن الإيمان ما هو؟ فقال: قول وعمل ونية وسنة.

لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق، و إذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة" (2).

ويقول ابن القيم رحمه الله:

"حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان قول القلب وهو

---

(1) أي قول وعمل واعتقاد ونية.

(2) كتاب الإيمان – لشيخ الإسلام ص(90-91).

الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان: عمل القلب وهو: نية – وإخلاص وعمل بالجوارح.

فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء. فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة.

وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد المصدق فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة.

فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب ومحبته وانقياده كما لا ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول بل ويقرون به سرا وجهرا ويقولون ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به.

وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعمال الجوارح ولاسيما إذا كان ملزومًا لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزومٌ لعدم التصديق الجازم ... فإنه يلزم منه عدم طاعة الجوارح، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد" (1).

قوله: "وهو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله ألا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبةٌ من الإيمان".

هو لفظ حديث رواه مسلم (6/2) على التردد فقد وقع في روايته "بضع وستون أو بضع وسبعون"، وفي رواية "بضع وسبعون بغير شك"، وكذا في السنن الثلاثة.

ورواه البخاري (67/1) بلفظ "بضع وستون بغير شك".

---

(1) كتاب الصلاة – لابن القيم (514-515) ضمن مجموعة الحديث النجدية.

قال الحافظ ابن حجر ما ملخصه:

"قوله: "بضع" بكسر أوله، وحكي الفتح لغة، وهو عدد مبهم ما بين الثلاث إلى التسع كما جزم به القزاز.

وقال ابن سيده: إلى العشر، ويرجح ما قاله القزاز ما اتفق عليه المفسرون في قوله تعالى:

{فلبث في السجن بضع سنين} [يوسف: 42].

وما رواه الترمذي بسند صحيح أن قريشًا قالوا ذلك لأبي بكر، وكذا رواه الطبري مرفوعاً.

قوله: "وستون" لم تختلف الطرق عن أبى عامر شيخ شيخ المؤلف –أي البخاري- في ذلك ووقع التردد في رواية مسلم من طريق سهيل بن أبى صالح عن عبدالله بن دينار، ورواه أصحاب السنن الثلاثة من طريقه فقالوا: "بضع وسبعون" من غير شك.

ورجح البيهقي رواية البخاري؛ لأن سليمان لم يشك، وأما رواية الترمذي بلفظ "أربع وستون" فمعلولة، وترجيح رواية "بضع وسبعون" لكونها زيادة ثقة كما ذكره الحليمي ثم عياض – لا يستقيم إذ الذي زادها لم يستمر على الجزم لاسيما مع اتحاد المخرج، وبهذا يتبين شفوف نظر البخاري، وقد رجح ابن الصلاح الأقل لكونه المتيقن. وقوله: "شعبة" أي قطعة، والمراد الخصلة أو الجزء. قوله: "والحياء" هو بالمد، وهو في اللغة: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وفي الشرع: خُلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ولهذا جاء في الحديث الآخر: "الحياء خير كله" (1) فإن قيل الحياء من الغرائز فكيف جعل شعبة من الإيمان؟ أجيب بأنه قد يكون

---

(1) رواه مسلم (7/2).

غريزة، وقد يكون تخلقا، ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فهو من الإيمان لهذا، ولكونه باعثًا على فعل الطاعة وحاجزا عـن فعل المعصية(1).

فائدة: "قال القاضي عياض: تكلف الجماعة حصر هذه الشـعب بطريـق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عـدم معرفـة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان" (2).

زيادة الإيمان ونقصانه :

قال شيخ الإسلام: "أهل السنة والجماعة على أنه يتفاضـل وجمهـورهم يقولون يزيد وينقص ومنهم من يقول يزيد ولا ينقص، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان عن الصحابة، ولم يعرف فيه مخالفٌ من الصحابة.

فعن عمير بن حبيب الخطمي قال: الإيمان يزيد وينقص، قيل وما زيادته وما نقصانه؟ قال إذا ذكرنا الله وحمدنا وسبحناه فتلك زيادته وإذا اغفلناه ونسيناه فتلك نقصانه.

وقال أبو الدرداء: الإيمان يزيد وينقص، وقال: إن مـن فقـه الرجـل أن يتعاهد إيمانه، وما نقص منه ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد# هو أم ينقص؟ وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان من أين يأتيه؟

وقال أبو هريرة: الإيمان يزيد وينقص، وكذا قال غير واحد من الصحابة.

وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبي ﷺ ونزول القرآن كله.

والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات كقوله {إنما المؤمنون الـذين إذا

---

(1) فتح الباري (1/67-68).

(2) المرجع السابق.

ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا} [ ] وهذه الزيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت، ليس هو تصديقهم بها عند ال ول.

وقال تعالى: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} [ ] فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو.

وقال: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم} [ ].

وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيمانا بحسب مقتضاها فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة وإن كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه.

وقال: {ويزداد الذين آمنوا إيمانا} [ ]

وقال: {ليزدادوا إيمانا في إيمانهم} [ ]

وقال: {الذين اهتدوا زادهم هدى} [ ]"(1)

وأركانه ستة:

أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب

---

(1) كتاب الإيمان ص (118-120) ملخصا.

والنبيين} [177: البقرة].

ودليل القدر قوله تعالى {إنا كل شيء خلقناه بقدر} [القمر: 49].

للإيمان أركان ستة وهي :

الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وقد دل على هذه الأسس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

الإيمان بالله:

فأما الإيمان بالله فيتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجود الله تعالى:

وقد دل على وجوده تعالى: الفطرة والعقل والشرع والحس.

أما دلالة الفطرة على وجوده فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طـرأ على قلبه ما يصرفه عنها لقول النبي ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه". رواه البخاري.

وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى فلأن هـذه المخلوقـات سـابقها ولاحقها لابد لها من خالق أوجدها إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسـها، ولا يمكن أن توجد صدفة.

لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها لأن الشيء لا يخلق نفسـه، لأنـه قبـل وجوده معدوم فكيف يكون خالقًا؟

ولا يمكن أن توجد صدفة لأن كل حادث لابد له مـن مُحـدِث، ولأن وجودها على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملـتحم بـين الأسباب ومسبباتا، وبين الكائنات بعضها مع بعض يمنع منعًا باتًا أن يكـون وجودها صدفة، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجـوده فكيـف

يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره؟

وإذا لم يكن أن توجد هذه المخلوقات نفسها بنفسها ولا أن توجد صدفة تعين أن يكون لها موجد وهو الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي في سورة الطور، حيث قال: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} يعني أنهم لم يخلقوا من غير خالق ولا هم الذين خلقوا أنفسهم فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى، ولهذا لما سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بلا لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} وكان جبير يومئذ مشركا قال:" كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي". رواه البخاري مفرقا.

ولنضرب مثلاً يوضح ذلك، فإنه لو حدثك شخص عن قصر مشيد أحاطت به الحدائق وجرت بينها الأنهار وملئ بالفرش والأسرة، وزين بأنواع الزينة من مقوماته ومكملاته، وقال لك: إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجد نفسه أو وجد هكذا صدفة بدون موجد، لبادرت إلى إنكار ذلك وتكذيبه، و عددت حديثه سفها من القول، أفيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه وسمائه وأفلاكه وأحواله ونظامه البديع الباهر قد أوجد نفسه أو وجد صدفة بدون موجد؟

وأما دلالة الشرع على وجود الله تعالى فلأن الكتب السماوية كلها تنطق بذلك وما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه. وما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به.

وأما أدلة الحس على وجود الله تعالى فمن وجهين:

أحدهما: أننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى قال الله تعالى: {ونوحًا إذا نادى من قبل فاستجبنا له} وقال تعالى: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم}. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن أعرابيًا دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه ودعا، فثار السحاب أمثال الجبال فلم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته. وفي الجمعة الثانية قام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: يا رسول الله، تهدم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت.

ومازالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا لمن صدق اللجوء إلى الله تعالى وأتى بشرائط الإجابة.

الوجه الثاني: أن آيات الأنبياء التي تسمى (المعجزات) ويشاهدها الناس أو يسمعون بها برهان قاطع على وجود مرسلهم، وهو الله تعالى، لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم.

مثال ذلك آية موسى ﷺ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فانفلق اثني عشر طريقًا يابسًا، والماء بينهما كالجبال، قال الله تعالى: {فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم}.

ومثال ثان: آية عيسى ﷺ حيث كان يحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم بإذن الله، قال الله تعالى: {وأحيي الموتى بإذن الله} وقال: {وإذ تخرج الموتى بإذني}.

ومثال ثالث لمحمد ﷺ حين طلبت منه قريش آية فأشار إلى القمر فانفلق فرقتين فرآه الناس، وفي ذلك يقول الله تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر}.

فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم، تدل دلالة قطعية على وجوده تعالى.

الأمر الثاني: ما يتضمنه الإيمان بالله: الإيمان بربوبيته أي بأنه وحده الرب لا شريك له ولا معين.

والرب: من له الخلق والملك والأمر، فلا خالق إلا الله ولا مالك إلا هو ولا أمر إلا له قال تعالى: {ألا له الخلق والأمر} وقال: {ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير}.

ولم يعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه إلا أن يكون مكابرًا غير معتقد بما يقول، كما حصل من فرعون حين قال لقومه: أنا ربكم الأعلى وقال: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري. لكن ذلك ليس عن عقيدة قال الله تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا} وقال موسى لفرعون فيما حكى الله عنه: {لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورًا}.

ولهذا كان المشركون يقرون بربوبية الله تعالى مع إشراكهم به في الألوهية، قال الله تعالى: {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون}[ ]. وقال الله تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} وقال: {ولئن

سألتهم من خلقهن ليقولن الله فأنى يؤفكون}.

وأمر الرب سبحانه شامل للأمر الكوني والشرعي، فكما أنه مدبر الكـون القاضي فيه بما يريد حسب ما تقتضيه حكمته، فهو كذلك الحاكم فيه بشرع العبادات وأحكام المعاملات حسبما تقتضيه حكمته، فمن اتخذ مع الله تعـالى مشرعًا في العبادات أو حاكمًا في المعاملات فقد أشرك به ولم يحقق الإيمان.

الأمر الثالث : مما يتضمنه الإيمان بالله: الإيمان بألوهيته، أي بأنه وحده الإله الحق لا شريك له، والإله بمعنى المألوه أي المعبود حبًا وتعظيمًا وقال الله تعالى: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} وقال تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم}.

وكل ما اتخذ إلهًا مع الله يعبد من دونه فألوهيته باطلة، قـال الله تعـالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير}، وتسميتها آلهة لا يعطيها حق الألوهية قال الله تعالى في اللات والعزى ومناة: {إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مـا أنـزل الله بـها مـن سلطان}(1) وقال عن يوسف أنه قال لصاحبي السجن: {أأرباب متفرقـون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان}. ولهذا كانت الرسل عليهم الصـلاة والسـلام يقولون لأقوامهم: {اعبدوا الله ما لكم من إلـه غـيره} ولكـن أبى ذلـك المشركون، واتخذوا من دون الله آلهة، يعبدونهم مـع الله سـبحانه وتعـالى، ويستنصرون بهم ويستغيثون.

وقد أبطل الله تعالى اتخاذ المشركين هذه الآلهة ببرهانين عقليين:

---

(1) وقال عن هود أنه قال لقومه: {أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان}.

الأول: أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيءً من خصائص الألوهيـة، فهي مخلوقة لا تخلق ولا تجلب نفعًا لعابديها، ولا تدفع عنهم ضررًا، ولا تملك لهم حياة، ولا موتًا، ولا يملكون شيئًا من السموات ولا يشاركون فيه، قال الله تعالى: {واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئًا وهـم يخلقـون. ولا يملكـون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا} وقال: {قـل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السـموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شركٍ وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنـده إلا لمن تأذن له} وقال: {أيشركون مالا يخلق شيئًا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون}.

وإذا كانت هذه حال تلك الآلهة، فإن اتخاذها ألهةً من أسفه السفه وأبطـل الباطل.

والثاني: أن هؤلاء المشركين كانوا يقرون بأن الله تعالى وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وهـذا يسـتلزم أن يوحدوه بالألوهية كما وحدوه بالربوبية كما قال تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكـم فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون}. وقال: {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون } وقال: { قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن مـن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون. فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعـد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون}.

الأمر الرابع: ما يتضمنه الإيمان بالله: الإيمان بأسمائه وصفاته أي إثبات مـا

أثبته الله لنفسه في كتابه أو سنة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، قال الله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون} وقال: {وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيزالحكيم} وقال: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

وقد ضل في هذا الأمر طائفتان:

إحداهما: المعطلة الذين أنكروا الأسماء والصفات أو بعضها زاعمين أن إثباتها لله يستلزم التشبيه، أي تشبيه الله تعالى بخلقه، وهذا الزعم باطل لوجوه منها:

الأول: أنه يستلزم لوازم باطلة كالتناقض في كلام الله سبحانه، وذلك أن الله تعالى أثبت لنفسه الأسماء والصفات ونفى أن يكون كمثله شيء ولو كان إثباتها يستلزم التشبيه لزم التناقض في كلام الله وتكذيب بعضه بعضًا.

الثاني: أنه لا يلزم من اتفاق الشيئين في اسم أو صفة أن يكونا متماثلين، فأنت ترى الشخصين يتفقان في أن كلاً منهما إنسان سميع بصير متكلم ولا يلزم من ذلك أن يتماثلا في المعاني الإنسانية والسمع والبصر والكلام، وترى الحيوانات لها أيد وأرجل وأعين ولا يلزم من اتفاقها هذا أن تكون أيديها وأرجلها وأعينها متماثلة.

فإذا ظهر التباين بين المخلوقات فيما تتفق فيه من أسماء أو صفات، فالتباين بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

الطائفة الثانية: المشبهة الذين أثبتوا الأسماء والصفات مع تشبيه الله تعالى بخلقه زاعمين أن هذا مقتضى دلالة النصوص، لأن الله تعالى يخاطب العباد بما يفهمون وهذا الزعم باطل لوجوه منها:

الأول: أن مشابهة الله تعالى لخلقه أمر باطل يبطله العقل والشرع، ولا يمكن أن يكون مقتضى نصوص الكتاب والسنة أمرًا باطلاً.

الثاني: أن الله تعالى خاطب العباد بما يفهمون من حيث أصل المعنى، أما الحقيقة والكنه الذي عليه ذلك المعنى فهو مما استأثر الله تعالى بعلمه فيما يتعلق بذاته وصفاته.

فإذا أثبت الله لنفسه أنه سميع، فإن السمع معلوم من حيث أصل المعنى، وهو إدراك الأصوات لكن حقيقة ذلك بالنسبة إلى سمع الله تعالى غير معلومة، لأن حقيقة السمع تتباين حتى في المخلوقات فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

وإذا أخبر الله تعالى عن نفسه أنه استوى على عرشه فإن الاستواء من حيث أصل المعنى معلوم لكن حقيقة الاستواء التي هو عليه غير معلومة بالنسبة إلى استواء الله على عرشه، لأن حقيقة الاستواء تتباين في حق المخلوق فليس الاستواء على كرسي مستقر كالاستواء على رحل بعير صعب نفور، فإذا تباينت في حق المخلوق فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

والإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها:

الأولى: تحقيق توحيد الله تعالى بحيث لا يتعلق بغيره رجاء ولا خوف ولا يعبد غيره.

الثانية: كمال محبة الله تعالى وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثالثة: تحقيق عبادته بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

الإيمان بالملائكة :

الملائكة: عالم غيبي مخلوقون عابدون لله تعالى لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، خلقهم الله تعالى من نور ومنحهم الانقياد التام لأمره والقوة

على تنفيذه قال الله تعالى: {ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون}.

وهم عدد كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج أن النبي ﷺ رفع له البيت المعمور في السماء يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم(1).

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجودهم.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه كجبريل ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالاً.

الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم كصفة جبريل فقد أخبر النبي ﷺ أنه رآه على صفته التي خلق عليها وله ستمائة جناح قد سد الأفق.

وقد يتحول الملك بأمر الله تعالى إلى هيئة رجل كما حصل لجبريل حين أرسله تعالى إلى مريم فتمثل لها بشرًا سويًا وحين جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في أصحابه جاءه بصفة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة فجلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها، فأجابه النبي ﷺ فانطلق ثم قال ﷺ هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ولوط كانوا على صورة رجال.

---

(1)

الرابع: مما يتضمنه الإيمان بالملائكة: الإيمان بما علمنا مـن أعمـالهم الـتي يقومون بها أمر الله تعالى كتسبيحه والتعبد له ليلاً ونهارًا بدون ملل ولا فتور.

وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة مثل جبريل الأمين على وحي الله تعـالى يرسله الله به إلى الأنبياء والرسل.

ومثل ميكائيل الموكل بالقطر أي بالمطر والنبات.

ومثل إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور عند قيام الساعة وبعث الخلق.

ومثل ملك الموت الموكل بقبض الأرواح عند الموت.

ومثل مالك الموكل بالنار وهو خازن النار.

ومثل الملائكة الموكلين بالأجنة في الأرحام إذا تم للإنسان أربعة أشـهر في بطن أمه بعث الله إليه ملكًا وأمره بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد.

ومثل الملائكة الموكلين بحفظ بني آدم.

ومثل الملائكة الموكلين بحفظ أعمال بني آدم وكتابتها لكل شخص، ملكان أحدهما عن اليمين والثاني عن الشمال.

ومثل الملائكة الموكلين بسؤال الميت إذا وضع في قبره يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه.

والإيمان بالملائكة يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم بعظمة الله تعالى وقوته وسلطانه، فإن عظمة المخلـوق مـن عظمة الخالق.

الثانية: شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم حيث وكل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم وغير ذلك من مصالحهم.

الثالثة: محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى.

وقد أنكر قوم من الزائغين كون الملائكة أجسامًا وقالوا إنهم عبارة عن قوى

الخير الكامنة في المخلوقات، وهذا تكذيب لكتاب الله تعالى وسنة رسـوله ﷺ وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: {الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسـلاً أولي أجنحة مثنى وثلاثة ورباع} وقال: {ولو ترى إذ يتوفى الـذين كفـروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم} وقال: {ولـو تـرى إذ الظـالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم } وقال: {حتى فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} وقال في أهـل الجنة: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فـنعم عقبى الدار}.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: "إذا أحب الله العبد نادى جبريل أن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل فينـادي جبريل في أهل السماء أن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضـع له القبول في الأرض." وفيه أيضًا عنه قال: قال النبي ﷺ "إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فـالأول فـإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر".

وهذه النصوص صريحة في أن الملائكة أجسام لا قوى معنوية كمـا قـال الزائغون وعلى مقتضى هذه النصوص أجمع المسلمون.

الإيمان بالكتب :

الكتب: جمع كتاب بمعنى مكتوب.

والمراد بها هنا: الكتب التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق وهداية لهم ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

والإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن نزولها من عند الله حقًا.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ، والتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ والإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ، والزبور الذي أوتيه داود ﷺ وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالاً.

الثالث: تصديق ما صح من أخبارها كأخبار القرآن وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة.

الرابع: العمل بأحكام ما لم ينسخ منها والرضا والتسليم به سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم قال الله تعالى: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه} أي حاكمًا عليه وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح منها وأقره القرآن.

والإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم بعناية الله تعالى بعباده حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

الثاني: العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم كما قال الله تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا}.

الثالثة: شكر نعمة الله في ذلك.

الإيمان بالرسل:

الرسل: جمع رسول بمعنى مرسل، أي مبعوث بإبلاغ شيء.

والمراد هنا: من أوحى إليه من البشر بشرع وأمر بتبليغه وأول الرسل نوح وآخرهم محمد ﷺ قال الله تعالى: {إنا أوحينا إليك الكتاب كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده}. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن النبي ﷺ ذكر أن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم

فيعتذر إليهم ويقول: ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله وذكر تمام الحديث، وقال الله تعالى في محمد ﷺ: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسـول الله وخاتم النبيين}[ ].

ولم تخل أمة من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه أو نبي يوحى إليه بشريعة من قبله ليجددها، قال الله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسـولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} وقال تعالى: {وإن من أمة إلا خـلا فيهـا نذير} وقال تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الـذين أسلموا للذين هادوا}.

والرسل: بشر مخلوقون ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء قال الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ وهو سيد الرسل وأعظمهم جاهًا عند الله:{ قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني اسوء إن أنا إلا نذير وبشير لقومٍ يؤمنون } وقال تعـالى : {قل إني لا أملك لكم ضرًا ولا رشدًا قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدًا}[الجن : 22] .

وتلحقهم خصائص البشرية من المـرض والمـوت والحاجـة إلى الطعـام والشراب وغير ذلك، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه الصـلاة والسـلام في وصفه لربه تعالى: {والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهـو يشـفين والذي يميتني ثم يحيين} [الشعراء : 79- 81] .

وقال النبي ﷺ: "إنما أنا بشر مثلكم أنسى كمـا تنسـون فـإذا نسـيت فذكروني"(1).

وقد وصفهم الله تعالى بالعبودية له في أ على مقاماتم وفي سـياق الثنـاء

---

(1)

عليهم فقال تعالى في نوح ﷺ: {إنه كان عبدًا شكورًا} وقال في محمد ﷺ: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا}، وقال في إبراهيم واسحاق ويعقوب ﷺ: {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار} وقال في عيسى بن مريم ﷺ: {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل}.

والإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع كما قال الله تعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين} فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه وعلى هذا فالنصارى الذين كذبوا بمحمد ﷺ ولم يتبعوه هم مكذبون للمسيح بن مريم غير متبعين له أيضًا، لا سيما وأنه قد بشرهم بمحمد ﷺ ولا معنى لبشارتهم به إلا أنه رسول إليهم ينقذهم الله به من الضلالة ويهديهم إلى صراط مستقيم.

الثاني مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل محمد وإبراهيم وموسى ونوح عليهم الصلاة والسلام وهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الرسل، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن في سورة الأحزاب في قوله: {وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم}، وفي سورة الشورى في قوله: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}.

وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً قال الله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك}.

الثالث مما يتضمنه الإيمان بالرسل: تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس قال الله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا}.

وللإيمان بالرسل ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ويبينوا لهم كيف يعبدون الله، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم لأنهم رسل الله تعالى ولأنهم قاموا بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده.

وقد كذب المعاندون رسلهم زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر وقد ذكر الله تعالى هذا الزعم وأبطله بقوله: {وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرًا رسولاً قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً}. فأبطل الله تعالى هذا الزعم بأنه لابد أن يكون الرسول بشرًا لأنه مرسل إلى أهل الأرض وهم بشر ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزل الله عليهم من السماء ملكًا رسولاً ليكون مثلهم. وهكذا حكى الله تعالى عن المكذبين للرسل أنهم قالوا: {إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله}.

الإيمان باليوم الآخر:

اليوم الآخر: يوم القيامة الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم.

والإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: الإيمان بالبعث وهو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية فيقوم الناس لرب العالمين حفاة غير منتعلين عراة غير مستترين غرلاً غير مختتنين قال الله تعالى: {كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين}.

والبعث حق ثابت دل عليه الكتاب والسنة وإجماع المسلمين. قال الله تعالى: {ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون} وقال النبي ﷺ يحشر الناس يوم القيامة (حفاة غرلاً). متفق عليه.

وأجمع المسلمون على ثبوته، وهو مقتضى الحكمة حيث تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادًا يجازيهم فيه على ما كلفهم به على ألسنة رسله قال الله تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون}، وقال لنبيه ﷺ: {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد}.

الثاني مما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالحساب والجزاء، يحاسب العبد على عمله ويجازي عليه، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، قال الله تعالى: {إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم} وقال: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون} وقال: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين}.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "إن الله يدني المؤمن فيضع

عليه كنفهويستره فيقول أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول نعـم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى أنه قد هلك قال قد سترتها عليك في الـدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينـادى بهم على رؤوس الخلائق {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنـة الله علـى الظالمين} ". متفق عليه. وصح عن النبي ﷺ أن من هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وأن من هم بسيئة فعملها كتبها الله سيئة واحدة".

وقد أجمع المسلمون على إثبات الحساب والجزاء علـى الأعمـال وهـو مقتضى الحكمة فإن الله تعالى أنزل الكتب وأرسل الرسل وفرض على العبـاد قبول ما جاءوا به والعمل بما يجب العمل به منه، وأوجب قتال المعارضين لـه وأحل دماءهم وذرياتهم ونساءهم وأموالهم فلو لم يكن حساب ولا جزاء لكان هذا من العبث الذي يـ ه الرب الحكيم عنه وقد أشار الله تعـالى إلى ذلـك بقوله: {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين}.

الثالث مما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالجنة والنار أنهمـا المـآل الأبدي للخلق. فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين الـذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به وقاموا بطاعة الله ورسـوله مخلصـين لله متبعين لرسوله. فيها من أنواع النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال الله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} وقال تعالى: {فلا تعلـم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}.

وأما النار فهي دار العذاب التي أعدها الله تعالى للكافرين الظالمين الـذين كفروا به وعصوا رسله، فيها من أنواع العذاب والنكال ما لا يخطر على البال قال الله تعالى: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين} وقال: {إنا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بـئس الشراب وساءت مرتفقا} وقال تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرًا خالدين فيها أبدًا لا يجدون وليًا ولا نصيرًا يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا}.

11*ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مثل:

أ- فتنة القبر: وهي سؤال الميت بعد دفنه عن ربه ودينه ونبيه فيثبـت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيـي محمـد ﷺ، ويضل الله الظالمين فيقول الكافر هـاه هـاه لا أدري، ويقـول المنـافق أو المرتاب(1) لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

ب- عذاب القبر ونعيمه: فأما عذاب القبر فيكون للظالمين من المنـافقين والكافرين، قال الله تعالى: {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولـون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون} وقال تعـالى في آل فرعـون: {النار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعـون أشد العذاب}. وفي صحيح مسلم من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال: "فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ثم أقبل بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار قالوا: نعوذ بالله من عذاب

---

(1) او للشك من الراوي كما في الصحيحين.

النار فقال: تعوذوا بالله من عذاب القبر، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها ومابطن قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.

وأما نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين قال الله تعالى: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} وقال تعالى: {فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون. فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين. فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم}. إلى آخر السورة.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في المؤمن إذا أجاب الملكين في قبره: ينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره. رواه أحمد وأبو داود في حديث طويل.

وللإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة منها:

الأولى: الرغبة في فعل الطاعة والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم.

الثانية: الرهبة من فعل المعصية والرضى بها خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

الثالثة: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

وقد أنكر الكافرون البعث بعد الموت زاعمين أن ذلك غير ممكن وهذا الزعم باطل دل على بطلانه الشرع والحس والعقل.

- أما من الشرع فقد قال الله تعالى: {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل

بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم وذلك على الله يسير}، وقد اتفقت جميع الكتب السماوية عليه.

- وأما الحس فقد أرى الله عباده إحياء الموتى في هذه الدنيا، وفي سورة البقرة خمسة أمثلة على ذلك وهي:

المثال الأول: قوم موسى حين قالوا له لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأماتم الله تعالى ثم أحياهم وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: {وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون}.

المثال الثاني: في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها ليخبرهم بمن قتله، وفي ذلك يقول الله تعالى: {وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون}.

المثال الثالث: في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف فأماتم الله تعالى ثم أحياهم وفي ذلك يقول الله تعالى {ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله لهم موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون}.

المثال الرابع: في قصة الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى فأماته الله تعالى مائة سنة ثم أحياه وفي ذلك يقول الله تعالى: {أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتا فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يومًا أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه(1) وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية

---

(1) لم يتغير.

للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحمًا فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير}.

المثال الخامس: في قصة إبراهيم الخليل حين سأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير ويفرقهن أجزاء على الجبال التي حوله ثم يناديهن فتلتئم الأجزاء بعضها إلى بعض ويأتين إلى إبراهيم سعيًا وفي ذلك يقول الله تعالى: {وإذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم}.

فهذه أمثلة حسية واقعة تدل على إمكان إحياء الموتى. وقد سبق الإشارة إلى ما جعله الله تعالى من آيات عيسى بن مريم في إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى.

وأما دلالة العقل على إمكان البعث فمن وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى فاطر السموات والأرض وما فيهما خالقهما ابتداء والقادر على ابتداء الخلق لا يعجزه عن إعادته، قال الله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه} وقال تعالى: {كما بدأنا أ ول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين} وقال آمرًا بالرد على من أنكر إحياء العظام وهي رميم: {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم}.

الثاني: أن الأرض تكون ميتة هامدة ليس فيها شجرة خضراء فيـ ل عليها المطر فتهتز خضراء حية فيها من كل زوج بهيج والقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأموات قال الله تعالى: {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل

شيء قدير}.

وقال تعالى: {ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج}.

وقد ضل قوم من أ هل الزيغ فأنكروا عذاب القبر ونعيمه زاعمين أن ذلك غير ممكن لمخالفة الواقع، قالوا فإنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق.

وهذا الزعم باطل بالشرع والحس والعقل:

أما الشرع فقد سبقت النصوص الدالة على ثبوت عذاب القبر ونعيمه في فقرة (ب) مما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر.

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما وذكر الحديث وفيه أن أحدهما كان لا يستتر من البول وفي رواية من بوله وأن الآخر كان يمشي بين الناس بالنميمة.

وأما الحس فإن النائم يرى في منامه أنه كان في مكان فسيح بيج يتنعم فيه أو أنه كان في مكان ضيق موحش يتألم منه وربما يستيقظ أحيانًا مما رأى ومع ذلك فهو على فراشه في حجرته على ما هو عليه. والنوم أخو الموت ولهذا سماه الله تعالى وفاة قال الله تعالى: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى}.

وأما العقل فإن النائم في منامه يرى الرؤيا الحق المطابقة للواقع وربما رأى النبي ﷺ على صفته ومن رآه على صفته فقد رآه حقًا ومع ذلك فالنائم في حجرته على فراشه بعيدًا عما رأى فإذا كان هذا ممكنًا في أحوال الدنيا أفلا

يكون ممكنًا في أحوال الآخرة؟.

وأما اعتمادهم فيما زعموا على أنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق، فجوابه من وجوه منها:

الأول: أنه لا تجوز معارضة ما جاء به الشرع بمثل هذه الشبهات الداحضة التي لو تأمل المعارض بما ما جاء به الشرع حق التأمل لعلم بطلان هذه الشبهات.

وقد قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحًا وآفته من الفهم السقيم .

الثاني: أن أحوال البرزخ من أمور الغيب التي لا يدركها الحس ولو كانت تدرك بالحس لفاتت فائدة الإيمان بالغيب ولتساوى المؤمنون بالغيب والجاحدون في التصديق بما.

الثالث: أن العذاب والنعيم وسعة القبر وضيقه إنما يدركها الميت دون غيره وهذا كما يرى النائم في منامه أنه في مكان ضيق موحش أو في مكان واسع بيج وهو بالنسبة لغيره لم يتغير منامه هو في حجرته وبين فراشه وغطائه. ولقد كان النبي ﷺ يوحى إليه وهو بين أصحابه فيسمع الوحي ولا يسمعه الصحابة وربما يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه والصحابة ولا يرون الملك ولا يسمعونه.

الرابع: أن إدراك الخلق محدود بما مكنهم الله تعالى من إدراكه ولا يمكن أن يدركوا كل موجود فالسموات السبع والأرض ومن فيهن وكل شيء يسبح بحمد الله تسبيحًا حقيقيًا يُسمعه الله تعالى من شاء من خلقه أحيانًا ومع ذلك هو محجوب عنا وفي ذلك يقول الله تعالى: {تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} وهكذا الشياطين والجن يسعون في الأرض ذهابًا وإيابًا وقد

حضرت الجن إلى رسول الله ﷺ واستمعوا لقراءته وأنصتوا وولوا إلى قـومهم منذرين ومع هذا فهم محجوبون عنا وفي ذلك يقول الله تعالى: {يـابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يـ ع عنهما لباسهما ليريهمـا سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أوليـاء للذين لا يؤمنون} وإذا كان الخلق لا يدركون كل موجود فإنه لا يجـوز أن ينكروا ما ثبت من أمور الغيب ولم يدركوه.

الإيمان بالقدر

القدر بفتح الدال: تقدير الله تعالى للكائنات حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته.

والإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن الله تعالى علم بكل شيء جملة وتفصيلاً أزلاً وأبدًا سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده.

الثاني: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ وفي هـذين الأمـرين يقول الله تعالى: {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلـك في كتاب إن ذلك على الله يسير}. وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بـن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقـادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

الثالث: الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعـالى سـواء كانت مما يتعلق بفعله أو مما يتعلق بفعل المخلوقين، قال الله تعالى فيما يتعلـق بفعله: {وربك يخلق ما يشاء ويختار} وقال: {ويفعل ما يشاء} وقال: {هـو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء} وقال تعـالى فيمـا يتعلـق بفعـل المخلوقين: {ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم} وقال: {ولو شاء الله ما

فعلوه فذرهم وما يفترون}.

الرابع: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله تعالى بذواتها وصفاتها وحركاتها قال الله تعالى: {الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل} وقال: {وخلق كل شيء فقده تقديرًا} وقال عن نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه: {والله خلقكم وما تعملون}.

والإيمان بالقدر على ما وصفنا لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة عليها، لأن الشرع والواقع دالان على إثبات ذلك له.

أما الشرع فقد قال الله تعالى في المشيئة: {فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا} وقال: {فأتوا حرثكم أنى شئتم} وقال في القدرة: {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعو} وقال: {لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت}.

وأما الواقع: فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدرة بما يفعل وبما يترك، ويفرق بين ما يقع بإرادته كالمشي وما يقع بغير إرادته كالارتعاش، لكن مشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله تعالى وقدرته لقول الله تعالى: {لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين}. ولأن الكون كله ملك لله تعالى فلا يكون في ملكه شيء بدون علمه ومشيئته.

والإيمان بالقدر على ما وصفنا لا يمنح العبد حجة على ما ترك من الواجبات أو فعل من المعاصي وعلى هذا فاحتجاجه به باطل من وجوه:

الأول: قوله تعالى: {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون} ولو كان لهم حجة بالقدر ما أذاقهم الله بأسه.

الثاني: قوله تعالى: {رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا} ولو كان القدر حجة للمخالفين لم تنتف بإرسال الرسل لأن المخالفة بعد إرسالهم واقعة بقدر الله تعالى.

الثالث: ما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة. فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: لا اعملوا فكل ميسر، ثم قرأ {فأما من أعطى واتقى} الآية. وفي لفظ لمسلم: فكل ميسر لما خلق له، فأمر النبي ﷺ بالعمل ونهى عن الاتكال على القدر.

الرابع: أن الله تعالى أمر العبد ونهاه ولم يكلفه إلا ما يستطيع، قال الله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} وقال: {لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها} ولو كان العبد مجبرًا على الفعل لكان مكلفًا بما لا يستطيع الخلاص منه وهذا باطل ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل أو نسيان أو إكراه، فلا إثم عليه لأنه معذور.

الخامس: أن قدر الله تعالى سر مكتوم لا يُعلم به إلا بعد وقوع المقدور وإرادة العبد لما يفعله سابقة على فعله فتكون إرادته الفعل غير مبنية على علم منه بقدر الله وحينئذ تنتفي حجته بالقدر إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

السادس: أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه من أمور دنياه حتى يدركه ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمه ثم يحتج على عدوله بالقدر، فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر؟ أفليس شأن الأمرين واحدًا ؟.

وإليك مثالاً يوضح ذلك: لو كان بيدي الإنسان طريقان أحدهما ينتهي به إلى بلد كلها فوضى، قتل ونهب وانتهاك للأعراض وخوف وجوع، والثاني

ينتهي به إلى بلد كلها نظام وأمن مستتب وعيش رغيد واحترام للنفوس والأعراض والأموال، فأي الطريقين يسلك؟ إنه سيسلك الطريق الثاني الذي ينتهي به إلى بلد النظام والأمن ولا يمكن لأي عاقل أبدًا أن يسلك طريق بلد الفوضى والخوف ويحتج بالقدر، فلماذا يسلك في أمر الآخرة طريق النار دون طريق الجنة ويحتج بالقدر؟

ومثال آخر: نرى المريض يؤمر بالدواء فيشربه ونفسه لا تشتهيه، وينهى عن الطعام يضره فيتركه ونفسه تشتهيه كل ذلك طلبًا للشفاء والسلامة، ولا يمكن أن يمتنع عن شرب الدواء أو يأكل الطعام الذي يضره ويحتج بالقدر فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله به ورسوله أو يفعل ما نهى الله عنه ورسوله ثم يحتج بالقدر؟.

السابع: أن المحتج بالقدر على ما تركه من الواجبات أو فعله من المعاصي لو اعتدى عليه شخص فأخذ ماله أو انتهك حرمته ثم احتج بالقدر وقال لا تلمني فإن اعتدائي كان بقدر الله، لم يقبل حجته. فكيف لا يقبل الاحتجاج بالقدر في اعتداء غيره عليه ويحتج به لنفسه في اعتدائه على حق الله تعالى؟.

ويذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رُفع إليه سارق استحق القطع فأمر بقطع يده فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنما سرقت بقدر الله فقال عمر: ونحن إنما نقطع بقدر الله.

وللإيمان بالقدر ثمرات جليلة منها:

الأولى: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب بحيث لا يعتمد على السبب نفسه لأن كل شيء بقدر الله تعالى.

الثانية: أن لا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده لأن حصوله نعمة من الله تعالى بما قدره من أسباب الخير والنجاح وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه

النعمة.

الثالثة: الطمأنينة والراحة النفسية بما يجري عليه من أقدار الله تعالى فلا يقلق بفوات محبوب أو حصول مكروه لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السموات والأرض وهو كائن لا محالة وفي ذلك يقول الله تعالى: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور}.

ويقول النبي ص : عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له.. رواه مسلم.

وقد ضل في القدر طائفتان:

إحداهما: الجبرية الذين قالوا إن العبد مجبر على عمله وليس له فيه إرادة ولا قدرة.

الثانية: القدرية الذين قالوا إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر.

والرد على الطائفة الأولى (الجبرية) بالشرع والواقع:

أما الشرع فإن الله تعالى أثبت للعبد إرادة ومشيئة وأضاف العمل إليه قال الله تعالى: {منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة} وقال: {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا الظالمين نارًا أحاط بم سرادقها}. الآية. وقال: {من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد}.

وأما الواقع فإن كل إنسان يعلم الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها

بإرادته كالأكل والشرب والبيع والشراء وبين ما يقع عليه بغير إرادته كالارتعاش من الحمى والسقوط من السطح فهو في الأول فاعل مختار بإرادته من غير جبر وفي الثاني غير مختار ولا مريد لما وقع عليه.

والرد على الطائفة الثانية (القدرية) بالشرع والعقل:

أما الشرع: فإن الله تعالى خالق كل شيء وكل شيء كائن بمشيئته، وقد بين الله تعالى في كتابه أن أفعال العباد تقع بمشيئته فقال تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد}. وقال تعالى: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}.

وأما العقل: فإن الكون كله مملوك لله تعالى والإنسان من هذا الكون فهو مملوك لله تعالى ولا يمكن للمملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته.

****

المرتبة الثالثة

قوله: "الإحسان ركن واحد"

"الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته" (1).

"وقد جاء الإحسان في القرآن في مواضع كثيرة، تارة مقترنًا بالإيمان، وتارة بالتقوى، وتارة بهما معًا، وتارة بالجهاد، وتارة بالإسلام، وتارة بالعمل الصالح

---

(1) جامع العلوم والحكم – لابن رجب (126/1).

مطلقًا.

قال الله تبارك وتعالى: {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين} [المائدة: 93]. وقال تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} [النحل: 128].

وقال تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً} [الكهف: 30].

وقال تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين} [العنكبوت: 69].

وقال تعالى: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: 112].

وقال تعالى: {ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى} [لقمان: 22].

وتارة بالإنفاق في سبيل الله وهو من الجهاد كقوله تعالى: {وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين} [البقرة: 195].

"وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك".

هذه قطعة من حديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما حينما جاء جبريل إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام والإحسان وغير ذلك، وسيذكره المصنف قريبًا.

قال الحافظ ابن رجب "رحمه الله": "قوله ﷺ في تفسير الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه.." يشير إلى أن العبد يعبد الله على هذه الصفة، وهي

استحضار قربه، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف، والهيبة والتعظيم، كما جاء في رواية أبي هريرة "أن تخشى الله كأنك تراه".

ويوجب أيضًا النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها.." [1].

وقوله ﷺ: "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله في العبادة، واستحضار قربه من عبده، حتى كأن العبد يراه، فإنه قد يشق ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه، ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا حقق هذا المقام، سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحديق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعينه، حتى كأنه يراه.

وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه، فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه، فليستحي من نظره إليه" [2].

وقال الشيخ حافظ الحكمي "رحمه الله" - حول تفسيره ﷺ لمعنى الإحسان – قال "رحمه الله":

"وقد فسره النبي ﷺ تفسيرًا لا يستطيعه من المخلوقين أحد غيره ﷺ لما أعطاه الله تعالى من جوامع الكلم فقال ﷺ: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

أخبر ﷺ أن مرتبة الإحسان على درجتين، وأن للمحسنين في الإحسان مقامين متفاوتين:

المقام الأول – وهو أعلاهما – أن تعبد الله كأنك تراه، وهذا مقام

---

(1) جامع العلوم والحكم (126/1).

(2) المرجع السابق (128/1-129).

المشاهدة، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته الله عز وجل بقلبه، وهو أن يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان" فمن عبد الله عز وجل على استحضار قربه منه وإقباله عليه وأنه بين يديه كأنه يراه أوجب له ذلك الخشية والخوف والهيبة والتعظيم...

المقام الثاني: مقام الإخلاص، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه وإطلاعه عليه وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى، لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل.

هذا المقام هو الوسيلة الموصلة إلى المقام الأول، ولهذا أتى به النبي ﷺ تعليلاً للأول فقال: "فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وفي بعض ألفاظ الحديث "فإنك إلا تكن تراه فإنه يراك" فإذا تحقق في عبادته بأن الله تعالى يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره ولا يخفى عليه شيء من أمره، فحينئذ يسهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله تعالى من عبده ومعيته حتى كأنه يراه.

وقد ذكر تبارك وتعالى هذا المعنى في غير ما موضع من القرآن، كما قال تبارك وتعالى: {وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذا تفيضون فيه، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين. ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم} [يونس: 61:64].

وقال تبارك وتعالى {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع

إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون} [البقرة: 186]

وقال تبارك وتعالى: {وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين، إنه هو السميع العليم} [الشعراء: 217-220].

وغير ذلك من الآيات.

فأولياء الله المتقون المحسنون، هم الذين آمنوا بالله عز وجل وبإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وأفردوه بالعبادة محبة وتذللاً وانقيادا وخوفا ورجاء ورغبة ورهبة وخشية وخشوعا ومهابة وتعظيما وتوكلا عليه وافتقار إليه واستغناء به عما سواه، واتقوه بامتثال أوامره ومحبة مرضاته وترك مناهيه وموجبات سخطه سرا وعلنا، وظاهرا وباطنا قولا وعملا واعتقادا، واستشعرت قلوبهم ونفوسهم إحاطة الله عز وجل بهم علما وقدرة ولطفا وخبرة بأقوالهم ونياتهم وأسرارهم وعلانياتهم وحركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم كيف عملوا وأين عملوا ومتى عملوا فكان عملهم خالصا لله موافقا لشرعه مناطًا بما جاءت به رسله ونطقت به كتبه، مستحضرين ذلك بقلوبهم نافذة فيه بصائرهم؛ فاخلصوا لله العمل وراقبوه مراقبة من ينظر إلى ربه، لكمال علمهم بأن الله ينظر إليهم ويرى حالهم ويسمع مقالهم، فطرحوا النفوس بين يديه وأقبلوا بكليتهم عليه و التجأوا منه إليه وعاذوا به منه وأحبوه من كل قلوبهم فامتلأت بنور معرفته فلم تتسع لغيره، فبه يبصرون، وبه يسمعون، وبه يبطشون، وبه يمشون وبرؤيتهم يذكر الله تعالى، وبذكره يذكرون" (1).

والدليل قوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} [النحل: 128].

أي "والله مع المتقين المحسنين، بعونه، وتوفيقه، وتسديده، وهم الذين اتقوا

---

(1) معارج القبول (3/999-1001).

الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله، كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم.

والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه" (1).

وقوله تعالى: {وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم} [الشعراء: 217-220].

"أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه، على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال: {وتوكل على العزيز الرحيم} والتوكل هو: اعتماد القلب على الله تعالى، في جلب المنافع، ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير، ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به، يفعل ذلك.

ثم نبه على الاستعانة، باستحضار قرب الله، وال ول في مـ ل الإحسان فقال: {الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين}.

أي يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك، وتقلبك راكعًا وساجدًا، خصها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خشع وذل، وأكملها، وبتكميلها، يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره {إنه هو السميع} لسائر الأصوات، على اختلافها، وتشتتها، وتنوعها.

{العليم} الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة.

فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم، والعزم والنيات، يعينه على م لة

---

(1) تفسير السعدي (257/4).

الإحسان}[1].

{وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عملٍ إلا كنـا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه} [يونس: 61].

"يخبر تعالى عن عموم مشاهدته، واطلاعه على جميع أحـوال العبـاد، في حركاتهم، وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام فقال: {وما تكون في شأن} أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية.

{وما تتلو منه من قرآن} أي: وما تتلو من القرآن، الذي أوحاه الله إليك.

{ولا تعملون من عملٍ} صغير أو كبير {إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه} أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصـيحة والاجتـهاد فيهـا، وإياكم، وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

{وما يعزب عن ربك} أي ما يغيب عن علمه، وسمعه، وبصره، ومشاهدته {من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه" [2].

والدليل من السنة...حديث جبريل:

وقد تقدم الكلام على بعض ما تضمنه حديث جبريل من المباحث وبقـي الكلام على بعض المباحث الأخرى منها:

قول جبريل:

"فأخبرني عن الساعة، فقال النبي ﷺ "ما المسئول عنها بأعلم من السائل".

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (554/5).

(2) تيسير الكريم الرحمن (366/3).

"يعني أن علم الخلق كلهم في وقت الساعة سواء وهذا إشارة إلى أن الله تعالى استأثر بعلمها، ولهذا في حديث أبي هريرة: قال النبي ﷺ: في خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى، ثم تلا: {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير} [لقمان: 34].

وقال الله عز وجل: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة} [الأعراف: 187] "(1).

فعلم الساعة غيب لا يعلمه إلا الله تعالى، كما دلت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ فإن علم الساعة مما استأثر الله به، فلم يطلع عليه ملكًا مقرّبًا، ولا نبيًا مرسلاً، فلا يعلم أحد متى تقوم الساعة؛ إلا الله تعالى.

وروى الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: "تسألوني عن الساعة؟ وإنما علمها عند الله" (2).

قال ابن كثير: "فهذا النبي الأمي، سيد الرسل، و خاتمهم، صلوات الله عليه وسلامه، نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب، والمقفي، والحاشر، الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما: "بعثت أنا والساعة كهاتين" (3)، وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها، ومع هذا كله قد أمره الله تعالى أن

---

(1) جامع العلوم والحكم (136/1).

(2) صحيح مسلم (90/16 – مع شرح النووي).

(3) صحيح البخاري (347/11 – مع الفتح).

يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: {قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون} [الأعراف: 187] (1).

واعلم رحمني الله وإياك وأرشدني إلى ما فيه طاعته ورضاه أن بعض الناس قد تكلف ما لم يكلف فادعي أنه بالإمكان تحديد وقت الساعة بحسابات يجريها وسفسطة لا يقره العلماء عليها وليس من عاقل يرتضيها.

وهذا من التكلف وبذل العمر فيما لا طائل وراءه فإن الله عز وجل ما أخفاها إلا لحكمة، ولو كان خير للناس معرفة وقتها لأرشدنا إلى ذلك ربنا، ولبينه لنا نبينا ﷺ.

قال الشيخ محمد بن أحمد السفاريني: "ثم اعلم أن وقت مجيء الساعة مما انفرد الله بعلمه، وإنما أخفاه تعالى لأنه أصلح للعباد لئلا يتباطئوا عن التأهب والاستعداد كما أن إخفاء وقت الموت أصلح لهم وأنفع، وقد انتدب جماعة من العلماء على تعيين قربها وزمن كونها ومجيئها واستدلوا بأحاديث غير صحيحة، وما صح منها فدلالتها غير صريحة" (2).

وقال الشيخ مرعي الحنبلي في بجة الناظرين:

"كل من تكلم بشيء من ذلك فهو ظن وحسبان لا يقوم عليه برهان" (3).

وقال ابن كثير: "كل حديث ورد فيه تحديد لوقت يوم القيامة على التعيين لا يثبت إسناده" (4).

---

(1) تفسير ابن كثير (526/3).
(2) لوامع الأنوار – للسفاريني (66/2).
(3) لوامع الأنوار للسفاريني (66/2).
(4) النهاية في الفتن والملاحم (15/1).

قوله: فأخبرني عن أماراتها: يعني: عن علاماتها التي تدل على اقترابها.

"وفي حديث أبي هريرة: "وسأخبرك عن أشراطها" وفي رواية أبي فروة: "ولكن لها علامات تعرف بها"، وفي رواية سليمان التيمي: "ولكن إن شئت نبأتك عن أشراطها" قال أجل. فالأشراط والعلامات: الأمارات، جمع أمارة بالفتح، الدلالة والبرهان، على اقتراب قيامها، والمراد العلامات السابقة، وأما ما يقارنها، فكطلوع الشمس من مغربها" [1].

وتنقسم أشراط الساعة إلى قسمين:

1- أشراط صغرى: وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد؛ كقبض العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان... ونحوها،وقد يظهر بعضها مصاحبًا للأشراط الكبرى أو بعدها .

2- أشراط كبرى: وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع، كظهور الدجال،ونزول عيسى عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها[2].

وقسم بعض العلماء أشراط الساعة من حيث ظهورها إلى ثلاثة أقسام[3].

1) قسم ظهر وانقضى.

2) قسم ظهر ولازال يتتابع ويكثر.

3) قسم لم يظهر إلى الآن.

فأما القسمان الأولان، فهما من أشراط الساعة الصغرى، وأما القسم الثالث، فيشترك فيه الأشراط الكبرى وبعض الأشراط الصغرى.

---

(1) حاشية عبدا لرحمن بن قاسم ص (72).

(2) انظر التذكرة للقرطبي ص (624)، فتح الباري (485/13).

(3) انظر فتح الباري (13/83-84)، ولوامع الأنوار البهية (66/2).

ومما ينبغي أن يعلم أن كثيرًا من أشراط الساعة قد ظهرت مبادئها من عهد الصحابة رضي الله عنهم، وهي في ازدياد، ثم صارت تكثر في بعض الأماكن دون بعض، والذي يعقبه قيام الساعة هو استحكام ذلك، فيكون مثلاً في بعض العلم لا يقابله إلا الجهل الصرف، ولا يمنع من ذلك وجود طائفة من أهل العلم؛ لأنهم يكونون حينئذ مغمورين في أهل الجهل، وقس عليه غيره من أشراط الساعة(1).

ومما ينبغي التنبيه عليه أيضًا أن بعض الناس يفهم من كون الشيء من أشراط الساعة أنه محذور وممنوع. وهذه القاعدة غير مسلمة؛ فإنه ليس كل ما أخبر ﷺ بكونه من علامات الساعة يكون محرمًا، أو مذمومًا، فإن تطاول الرعاء في البنيان، وفشو المال، وكون خمسين امرأة لهن قيم واحد ليس بحرام بلا شك، وإنما هذه علامات، والعلامة لا يشترط فيها شيء من ذلك، بل تكون بالخير والشر، والمباح، والمحرم، والواجب، وغيره، والله أعلم(2).

وكما قدمنا أن الساعة من أمر الغيب لا يعلمها إلا الله فكذلك أشراطها لا يعلم تعيين زمان وقوعها إلا الله، ومن حدد زمان شيء منها وحاج غيره في ذلك فلا تشغل نفسك به وانصحه بأن يقبل على شأنه.

قال القرطبي: "إن ما أخبر به النبي ﷺ من الفتن والكوائن أن ذلك يكون، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا، يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر، وإنما ذلك كوقت قيام الساعة، فلا يعلم أحد أي سنة هي، ولا أي شهر .

أما أنها تكون في يوم الجمعة في آخر ساعة منه، وهي الساعة التي خلق الله فيها آدم عليه السلام، ولكن أي جمعة، لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلا الله وحده

---

(1) انظر فتح الباري (16/13).

(2) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (159/1) .

لا شريك له، وكذلك ما يكون من الأشراط تعيين الزمان لها لا يعلـم، والله أعلم "(1).

قوله: "أن تلد الأمة ربتها".

وفي رواية لمسلم "إذا ولدت الأمة ربها".

وهي إحدى أمارات الساعة وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أمارتـان وقد اختلف العلماء في معنى هذه العلامة على عدة أقوال ذكر الحافظ ابـن حجر منها أربعة أقوال:

1- قال الخطابي: "معناه اتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الشـرك وسبي ذراريهم، فإذا ملك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمـنزلة ربها لأنه ولد سيدها" (2).

وذكر النووي أن هذا القول قول الأكثرين من العلماء(3).

قال ابن حجر: "لكن في كونه المراد نظر، لأن استيلاء الإماء كان موجودًا حين المقالة، والاستيلاء على بلاد الشرك وسبي ذراريهم واتخاذهم سـراري وقع أكثره في صدر الإسلام، وسياق الكلام يقتضي الإشارة إلى وقوع مـا لم يقع مما سيقع قرب قيام الساعة" (4).

2- أن تبيع السادة أمهات أولادهم، ويكثر ذلـك، فيتـداول المـلاك المستولدة حتى يشتريها أولادها ولا يشعر بذلك.

3- أن تلد الأمة حرًا من غير سيدها بوطء شبهة، أو رقيقًا بنكاح أو زنا

---

(1) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص (628).

(2) الفتح (122/1) وهو في معالم السنن (67/7).

(3) شرح النووي على مسلم (158/1).

(4) فتح الباري (149/1).

ثم تباع الأمة في الصورتين بيعا صحيحا، وتدور في الأيدي، حتى يشتريها ابنها أو ابنتها، وهذا من نمط القول الذي قبله.

4- أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته؛ من الإهانة بالسب، والضرب، والاستخدام، فأطلق عليه ربا مجازا، أو المراد بالرب: المربي حقيقة.

ثم قال ابن حجر: وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون – مع كونها تدل على فساد الأحوال – مستغربة، ومحصلة الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور، بحيث يصير المربي مربيًا، والسافل عالياً، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى: أن تصير الحفاة ملوك الأرض(1).

قوله "وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان".

هذه هي العلامة الثانية المذكورة في الحديث قال الحافظ ابن رجب: "والمراد بالعالة: الفقراء كقوله تعالى {ووجدك عائلاً فأغنى} [الضحى: 8].

وقوله: "رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، والمراد أن أسافل الناس يصيرون رؤساءهم، وتكثر أموالهم حتى يتباهون بطول البنيان وزخرفته وإتقانه" (2).

قال الحافظ ابن حجر: "ومعنى التطاول في البنيان أن كلاً ممن كان يبني بيتًا يريد أن يكون ارتفاعه أعلى من ارتفاع الآخر، ويحتمل أن يكون المراد المباهاة به في الزينة والزخرفة، أو أعم من ذلك، وقد وجد الكثير من ذلك، وهو في ازدياد" (3).

---

(1) فتح الباري (150/149/1) باختصار.

(2) جامع العلوم والحكم (137/1).

(3) فتح الباري (150/1).

قال الحافظ ابن رجب: وفي قوله: يتطاولون في البنيان دليل على ذم التباهي والتفاخر، خصوصا بالتطاول في البنيان[1]".

قال ابن رجب:

"ومضمون ما ذكر من أشراط الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أن الأمور تُوَسدُ إلى غير أهلها، كما قال النبي ﷺ لمن سأله عن الساعة: "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[2]، فإنه إذا صار الحفاة العراة رعاء الشاء، وهم أهل الجهل والجفاء – رؤوس الناس، وأصحاب الثروة والأموال، حتى يتطاولوا في البنيان، فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا، فإنه إذا رأس الناس من كان فقيرًا عائلا، فصار ملكا على الناس، سواء كان ملكه عاما أو خاصا في بعض الأشياء، فإنه لا يكاد يعطي الناس حقوقهم، بل يستأثر عليهم بما استولى عليه من المال، فقد قال بعض السلف: "لأن تمد يدك إلى فم التنين، فيقضمها، خير لك من أن تمدها إلى يد غني قد عالج الفقر"[3].

وإذا كان مع هذا جاهلاً جافيا، فسد بذلك الدين، لأنه لا يكون له همة في إصلاح دين الناس ولا تعليمهم، بل همته في جباية المال واكتنازه، ولا يبالي بما فسد من دين الناس ولا بمن ضاع من أهل حاجاتم.

إذا صار ملوك الناس رؤوسهم على هذه الحال، انعكست سائر الأحوال، فصُدق الكاذب، وكُذب الصادق، وائتمن الخائن، وخون الأمين، وتكلم الجاهل وسكت العالم، أو عدم بالكلية، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: "إن

---

(1) جامع العلوم والحكم (141/1).

(2) رواه البخاري (59) من حديث أبي هريرة.

(3) القائل هو سفيان الثوري وقوله هذا قد رواه أبو نعيم في الحلية (22/7-23).

من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل" (1) وأخبر: أنه يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا فـأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا(2).

وقال الشعبي : لا تقوم الساعة حتى يصير العلم جهلاً والجهل علما.

وهذا كله من انقلاب الحقائق في آخر الزمان وانعكاس الأمور" (3).

قوله: "فمضى فلبثنا مليا".

"مليا: بتشديد الياء معناه: وقتا طويلا" (4).

قوله: "هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم" "فيـه أن الإيمـان والإسـلام والإحسان تسمى كلها دينا" (5).

قال النووي رحمه الله:

"اعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعا مـن العلـوم والمعـارف والآداب و اللطائف، بل هو أصل الإسلام" (6).

قال القرطبي: هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة لما تضمنه من جمـل علم السنة.

وقال القاضي عياض: اشتمل هذا الحديث على جميع وظـائف العبـادات

---

(1) رواه البخاري (80)، ومسلم (2671)، وأحمد (98/3) من حديث أنس.

(2) رواه البخاري (100)، ومسلم (2673)، وأحمد (162/2) من حديث عبدالله بن عمرو.

(3) جامع العلوم والحكم (139/1-140).

(4) شرح مسلم للنووي (160/1).

(5) المرجع السابق.

(6) المرجع السابق.

الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداء وحالا ومئآلا ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه" [(1)].

قال الحافظ ابن رجب بعد أن تكلم على ما تضمنه حديث جبريل من المباحث:

"فمن تأمل ما أشرنا إليه مما دل عليه هذا الحديث العظيم، علم أن جميع العلوم والمعارف ترجع إلى هذا الحديث وتدخل تحته، وأن جميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث، وما دل عليه مجملاً ومفصلا، فإن الفقهاء إنما يتكلمون في العبادات التي هي من جملة خصال الإسلام، ويضيفون إلى ذلك الكلام في أحكام الأموال والأبضاع والدماء، وكل ذلك من علم الإسلام كما سبق التنبيه عليه، ويبقى كثير من علم الإسلام من الآداب والأخلاق وغير ذلك لا يتكلم عليه إلا القليل منهم، ولا يتكلمون على معنى الشهادتين، وهما أصل الإسلام كله.

والذين يتكلمون في أصول الديانات يتكلمون على الشهادتين، وعلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر.

والذين يتكلمون على علم المعارف والمعاملات يتكلمون على مقام الإحسان، وعلى الأعمال الباطنة التي تدخل في الإيمان أيضًا، كالخشية والمحبة، والتوكل، والرضا، والصبر، ونحو ذلك، فانحصرت العلوم الشرعية التي يتكلم عليها فرق المسلمين في هذا الحديث، ورجعت كلها إليه، ففي هذا الحديث وحده كفاية، ولله الحمد والمنة" [(2)].

---

(1) فتح الباري (152/1).

(2) جامع العلوم والحكم (134/1-135).

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم :

- "قوله ﷺ "ما المسئول عنها بأعلم من السائل" فيه أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم وأن ذلك لا ينقصه بل فيه أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم وأن ذلـك لا ينقصه بل يستدل به على ورعه وتقواه ووفور علمه" (1).

- وأنه ينبغي لمن حضر مجلس العالم إذا علم بأهل المجلس حاجة إلى مسئلة لا يسألون عنها أن يسأل هو عنها، ليحصل الجواب للجميع.

- وفيه أنه ينبغي للعالم أن يرفق بالسائل ويدنيه منه ليتمكن من سؤاله غير هائب ولا منقبض.

- وأنه ينبغي للسائل أن يرفق في سؤاله" (2).

- قال ابن المنير: "في قوله: "يعلمكم دينكم" دلالة على أن السؤال الحسن يسمى علما وتعليما، لأن جبريل لم يصدر منه سوى السؤال، ومع ذلك فقـد سماه معلما، وقد اشتهر قولهم: حسن السؤال نصف العلم" (3).

---

(1) شرح النووي على مسلم (158/1).

(2) المرجع السابق (160/1).

(3) المرجع السابق (152/1).

الأصل الثالث

معرفة نبيكم محمد

صلى الله عليه وسلم

*الأصل الثالث

معرفة نبيكم محمد ﷺ

وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

هذا هو الأصل الثالث من أصول الدين الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها والتي سطر المؤلف هذه الرسالة المباركة لتوضيحها وتبيين معانيها ومراميها.

"فمعرفة نبينا محمد ﷺ هي أحد هذه الأصول الثلاثة، فكما أن الأصل الأول، وهو معرفة الله العظيم، وواجب معرفته، وكذلك الأصل الثاني، وهو معرفة دين الإسلام، الذي خلقنا الله له، وتعبدنا بالقيام به، أصل عظيم وواجب معرفته، فكذلك هذا الأصل الثالث، وهو معرفة نبينا محمد ﷺ، أصل عظيم يجب معرفته فإنه ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله تعالى، ولا وصول لنا، ولا اطلاع لنا، ولا طريق لنا، ولا نعرف ما ينجينا، من غضب الله وعقابه، ويقربنا من رضي الله وثوابه، إلا بما جاء به نبينا محمد ﷺ.

وإذا كان كذلك، عرفنا وجه كون معرفته، أحد الأصول الثلاثة، التي يجب معرفتها، فإنا لا نعرف الأصل الأول، الذي هو معرفة الرب جل جلاله ولا الأصل الثاني، الذي هو دين الإسلام، إلا بالواسطة بيننا وبين الله، فتحتمت معرفته ص ، وصارت أصلاً ثالثًا، إذ لا يمكن معرفة المرسل، إلا بمعرفة رسوله، فصار من الضروريات معرفة الرسول ﷺ، وبذلك ظهر، أن معرفته ﷺ، أحد الأصول الثلاثة ومعرفته تنتظم أشياء عديدة: منها معرفة اسمه، ونسبه وعمره، وبقائه في الدنيا، ووفاته، ومعرفة ما نبيء به، وما أرسل به، وبلده، ومهاجره،

ومنها –وهو أعظمها- معرفة ما بعث به، وغير ذلك، مما ذكر المصنف وغيره" (1).

"وهو خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك أبو سفيان بين يدي ملك الروم(2)، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيله، وأشرف الأفخاذ فخذه.

فهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، بن هاشم، بن عبدمناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان.

إلى هاهنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف فيه البتة، وما فوق "عدنان" مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن "عدنان" من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل. هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم" (3).

والمقصود أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم أخرجه الله تعالى من أوسط العرب نسبًا وأكرمهم حسبًا ، وأعلاهم كعبًا، وأعظمهم جرثومة(4)، وأشرفهم أصلاً وأطيبهم فرعًا (5)وقد روى الإمام مسلم - رحمه الله - عن

---

(1) حاشية ابن قاسم ص(75).

(2) جاء في حديث أبي سفيان الطويل في "صحيح البخاري" (32/1): "ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب".

(3) زاد المعاد – لابن القيم ص (71/1).

(4) جرثومة الشيء : أصله .

(5) معارج القبول (1050/3) .

واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال سمعت رسـول الله ص يقـول : "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم "(1)

"وقد كان له ﷺ عدة أسماء، أشهرها محمد، ولهذا جاء في القـرآن بـذا الاسم، على وجه التنويه، كما في قوله تعالى: {ما كان محمد أبا أحـد مـن رجالكم} [ ]، {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبلـه الرسـل} [ ]، {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار} [ ] فهذا أشهر أسمائه ﷺ ومعناه: الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره، وهو علم مشتق من التحميد، ولما فيه من الخصال الحميدة" (2).

قال ابن القيم: "وكلها نعوت ليست أعلاما محضة لمرد التعريف، بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال، فمنها: محمـد، وهـو أشهرها... ومنها أحمد، وهو الاسم الذي سماه به المسيح... ومنها: المتوكـل، ومنها: الماحي، والحاشر، والعاقب، والمقفي، ونبي التوبة، ونبي الرحمة، ونـبي الملحمة، والفاتح، والأمين.

ويلحق بذه الأسماء: الشاهد، و المبشر، والبشير، والسراج المنير، وسـيد ولد آدم، وصاحب لواء الحمد، وصاحب المقام المحمود، وغـير ذلـك مـن الأسماء، لأن أسماءه، إذا كانت أوصاف مدح، فله من كل وصف اسم، لكن ينبغي أن يفرق بين الوصف المختص به، أو الغالب عليه، ويشتق له منه اسم، وبين الوصف المشترك، فلا يكون له منه اسم يخصه.

وقال جبير بن مطعم: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، فقال: "أنا محمد،

---

(1) صحيح مسلم (1782/4) رقم (2276) .

(2) حاشية ابن القاسم ص(77).

وأنا أحمد ،وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، والعاقب، الذي ليس بعده نبي" (1).

وأسماؤه ﷺ نوعان:

أحدها: خاص لا يشاركه فيه غيره من الرسل، كمحمد، وأحمد، والعاقب، والحاشر، والمقفي، ونبي الملحمة.

والثاني: ما يشاركه في معناه غيره من الرسل، ولكن له منه كماله، فهو مختص بكماله دون أصله، كرسول الله، ونبيه، وعبده، والشاهد، والمبشر، والنذير، ونبي الرحمة، ونبي التوبة.

وأما إن جعل له من كل وصف من أوصافه اسم، تجاوزت أسماؤه المائتين، كالصادق، والمصدوق، والرؤوف الرحيم، إلى أمثال ذلك"(2).

وله من العمر ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة وثلاث وعشرون نبيا رسولا.

قال ابن القيم رحمه الله:

"لا خلاف أنه ولد ﷺ بجوف مكة، وأن مولده كان عام الفيل، وكان أمر الفيل تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيرًا من دين أهل مكة إذ ذاك، لأنهم كانوا عباد أوثان، فنصرهم الله على أهل الكتاب نصرا لا صنع للبشر فيه، إرهاصا وتقدمة للنبي ﷺ الذي خرج من مكة، وتعظيما للبيت الحرام.

---

(1) أخرجه البخاري (492/8)، ومسلم (2354)، والترمذي (2842) وأحمد في المسند (80/4).

(2) زاد المعاد (86/1-88). وللاطلاع على مزيد كلام في أسمائه ومعانيها ينظر زاد المعاد (89/1) وما بعدها، و جلاء الأفهام

واختلف في وفاة أبيه عبدالله، هل توفي ورسول الله صص حمل، أو توفي بعد ولادته؟ على قولين: أصحهما: أنه توفي ورسول الله ﷺ حمل.

والثاني: أنه توفي بعد ولادته بسبعة أشهر.

ولا خلاف أن أمه ماتت بين مكة والمدينة "بالأبواء" [1] منصرفها من المدينة من زيارة أخواله، ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين.

وكفله جده عبدالمطلب، وتوفي ولرسول الله ﷺ نحو ثمان سنين، وقيل: ست، وقيل عشر، ثم كفله عمه أبوطالب، واستمرت كفالته له، فلما بلغ ثنتي عشرة سنة، خرج به عمه إلى الشام، وقيل: كانت سنه تسع سنين، وفي هذه الخرجة رآه بحيرى الراهب[2]، وأمر عمه ألا يقدم به إلى الشام خوفا عليه من اليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة....

فلما بلغ خسما وعشرين سنة، خرج إلى الشام في تجارة، فوصل إلى "بصرى" [3].

ثم رجع، فتزوج عقب رجوعه خديجة بنت خويلد، وقيل تزوجها وله ثلاثون سنة، وقيل إحدى وعشرون، وسنها أربعون، وهي أول امرأة تزوجها، وأول امرأة ماتت من نسائه، ولم ينكح عليها غيرها، وأمره جبريل أن يقرأ عليها السلام من ربها[4].

---

(1) هي قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

(2) قصة بحيرى في إسنادها مقال فلتراجع في السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري.

(3) بصري على وزن حبلى تقع جنوب شرقي دمشق، تبعد عنها 124كم وهي قصبة كورة حوران.

(4) أخرج البخاري في صحيحه (150/7) من حديث أبي هريرة قال: "أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك،

ثم حبب الله إليه الخلوة، والتعبد لربه، وكان يخلو بـ "غار حراء" يتعبد فيه الليالي ذوات العدد[1]، وبغضت إليه الأوثان ودين قومه، فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك.

فلما كمل له أربعون، أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده.

ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين، واختلف في شهر المبعث. فقيل لثمان مضين من ربيع الأول، سنة إحدى وأربعين من عام الفيل، هذا قول الأكثرين.

وقيل بل كان ذلك في رمضان، واحتج هؤلاء بقوله تعالى {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن} [البقرة: 185] قالوا: أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته، أنزل عليه القرآن، وإلى هذا ذهب جماعة، منهم يحيى الصرصري[2] حيث يقول في نونيته:

وأتت عليه أربعون فأشرقت /

فاقرأ عليها السلام من ربا ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب".

(1) هو قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري (21/1) ومسلم (160) من حديث عائشة قال: أو ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جائت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه – وهو التعبد الليالي ذوات العدد....

(2) هو الشيخ جمال الدين أبوزكريا يحيى بن يوسف بن يحيى الصرصري نسبة إلى صرصر قرية على فرسخين من بغداد العلامة الحافظ اللغوي، كان إليه المنتهى في معرفة اللغة وحسن الشعر، وديوانه ومدائحه سائرة، يشبه في عصره بحسان، قتله التتار يوم دخلوا بغداد سنة 656 هـ "شذرات الذهب" (285/5).

شمس النبوة منه في رمضان

والأولون قالوا: إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة. ثم أنزل منجمًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

وقالت طائفة: أنزل فيه القرآن، أي في شأنه وتعظيمه، وفرض صومه، وقيل: كان ابتداء المبعث في شهر رجب.

وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته" (1).

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا(2).

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد(3) وحتى إن راحلته

---

(1) أخرجه أبونعيم في الحلية (26،27/10) من حديث أبي أمامة، وأورده الهيثمي في "المجمع" (72/4) وعزاه للطبراني في "الكبير" وقال: فيه عفير بن معدان وهو ضعيف، وللحديث شواهد صححه با محققا "الزاد" فلتنظر فيه (79/1).

(2) ومن ذلك حديث عمر في صحيح مسلم (8) في أول كتاب الإيمان وفيه أن النبي ﷺ قال يا عمر أتدري من السائل، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".

(3) أخرج أحمد (158/6)، ومالك (202/1)، والبخاري (20/1)، ومسلم (2333)،

لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها[1] ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها[2].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم [النجم: 7، 13] [3].

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

والنسائي (146/2)، والترمذي (3638) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده على، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول". قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا".

(1) أخرج أحمد (118/6) من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته، وضعت جرانها، فلم تستطع أن تتحرك" وكذا رواه الحاكم (505/2) وصححه ووافقه الذهبي.

(2) أخرج البخاري (196/8) من حديث زيد بن ثابت أن النبي ﷺ أملى عليه {لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله} فجاء ابن أم مكتوم وهو يملها علي، قال: يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله {غير أولي الضرر}.

(3) أخرج مسلم في صحيحه (177) عن عائشة أن النبي ﷺ قال: "لم أره – يعني جبريل – على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطًا من السماء سادًا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض". وللترمذي (3274) من طريق مسروق عن عائشة: لم ير محمد جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد".

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء" (1).

نبيء بإقراء، وأرسل بالمدثر، وبلده مكة بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعوا إلى التوحيد، والدليل قوله تعالى:

{يا أيها المدثر قم فأنذر، وربك فكبر وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر} [المدثر: 7].

قوله: "نبيء بإقراء" أي بسورة {إقرأ باسم ربك الذي خلق} [العلق: 1].

"فهذه السورة هي أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ فإنها نزلت في مبادىء النبوة، إذ كان لا يدري، ما الكتاب ولا الإيمان.

فجاءه جبريل عليه السلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ، فاعتذر وقال: "ما أنا بقاريء". فلم يزل به حتى قرأ.

فأنزل الله {اقرأ باسم ربك الذي خلق} عموم الخلق، ثم خص الإنسان، واعتنى بتدبيره، لابد أن يدبر بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسل، وإنزال الكتب" (2).

قوله: "وأرسل بالمدثر"

روى الإمام البخاري "رحمه الله" في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها أنا قالت: "أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد – الليالي ذوات العدد، قبل أن

---

(1) زاد المعاد (1/76-80).

(2) تيسير الكريم الرحمن (7/650).

يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقاريء، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم} فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع" (1).

قال ابن شهاب، وأخبرني أبو سلمة بن عبدالرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال – وهو يحدث عن فترة الوحي – فقال في حديثه:

"بينا أنا أمشي، إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى {يا أيها المدثر، قم فأنذر} – إلى قوله – {والرجز فاهجر} فحمي الوحي وتتابع" (2).

وفي رواية فقلت: "دثروني" (3).

وبلده مكة

بعثه الله بالنذارة عن الشرك ،ويدعوا ألى التوحيد والدليل قوله تعالى : { يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبلر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر } [المدثر 1-7]

---

(1)البخاري (30/1 – مع الفتح) كتاب بدء الوحي .

(2) صحيح البخاري (38/1 – مع الفتح) كتاب بدء الوحي.

(3) صحيح البخاري (- مع الفتح) كتاب التفسير.

ومعنى { قم فأنذر } ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد
{ وربك فكبر } عظمه بالتوحيد
{والرجز فاهجر } الرجز : الأصنام ،وهجرها تركها والبراءة منها وأهلها
،

أخذ على هذا عشر سنين يدعوا إلى التوحيد
قوله: "وبعد العشر عرج به إلى السماء"
"المعراج" مفعال من العروج، أي الآلة التي يعرج فيها، أي يصعد، وهـو بمـنـزلة السلم، لكن لا يعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته" (1).
"والإسراء" لغة: السير بالشخص ليلاً وقيل بمعنى سرى، وشـرعًا: سـير جبريل بالنبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس" (2).
قال الإمام الطحاوي: "والمعراج حق، وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة، إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا وأكرمه الله بمـا شـاء، وأوحى إليه ما أوحى" (3).
قال الحافظ ابن حجر: "الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظـة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد المبعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء، والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصـحيحة ولا ينبغـي

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية – لابن أبي العز الحنفي ص (223).
(2) شرح لمعة الاعتقاد – لابن عثيمين ص (67).
(3) العقيدة الطحاوية

العدول عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل" (1).

قال ابن حجر:

"ويؤيد وقوع المعراج عقب الإسراء في ليلة واحدة رواية ثابت عن أنس عند مسلم، ففي أوله "أتيت بالبراق فركبت حتى أتيت بيت المقدس" فذكر القصة إلى أن قال: "ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا" وفي حديث أبي سعيد الخدري عند ابن إسحق "فلما فرغت مما كان في بيت المقدس أتي بالمعراج فذكر الحديث" (2).

ومما يدل على أن الإسراء كان بروحه ﷺ وجسده في اليقظة قوله تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى} [الإسراء: 1].

"والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصحيح فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلاً، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة وهو كفر.

فإن قيل فما الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أولاً؟ فالجواب – والله أعلم أن ذلك كان إظهارًا لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم وأخبرهم عن عيرهم التي مر عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن إطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس

---

(1) فتح الباري (237/7).

(2) فتح الباري (237/7).

فأخبرهم بنعته" (1).

"وقصته – أي الإسراء والمعراج – أن جبريل أمره الله أن يسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس على البراق ثم يعرج به إلى السموات العلى سماء سماء حتى بلغ مكانًا سمع فيه صريف الأقلام وفرض الله عليه الصلوات الخمس واطلع على الجنة والنار واتصل بالأنبياء الكرام وصلى بهم إمامًا ثم رجع إلى مكة فحدث الناس بما رأى فكذبه الكافرون وصدق به المؤمنون وتردد فيه آخرون" (2).

قال الشيخ السعدي: "وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ، في الإسراء. وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السموات، حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم وفرض عليه الصلوات خمسين ثم مازال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم ، حتى صارت خمسًا في الفعل، وخمسين في الأجر والثواب" (3).

قال الحافظ ابن حجر:

"والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به رأى في تلك الليلة تعبد الملائكة وأن منهم القائم فلا يقعد والراكع فلا يسجد والساجد فلا يقعد، فجمع الله له ولأمته تلك العبادات كلها في كل ركعة يصليها العبد، بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة. وقال وفي اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إشارة إلى عظيم بيانها،

---

(1) شرح الطحاوية ص (226).

(2) شرح لمعة الاعتقاد – لابن عثيمين ص (68).

(3) تيسير الكريم الرحمن (259/4).

ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة" (1).

واختلف في وقت الإسراء والمعراج على أقوال كثيرة وأذكر هنا بعض هذه الأقوال.

1- قبل الهجرة بسنة، قاله ابن سعد وغيره وبه جزم النووي، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه وهو مردود – أي نقل الإجماع – فإن في ذلك اختلافًا كثيرًا يزيد على عشرة أقوال.

2- أنه كان قبل الهجرة بثمانية أشهر، حكاه ابن الجوزي.

3- قبل الهجرة بأحد عشر شهرًا، جزم به إبراهيم الحربي، ورجحه ابن المنير في شرح السيرة لابن عبدالبر.

4- وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين، حكاه ابن الأثير.

5- وقيل قبل الهجرة بخمس سنين حكاه عياض عن الزهري ورجحه.

وقيل غير ذلك.

وقول المصنف رحمه الله "أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عرج به إلى السماء" مصير منه إلى أن الإسراء والمعراج كان قبل الهجرة بثلاث سنين.

قوله: "وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها: أمر بالهجرة إلى المدينة".

والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة: والدليل قوله تعالى: {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا * إلا

---

(1) فتح الباري (256/7).

المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًا غفورًا} [سورة النساء، الآيات: 97-99]. وقوله تعالى: {يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون} [سورة العنكبوت، الآية: 56].

قال البغوي –رحمه الله-: "سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان".

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها" (1).

أصل المهاجرة: الانتقال والترك.

وفي الاصطلاح الشرعي: الانتقال من بلد الكفر والشرك إلى دار الإسلام(2). ومن المعلوم: أن من كان دينه الإسلام المبني على صرف جميع العبادات لله وحده ونفي الشرك وبغضه وبغض أهله ومعاداتهم ومقاطعتهم فإنه لا يتركه أهل الكفر على دينه مع القدرة عليه كما أخبر عن ذلك المولى عز وجل بقوله:

{ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا} [البقرة: 217].

كما أخبر الله عن أصحاب الكهف أنهم قالوا:

{إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذًا أبدًا} [الكهف: 20].

وأخبر سبحانه بذلك عن جميع الكفار حيث قال:

---

(1) أخرجه أحمد (99/4)، وأبوداود كتاب الجهاد (2479)، وهو في صحيح الجامع (7436).

(2) انظر فتح الباري 16/1.

{وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنـا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين} [إبراهيم: 13].

وكذلك قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: ياليتني أكون جـذعًا إذ يخرجـك قومك قال: أو مخرجي هم؟! قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت بـه إلا عودي، فلذلك أخرجوه من مكة إلى الطائف ثم هاجر إلى المدينة بعدما هاجر طائفة من أصحابه إلى الحبشة مرتين(1).

عظم شأن الهجرة :

والهجرة شأنا عظيم، وأمرها كبير إذ هي فرع الولاء والبراء،بل إنا مـن أبرز تكاليف الولاء والبراء ، وما كانت الجماعة المسلمة لتترك أرضها وقومها وتتكبد مشاق الغربة ووعثاء السفر لولا أن ذلك تكليف رباني لمن لا يستطيع أن يقيم دينه، ويظهر إسلامه في أرضه. وقد وعد الله عباده المؤمنين المهاجرين بـ "الحسنات" في الدنيا والآخرة فقال:

{والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون} [النحل: 41-42].

مفهوم الهجرة :

وللهجرة مفهوم شامل ليس مقتصرًا على الانتقال من بلد الكفر إلى بلـد الإسلام فحسب ولكنه كما يقول ابن القيم: الهجرة هجرتان هجرة بالجسـم من بلد إلى بلد وهذه أحكامها معلومة.

والهجرة الثانية: الهجرة إلى الله ورسوله فهذه هي الهجرة الحقيقية، وهجرة الجسد تابعة لها وهي هجرة تتضمن "من" و "إلى" فيهاجر بقلبه من محبة غـير

---

(1) انظر الدفاع لابن عتيق 18 – 19 وقصة ورقة مع رسول الله ﷺ في ابن هشام 254/1.

الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خـوف غـيره ورجائـه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسـؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه سبحانه وسؤاله والخضوع لـه والذل له والاستكانة له. وهذا بعينه معنى الفرار إلى الله كما قال تعالى:

{ففروا إلى الله} [الذاريات: 50].

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

والهجرة إلى الله تتضمن: هجران ما يكرهه، وإتيان ما يحبه ويرضاه.

وأصلها: الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لابد أن يكون ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر.

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب دواعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل، وإذا ضـعف الـداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر با علمًا ولا يتحرك لها إرادة(1).

أما الهجرة التي هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فإليك تفصـيل أحكامها:

قال الخطابي: "كانت الهجرة في أول الإسلام مندوبًا إليها غـير مفروضـة وذلك في قوله تعالى:

{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرة وسعة} [النسـاء: 100].

فقد نزلت حين اشتد أذى المشركين على المسلمين عند انتقال رسـول الله ﷺ إلى المدينة. ثم أمروا بالانتقال إلى حضرته ليكونوا معه، فيتعاونوا ويتظاهروا إن حَزبم أمر، وليتعلموا منه أمر دينهم، ويتفقهوا فيه. وكان أعظم الخـوف

---

(1) الرسالة التبوكية لابن القيم 14 – 18 ط الثانية سنة 1394 هـ- السلفية بمصر.

في ذلك الزمان من قريش وهم أهل مكة، فلما فتحت مكة وخضـعت## بالطاعة زال ذلك المعنى وارتفع وجوب الهجرة وعاد الأمر فيها إلى النـدب والاستحباب فهما هجرتان: فالمنقطعة منهما هي الفرض، والباقية هي الندب. وبذا يظهر الجمع بين حديث معاوية عن النبي ﷺ قال: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها". وبين حـديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة "لا هجرة بعد الفتح ولكـن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا" (1) على أن بين الإسنادين مـا بينـهما فإسناد حديث ابن عباس متصل صحيح وإسناد حديث معاوية فيه مقال"(2).

وهي باقية إلى أن تقوم الساعة: والدليل قوله تعالى: {إن الـذين توفـاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصـيرًا * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًا غفـورًا} [سـورة النساء، الآيات: 97-99]. وقوله تعالى: {يا عبادي الذين آمنوا إن أرضـي واسعة فإياي فاعبدون} [سورة العنكبوت، الآية: 56].

قال البغوي –رحمه الله-: "سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان".

ولأهمية موضوع الهجرة – خاصة في أول الإسلام – فقد قطع الله ولايـة

---

(1) صحيح البخاري كتاب الجهاد باب وجوب النفير 37/6 ح 2825.

(2) معالم السنن للخطابي: 352/3 تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي وانظر الناسخ والمنسوخ للحازمي ص 207.

التناصر بين المسلمين المهاجرين في المدينة وبين المسلمين الذين لم يهاجروا وبقوا في مكة.

قال تعالى : {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض. والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير} [الأنفال: 72].

ثم يأتي الثناء على المهاجرين والأنصار في قوله تعالى:

{والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًا لهم مغفرة ورزق كريم} [الأنفال: 74].

أما الصنف الذي نريد أن نتحدث عنه هنا فهم المؤمنون الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في مكة فهؤلاء هم الذين قال الله عنهم:

{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا أم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم. وكان الله عفوًا غفورًا} [النساء: 97-99].

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: " أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمي به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيُقتل فأنزل الله {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم}".

ولذلك فالذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم ليس لهم في المغانم

نصيب ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال كما قال الإمام أحمد[1]، يدل على ذلك الحديث المروي في المسند وصحيح مسلم عن ابن بريدة عن أبيـه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصـة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: اغزو باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزو ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلـوا، ولا تقتلـوا وليدًا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خـلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهـاجرين وأخبرهم أنه إنهم إن فعلوا ذلك فلهم ماللمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسـلمين يجـري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفـيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم[2].. الحديث.

أنواع الهجرة :

ونستطيع أن نلخص أنواع الهجرة – سواء ما بقي منها مفروضـًا أو مـا نسخ، وما هو غير ذلك – في النقاط التالية:

(1) الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضًا في أيام النبي ﷺ وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان. فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار

---

(1) تفسير ابن كثير 40/4.

(2) الحديث في مسند أحمد 352/5 وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد 1357/3 ح 1731.

الإسلام(1).

ويؤيد ذلك حديث مجاشع بن مسعود(2) حين جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي ﷺ فقال: هذا مجالد يبايعك على الهجرة فقال النبي ﷺ: "لا هجـرة بعد فتح مكة ولكن أبايعه على الإسلام" (3) وعلى ذلك فـإن النصـوص الواردة في وجوب الهجرة باقية في حال المسلم المقيم بدار الحرب وقد ذكرتا في الإقامة في دار الكفر.

(2) الخروج من أرض البدعة. قال الإمام مالك: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف(4).

(3) الخروج عن أرض غلب عليها الحرام. فإن طلب الحلال فرض علـى كل مسلم(5).

وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أحوال البلاد كأحوال العباد فيكون الرجل تارة مسلمًا، وتارة كافرًا، وتارة مؤمنًا، وتارة منافقًا، وتارة برًا تقيًا، وتارة فاجرًا شقيًا. وهكذا المساكن بحسب سكانها فهجرة الإنسان مـن مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته وانتقاله مـن الكفـر

---

(1) أحكام القرآن لابن العربي 484/1 وانظر شرح النووي على مسلم 8/13 وتفسير القرطبي 308/5.

(2) هو مجاشع بن مسعود بن ثعلبة السلمي. قال البخاري وغيره له صحبة، روى عنه أبو عثمان النهدي وغيره. قتل يوم الجمل. الإصابة 362/3 والمعارف لابن قتيبة 331.

(3) صحيح البخاري كتاب الجهاد، باب لا هجرة بعد الفتح (189/6) ح 3079 وصحيح مسلم كتاب الامارة 1488/3 ح 1864.

(4) أحكام القرآن لابن العربي 485/1،484.

(5) المرجع السابق.

والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باق إلى يوم القيامة(1).

(4) الفرار من الأذية في البدن، وذلك فضل من الله عز وجل أرخص فيه، فإذا خشي المرء على نفسه في موضع فقد أذن الله سبحانه له في الخروج عنه، والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام لما خاف من قومه قال:

{إني مهاجر إلى ربي} [العنكبوت: 26].

وقال:

{إني ذاهب إلى ربي سيهدين} [الصافات: 99].

وموسى عليه السلام قال الله تعالى فيه:

{فخرج منها خائف يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين} [القصص: 21].

(5) خوف المرض في البلاد الوخمة، والخروج منها إلى الأرض النزهة وقد أذن النبي ﷺ للعرنيين في ذلك حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المسرح، فيكونوا فيه حتى يصحوا وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون كما قرر ذلك الحديث الصحيح(2).

(6) الفرار خوف الأذية في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه،

---

(1) مجموع الفتاوي لابن تيمية 284/18.

(2) المصدر السابق 485/1 وحديث العرنيين في صحيح البخاري كتاب الطب 142/10 ح5686 وصحيح مسلم كتاب القسامة 1296/3 ح1671 أما حديث الطاعون ففي البخاري كتاب الطب 179/10 ح 5728 وصحيح مسلم كتاب السلام 1741/4 ح 2219 ونصه "إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها".

والأهل مثله أو آكد[1].

وبعد: فإن الهجرة وغيرها من الأعمال والأقوال – مبنية على النية كما قال ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" [2].

حكم الإقامة في دار الكفر :

لابد لنا أولاً أن نُعرف دار الكفر ودار الإسلام. فقد قال أهل العلم رحمهم الله:

إن دار الكفر: هي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر، ويكون النفوذ فيها للكفار وهي على نوعين:

1) بلاد كفار حربيين. 2) بلاد كفار مهادنين بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة. فتصير إذا كانت الأحكام للكفار: دار كفر، ولو كان بها كثير من المسلمين[3].

ودار الإسلام: هي التي يحكمها المسلمون، وتجري فيها الأحكام الإسلامية ويكون النفوذ فيها للمسلمين ولو كان جمهور أهلها كفارًا[4].

ولما كان الإسلام هو دين العزة ودين القوة: فإنه قد أبى على معتنقيه أن يستذلوا للكفار، ولذلك جاء المنع من الإقامة بين ظهراني غير المسلمين، لأن

(1) أحكام القرآن 486/1.

(2) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي 9/1 ح 1 وصحيح مسلم كتاب الإمارة 15151/3 ح 1907.

(3) الفتاوي السعدية للشيخ عبدالرحمن بن سعدي 92/1 ط الأولى سنة 1388 هـ.

(4) المصدر السابق : 92/1.

إقامته بينهم تشعره بالوحدة والضعف وتربي فيه روح الاستخذاء والاستكانة، وقد تدعوه إلى المحاسنة ثم المتابعة. والإسلام يريد للمسلم أن يمتلئ قوة وعزة وأن يكون متبوعًا لا تابعًا، وأن يكون ذا سلطان ليس فوقه إلا سلطان الله لذلك حرم الإسلام على المسلم أن يقيم في بلد لا سلطان للإسلام فيه إلا إذا استطاع أن يظهر إسلامه ويعمل طبقًا لعقيدته دون أن يخشى الفتنة على نفسه، وإلا فعليه أن يهجر هذا البلد إلى بلد يعلو فيه سلطان الإسلام فإن لم يفعل فالإسلام بريء منه ما دام قادرًا على الهجرة. وفي ذلك كله يقول المولى سبحانه:

{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض * قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها * فأولئك مأواهم جهنم * وساءت مصيرًا * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم * وكان الله عفوًا غفورًا} [النساء: 97- 99].

وقال ﷺ: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين" قيل: يا رسول الله ولم؟ قال: "لا تراءى ناراهما" وقال "من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله" ويقول "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها" (1).

وقال الحسن بن صالح: من قام في أرض العدو – وان انتحل الإسلام وهو يقدر على التحويل إلى المسلمين فأحكامه المشركين، وإذا أسلم الحربي فأقام ببلادهم وهو يقدر على الخروج فليس بمسلم، يحكم فيه بما يحكم على أهل

(1) المسند 99/4 وأبي داود في كتاب الجهاد 7/3 ح 2479 والدارمي كتاب السير 239/2 وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير 186/6 ح 7346.

الحرب في ماله ونفسه(1).

وقال الحسن: إذا لحق الرجل بدار الحرب ولم يرتد عن الإسلام فهو مرتد بتركه دار الإسلام[2].

وقال ابن حزم: "من لحق بدار الكفر والحرب مختارا محاربا لمن يليـه مـن المسلمين: فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها: من وجوب القتل عليه متى قدر عليه، و من إباحه ماله وانفساخ نكاحه وغير ذلك.

- وأما من فر إلى أرض الحرب لظلم خافه، ولم يحارب المسلمين، ولا أعان عليهم، ولم يجد في المسلمين من يجيره، فهذا لا شيء عليه، ، لأنـه مضـطر مكره.

- أما من كان محاربا للمسلمين معينًا للكفار بخدمة أو كتابة فهو كافر.

- وإن كان إنما يقيم هنالك لدينا يصيبها وهو كالذمي لهم، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين وأرضهم فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عـذرا، ونسأل الله العافية.

- وأما من سكن في أرض القرامطة مختارا فكافر بلا شك لأنهم معلنـون بالكفر وترك الإسلام. وأما من سكن في بلد تظهر فيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر فهو ليس بكافر لأن اسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد والإقرار برسالة محمد ﷺ والبراءة من كل دين غير الإسلام وإقامة الصلاة وصيام رمضان وسائر الشرائع التي هي الإسلام والإيمان.

- وقول رسول الله ﷺ أنا بريء من كل مسلم أقام بين أظهر المشـركين، يبين ما قلناه، وأنه عليه السلام، إنما عنى بذلك دار الحرب، وإلا فقد استعمل عليه السلام عماله على خيبر وهم كلهم يهود.

---

(1)أحكام القرآن للجصاص: 21/3.

- ولو أن كافر مجاهرًا غلب على دار من دور الإسلام، وأقر المسلمين بها على حالهم إلا أنه هو المالك لها، المنفرد بنفسه في ضبطها وهو معلن بدين غير الإسلام: لكفر بالبقاء معه كل من عاونه وأقام معه وإن ادعى أنه مسلم – لما ذكرنا" (1).

وللشيخ حمد بن عتيق(2) رحمه الله رسالة قيمة حول هـذا الموضـوع(3) فقد قسم المقيمين في بلاد الحرب إلى ثلاثة أقسام:

أحدهما: أن يقيم عندهم رغبة واختيارًا لصحبتهم، فيرضى ما هم عليه من الدين أو يمدحه، أو يرضيهم بعيب المسلمين، أو يعاونهم على المسلمين بنفسه أو ماله أو لسانه: فهذا كافر عدو لله ولرسوله لقوله تعالى:

{لا يتخذ المؤمنون الكفرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء} [آل عمران: 28].

قال ابن جرير: قد برئ من الله وبرئ الله منه لارتداده عن دينه ودخولـه

---

(1) المحلى لابن حزم: 13/139-140.

(2)هو الشيخ المحقق حمد بن علي بن محمد بن عتيق ولد سنة 1227هـ بالزلفى وحفظ القرآن، وكانت له همة وعلو نفس سمت به إلى معاني الأمور. تتلمذ على الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ صاحب كتاب فتح المجيد ولازمه. ولازم أيضًا غيره من العلماء. وجد اجتهاد حتى صار من كبار العلماء. عين قاضيا في الخرج ثم الأفلاج ومن مؤلفاته إبطال التنديد شرح كتاب التوحيد. والنجاة والفكاك والدفاع عن أهل السنة والاتباع. والفرق المبين بين السلف وابن سبعين. وغير ذلك وتوفي سنة 1301هـ عن عمر يناهز السبعين ورثاه تلميذه سليمان بن سحمان بقصيدة منها:

يعز علينا أن نرى اليوم مثيله ... لحل عويص المشكلات البوادر

انظر ترجمته في كتاب علماء نجد خلال ستة قرون للبسام 1/229.

(3) اسمها: الدفاع عن أهل السنة والاتباع: نشرها حفيده إسماعيل بن سعد بن عتيق بدون تاريخ.

في الكفر وقال تعالى :

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصرى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم} [51 المائدة]

وقال ﷺ "من جامع المشرك و سكن معه فهو مثله" (1).

وصح عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: مــن بــنى بــأرض المشركين فصنع نيروزهم ومهرجانم وتشبه بم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة(2).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وظاهر أنه جعله كافرًا بمشاركتهم في مجموع هذه الأمور.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: لما ذكر الأنواع الــتي يكفر با الرجل: قال النوع الرابع: من سلم من هذا كله ولكن أهــل بلــده يصرون على عداوة التوحيد واتباع أهل الشرك وهو يعتذر أن تــرك وطنــه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده ويجاهد بماله ونفسه فهذا أيضًــا كافر، فأنه لو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه ولا يمكنه ترك ذلــك إلا بمخالفتــهم فعل. وموافقته لهم مع الجهاد معهم بنفسه وماله مع أنم يريدون بذلك قطــع دين الله ورسوله أكبر من ذلك بكثير فهذا أيضًا كافر وهو ممن قال الله فيهم

{ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كــل مــا ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم الســلم ويكفــوا أيــديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطنا مبينا}

---

(1) الدفاع لابن عتيق 10، 12

(2) قال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ص200 إسناده صحيح.

[النساء: 91]"(1)

القسم الثاني: أن يقيم عندهم لأجل مال أو ولد أو بلاد وهو لا يظهر دينه مع قدرته على الهجرة، ولا يعينهم على المسلمين بنفس ولا مال ولا لسان، ولا يواليهم بقلبه ولا لسانه، فهذا لا يكفرونه لأجل مجرد الجلوس، ولكن يقولون أنه قد عصى الله ورسوله بترك الهجرة، وإن كان مع ذلك يبغضهم في الباطن لقول الله تعالى {إن الذين توفهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأوئهم جهنم وساءت مصيرا} [النساء: 97].

قال ابن كثير: "ظالمي أنفسهم" أي بترك الهجرة، ثم قال: فهذه الآية عامة لكل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين فهو مرتكب حراما بالإجماع وبنص هذه الآية(2).

قلت: وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما. أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم فيرمي به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله هذه الآية {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم}(3).

وقد سد الله باب الأعذار الواهية في قوله تعالى:

{قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم

---

(1) الدفاع لابن عتيق 10، 12

(2) انظر تفسير ابن كثير 343/2. والدفاع لابن عتيق: 13.

(3) صحيح البخاري كتاب التفسير 262/8 ح 4596.

الفاسقين} [التوبة: 24].

وما من أحد يترك الهجرة إلا وهو يعتذر بشيء من هذه الثمانية وقد سد الله على الناس باب الاعتذار بها وجعل من ترك الهجرة لأجلها أو لأجل واحد منها فاسقا وإذا كانت مكة هي أشرف بقاع الأرض وقد أوجب الله الهجرة منها ولم يجعل محبتها عذرًا فكيف بغيرها من البلدان؟[1].

القسم الثالث: من لا حرج عليه في الإقامة بين أظهرهم وهو نوعان:

(1) أن يكون مظهرا دينه فيتبرأ منهم وما هم عليه، ويصرح لهم ببراءته منهم وأنهم ليسوا على حق، بل إنهم على باطل وهذا هو إظهار الدين الذي لا تجب معه الهجرة كما قال تعالى {قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد} إلى آخر السورة.

فأمره أن يخاطبهم بأنهم كافرون، وأنه لا يعبد معبوداتهم، وأنهم بريئون من عبادة الله أي أنهم على الشرك وليسوا على التوحيد، وأنه قد رضي بدينه الذي هو عليه وبرئ من دينهم الذي هم عليه كما قال تعالى:

{قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفًا ولا تكونن من المشركين} [يونس: 104-105]

فمن قال مثل ذلك للمشركين لم تجب عليه الهجرة.

وليس المراد بإظهار الدين: أن يترك الإنسان يصلي ولا يقال له اعبد الأوثان! فإن اليهود والنصارى لا ينهون من صلى في بلدانهم ولا يُكرهون الناس على أن يعبدوا الأوثان؟! بل المقصود: أن إظهار الدين هو: التصريح

---

(1) الدفاع لابن عتيق ص13-14 وانظر: بيان النجاة والفكاك له أيضًا من 70-72.

للكفار بالعداوة كما احتج خالد بن الوليد على مجاعة[1] بأنه سكت ولم يظهر البراءة كما أظهرها ثمامة[2] واليشكري. والقصة المعروفة في السير، فمـا لم يحصل التصريح للمشركين بالبراءة منهم ومن دينهم لم يكن إظهـار الـدين حاصلاً[3].

(2) أن يقيم عندهم مستضعفا وقد بين الله الاستضعاف في كتابه فقال: {إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يسـتطيعون حيلـة ولا

---

(1) هو مجاعة بن مرارة بن سلمي الحنفي اليمامي. كان من رؤساء بني حنيفة وكان ممن أسر يوم اليمامة. وكان بليغا حكيما. ومن حكمه قال لأبي بكر الصديق: إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يقاتل به، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور الإصابة 362/3.

(2) هو ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي أبو أمامة اليمامي، حديثه في البخاري حين أسر ثم أسلم قال ابن إسحاق إن ثمامة مثبت على إسلامه لما ارتد أهل اليمامة وارتحل هو ومن أطاعه من قومه فلحقوا بالعلاء بن الحضرمي فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين الإصابة 203/1.

(3) الدفاع ص16 والقصة المذكورة هنا أوردها المؤلف في كتابه "النجاة والفكاك" حيث قال: لما سار خالد إلى اليمامة لقتال المرتدين بعث قبله مائتي فارس، وقال من أصبتم من الناس فخذوه فأخذوا "مجاعة" في ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه فلما وصلوا إلى خالد قال له: يا خالد: لقد علمت اني قدمت على رسول الله ﷺ في حياته فبايعته على الإسلام وأنا اليوم على ما كنت عليه أمس، فإن يك كاذبًا قد خرج فينا فإن الله يقول: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} فقال خالد: يا مجاعة تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه وأنت أعز أهل اليمامة وقد بلغك مسيري – إقرارًا له ورضاء بما جاء به فهلا أبديت عذرًا وتكلمت فيمن تكلم؟ فقد تكلم ثمامة فرد وأنكر، وتكلم اليشكري: فإن قلت: أخاف قومي. فهلا عمدت إلي أو بعثت إلي رسولا؟ فقال: إن رأيت يا بن المغيرة أن تعفو عن هذا كله؟ فقال خالد: قد عفوت عن دمك ولكن في نفس حرج من تركك.بيان النجاة والفكاك (68-70) .

يهتدون سبيلا} [النساء: 98].

وهذا الاستثناء بعد ما توعد المقيمين بين أظهر المشركين بأن :

{مأوئهم جهنم وساءت مصيرا} [النساء: 97].

فاستثنى من لا يستطيع حيلة ولا يهتدون سبيلا. قال ابن كثير: لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق(1).

وقال تعالى:

{وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين مـن الرجـال والنسـاء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا} [النساء: 75].

فذكر في الآية الأولى: حالهم وهو العجز عن الخروج وعدم دلالة الطريق.

وذكر في الآية الثانية: مقالهم وهو أنهم يسألون الله أن يخرجهم من بـلاد الشرك الظالم أهلها وأن يجعل لهم وليًا يتولاهم وناصرا ينصرهم، فمن كانـت تلك حاله وهذا مقاله

{فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان عفواً غفورا}(2) [النساء: 99].

وقد ذكر البغوي: أن الأسير المسلم عند الكفار إذا استطاع الخـلاص والانفلات منهم لم يحل له المقام بينهم، فإن حلفوه أنهم إن خلـوه لا يخـرج فحلف فخلوه، وجب عليه الخروج ويمينه يمين مكره لا كفارة عليه فيها، وإن حلف استطابة لنفوسهم من غير أن يحلفوه فعليه الخـروج إلى دار الإسـلام

---

(1) ابن كثير 343/2.

(2)الدفاع ص16 وما ذكره الشيخ حمد هنا موافق تماماً لإجابة الشيخين حسين وعبدالله ابني محمد بن عبدالوهاب حين سئلا في هذا الموضوع انظر مجموعة الرسائل والمسائل النجدية 39/1ط الالولى سنة 1346هـ- مطبعة المنار بمصر.

ويلزمه كفارة اليمين[1].

أما حكم السفر إلى بلاد الكفار الحربية لأجل التجارة ففي ذلك تفصيل:

فإن كان يقدر على إظهار دينه ولا يوالي المشركين جاز له ذلك فقد سافر بعض الصحابة رضي الله عنهم كأبي بكر رضي الله عنه وغيره إلى بلدان المشركين لأجل التجارة ولم ينكر ذلك النبي ﷺ كما رواه أحمد في مسنده[2] وغيره.

فلما استقر بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام مثل الزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وغير ذلك من شرائع الإسلام: أخذ على هذا عشر سنين وبعدها توفي صلوات الله وسلامه عليه.

ودينه باق، وهذا دينه، لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه.

والخير الذي دل عليه: التوحيد، وجميع ما يحبه الله ويرضاه.

والشر الذي حذر منه: الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه.

بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض الله طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا}.

وأكمل الله به الدين، و الدليل قوله تعالى {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: {إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون}.

****

---

(1) شرح السنة للبغوي: 246/10.

(2)هكذا في النص الذي في الجامع الفريد ولكنني بحثت عنه في المسند فلم أجده.

والناس إذا ماتوا يبعثون، والدليل قوله تعالى: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} [طه:55]

وقوله تعالى: {والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيهـا ويخـرجكم إخراجا} [نوح:17-18].

وبعد البعث: محاسبون ومجزيون بأعمالهم، والدليل قوله تعالى: {ليجـزي الذي أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} [النجم : 31].

ومن كذب بالبعث كفر، والدليل قوله تعالى: {زعم الذين كفروا أن لـن يبعثوا، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتهم وذلـك علـى الله يسـير} [التغابن: 7].

قال ابن كثير - رحمه الله –: "البعث هو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيمة ".[1]

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين، والدليل قوله تعـالى: {رسـلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [ ].

دعوة الرسل إلى الله تقترن دائما بالتبشير والإنذار، ولأن ارتباط الـدعوة إلى الله بالتبشيروالإنذار وثيق جدا فقد قصر القرآن مهمة الرسل عليهـا في بعض آياته {وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين} [سورة الكهف:56] وقد ضرب الرسول – ﷺ - لنفسه مثلا في هذا، فقال: "مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قوما، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنـا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فـأدلجوا، وانطلقـوا

---

[1] تفسير ابن كثير (614/4).

على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثـل مـن عصاني وكذب بما جئت به من الحق" متفق عليه(1).

وتبشير الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة، {ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيـاة طيبة} [سورة النحل: 97]. {من اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى} [سـورة طه:123]، ويعدونهم بالعز والتمكين والأمن{وعد الله الذين آمنـوا مـنكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين مـن قبلـهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعـد خـوفهم أمنـا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا} [سورة النور:55].

ويخوفون العصاة بالشقاء الدنيوي {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} [سورة طه:124] ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي {فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} [سـورة فصـلت/13] وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها {ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيهـا، وذلـك الفـوز العظـيم} [سـورة النساء:13].

ويخوفون المجرمين والعصاة عذاب الله في الآخرة، {ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها، وله عذاب مهين} [سورة النساء:14].

ومن يطالع دعوات الرسل يجد أن دعوتهم قد اصطبغت بالتبشير والإنذار، ويبدو أن التبشير والإنذار على النحو الذي جاءت به الرسل هـو مفتـاح النفس الإنسانية، فالنفس الإنسانية مطبوعة على طلب الخير لـذاتها، ودفـع

---

(1)صحيح الجامع (205/5).

الشر عنها، فإذا بصر الرسل النفوس بالخير العظيم الذي يحصلونه مـن وراء الإيمان والأعمال الصالحة فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير، وعندما تبين لها الأضرار العظيمة التي تصيب الإنسان من وراء الكفر والضلال فـإن النفوس ترب من هذه الأعمال ونعيم الله المبشر به نعيم يسـتعذبه القلـب، وتلذه النفس، ويهيم به الخيال، اسمع إلى قوله تعالى يصف نعـيم المـؤمنين في جنات النعيم {على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطـوف علـيهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معـين، لا يصـدعون عنـها ولا ي فون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيمـا، إلا قـيلاً سلامًا سلاما، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضـود وطلـح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعـة ولا ممنوعـة وفرش مرفوعة إنا أنشانن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربـا أترابـا لأصـحاب اليمين} [سورة الواقعة:15-38].

وانظر عذاب الكفرة في دار الشقاء {وأصحاب الشمال مـا أصـحاب الشمال في سموم وحميم،وظلٍ من يحموم لا بارد ولا كريم، إنم كانوا قبل ذلك مترفين} [سورة الواقعة/41-45] {ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لأكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الهيم، هذا نزلهم يوم الدين} "سورة الواقعة/51-56".

وحسبك أن تطالع كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري وتقرأ منـه على إخوانك ومن تدعوهم إلى الله، ثم انظر اثر هذا في نفسـك وفي نفـوس السامعين.

إن بعض الذين لم يفقهوا دعوة الإسلام يعيبون على دعاة الإسلام أخذهم

بالإنذار والتبشير، ويقولون فلان واعظ، ويعيبون عليهم عدم فلسفتهم للأمور التي يدعون إليها، ويطالبون الدعاة بالكف عن طريقة الوعظ وتخويف الناس وترغيبهم، وهؤلاء بحاجة إلى أن يراجعوا أنفسهم، وينظروا في موقفهم هـذا، في ضوء نصوص القرآن وأحاديث الرسول التي تـبين أسـلوب الـدعوة، وتوضيح مهمة الرسل الكرام.(1)

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :" معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حـده مـن معبود أو متبوع ، أو مطاع " .

بيان الطاغوت الذي أوجب الله على عباده أن يجتنبوه

معنى الطاغوت في اللغة:

جاء في القاموس: "الطاغوت اللات، والعزى، والكاهن، والشيطان وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله ومردة أهل الكتاب للواحد والجمع "فعلوت" من طغوت، والجمع طواغيت طواغ، أو الجبت حيي بـن أخطب والطاغوت كعب بن الأشرف وأطغاه جعله طاغيًا والطغـوة المكـان المرتفع" ا.هـ.(2)

وقال في المصباح المنير: "والطاغوت يذكر و يؤنث والاسم (الطغيان) وهو مجاوزة الحد وكل شيء جاوز المقدار والحد في العصيان فهو (طاغ) و"أطغيته" جعلته "طاغيًا" "وطغى" السيل ارتفع حتى جاوز الحد في الكثرة "والطاغوت" الشيطان وهو في تقدير فعلوت بفتح العين لكن قدمت اللام موضع العـين، واللام واو محركة مفتوح ما قبلها فقلبت ألفًا فبقي في تقدير فعلوت وهو من

---

(1)انظر الرسل والرسالات – للأشقر

(2) القاموس المحيط 359/4، مختار الصحاح 393.

الطغيان" (1) ا.هـ.

وجاء في فتح المجيد: "الطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد" ا.هـ(2).

والذي نستفيده من هذه التعاريف اللغوية أن الطاغوت كل ما تجاوز حده فصار معبودًا من دون الله سواء كان إنسانًا أو صنمًا أو وثنًا أو كان ما كان من أي شيء وسواء عبد بطاعة من عابديه أو بقهره لهم حتى عبدوه فهو طاغوت.

معنى الطاغوت اصطلاحًا:

روى ابن جرير وابن كثير بإسنادهما إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان" (3).

قال ابن كثير: "ومعنى قوله "إنه الشيطان" قوي جدًا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها" ا.هـ(4).

وذكر ابن كثير: بإسناده إلى جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنه سئل عن الطواغيت فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين.

وقال مجاهد: الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم.

---

(1) المصباح المنير 1/373-374.

(2) ص19.

(3) جامع البيان 5/131، تفسير ابن كثير 3/315.

(4) تفسير القرآن العظيم 1/553.

وقال الإمام مالك رحمه الله: "هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل" (1).
وتعريف الإمام مالك يقيد بمن عبد من دون الله و هو راض ليخرج بهذا القيد من عبد وهو غير راض مثل المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، والملائكة فإنهم عبدوا من دون الله وهم غير راضين بذلك بل إنهم براء ممن عبدهم ومن عبادتهم.

وقال الواحدي: عند قوله –تعالى- {يؤمنون بالجبت والطاغوت}(2) "وكل معبود من دون الله فهو جبت وطاغوت" (3).

وقال عبدالله بن عباس: "الجبت الأصنام والطاغوت الذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس".

قال ابن جرير: "وزعم رجال: أن الجبت الكاهن والطاغوت رجل من اليهود يدعى كعب بن الأشرف وكان سيد اليهود" (4).

وقال بعض السلف: عند قوله –تعالى- {يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت}(5) إنه كعب بن الأشرف، وقال بعضهم: حيي بن أخطب وإنما استحقا هذا الاسم لكونهما من رؤوس الضلال ولإفراطهما في الطغيان وإغوائهما الناس ولطاعة اليهود لهما في معصية الله فكل من كان بهذه الصفة

---

(1) المصدر السابق 316/2، فتح المجيد ص19-20.
(2) سورة {النساء آية: 51}.
(3) انظر مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص407.
(4) جامع البيان (131/4).
(5) سورة {النساء آية: 60}.

فهو طاغوت" اهـ [1].

وهذه التعريفات المتقدمة عن السلف الصالح من باب توضيح الشيء ببعض أفراده وإلا فالحد الجامع المانع لمعنى الطاغوت هو ما عرفه به ابن القيم رحمه الله –تعالى- فقد قال: "الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله –تعالى- إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة رسول الله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته" اهـ [2].

فلو تأملنا زماننا هذا واستعرضنا حالة أكثر المسلمين لوجدناها طبقًا لما قال هذا الإمام رحمة الله عليه إلا من رحم الله، وبعد أن عرفنا معنى الطاغوت في اللغة والإصطلاح نقول: إن الله فرض على جميع خلقه أن يكفروا بالطاغوت ويعتقدوا اعتقادًا جازمًا أن عبادته باطلة وأن من عبده كافر بالله العظيم.

قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}[3] فهذه الآية فيها الإخبار بأنه –تعالى- أمر جميع خلقه باجتناب عبادة الطاغوت مطلقًا سواء كان إنسًا أو جنًا، أو شجرًا، أو حجرًا، أو هوى، أو شهوة، أو مالاً، أو جاهًا، أو وظيفة، وأن يعبدوه –سبحانه- وحده دون سواه.

---

(1) مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص407 والكلام للشيخ عبداله بن عبدالرحمن أبا بطين رحمه الله –تعالى-.

(2) تيسير العزيز الحميد ص33، فتح اليد ص20، إعلام الموقعين 50/1.

(3) سورة {النحل آية:36}.

وقال تعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى}[1].

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: "واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنًا بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية" ا.هـ[2].

وقال الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله –تعالى- عند شرحه للآية: "وهذا معنى "لا إله إلا الله" فإنا العروة الوثقى" ا.هـ[3].

وقال تعالى: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدًا}[4].

والآيات في هذا المعنى كثيرة وهي تدل على أنه يجب الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

وضابط الكفر بالطاغوت: أن يعتقد الإنسان اعتقادًا جازمًا بطلان عبادة غير الله وتركها والبغض لأهلها ومعاداتم.

وضابط الإيمان بالله: الاعتقاد الجازم بأن الرب –سبحانه- هو الإله المعبود وحده دون سواه وإخلاص جميع أنواع العبادة كلها له وحده لا شريك له ونفيها عن كل معبود سواه.

والطواغيت كثيرون ، رؤسهم خمسة : إبليس لعنه الله ،ومن عُبد وهو راض ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه ومن ادعى شيئًا من علم الغيب ،ومن

---

(1) سورة {البقرة آية: 256}.

(2) الدرر السنية (95/1)

(3) فتح المجيد ص20.

(4) سورة {النساء آية: 60}.

حكم بغير ما أنزل الله .

وبعد أن عرفنا أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله –تعالى- إذن فالطواغيت لا تحصى لكثرتا وتنوعها إلا أن رؤوسها خمسة[1] وهي:

الأول: إبليس الذي لا يزال جاهدًا آناء الليل وآناء النهار في الـدعوة إلى عبادة غير الله –تعالى-.

قال –تعالى-: {ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكـم عدو مبين* وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم}[2].

الثاني: الحاكم الجائر المغير لأحكام الله –تعالى- وقد ذم الله من تلبس بذلك قال –تعالى- {ألم تر الذي يزعمون أنم آمنوا بما أنزل إليك وما أنـزل مـن قلبك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا بـه ويريـد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدًا}[3].

قال العلامة ابن كثير: بعد أن ذكر أنا نزلت فيمن طلـب التحـاكم إلى كعب بن الأشراف أو إلى حاكم الجاهلية وغير ذلك قال: "والآية أعم مـن ذلك فإنا ذامة لمن عدل من الكبير تاب والسنة وتحاكم إلى ما سـواهما مـن الباطل وهو المراد بالطاغوت هاهنا" ا.هـ[4].

وقد أقسم –الباري سبحانه بنفسه- على عدم إيمان من لم يحكم الرسـول صص قال تعالى : { فلا وربك لا ؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا }[النساء : 60]

---

(1) انظر مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص260-261.

(2) سورة {يس آية: 60-61}.

(3) سورة {النساء آية: 60}.

(4) تفسير ابن كثير 327/3.

قال العلامة ابن القيم : "أقسم - سبحانه - المقدسة قسمًا مؤكدًا بـالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينـهم مـن الأصول والفروع وأحكام الشرع وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرهـا ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج، وهـو ضـيق الصدر وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتنفسح له كل الإنفسـاح وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضًا حتى ينضاف إليه مقابلـة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض فهنا قـد ُيحكم الرجل غيره وعند حرج من حكمه، ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضـا والتسليم والإنقياد إذ قد ُيحكمه وينتفي الحرج عنه في تحكيمه ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه، والتسليم أخص من انتفاء الحرج، فالحرج مانع، والتسليم أمر وجودي ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه إذ قد ينتفى الحرج ويبقى القلب فارغًا منه ومن الرضى به والتسـليم لـه، فتأمله، وعند هذا يعلم أن الرب تبارك وتعالى - أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق وعند الإمتحان تعلم هل هذه الأمور الثلاثة موجودة في قلبـأكثر مـن يدعي الإيمان أم لا ؟ "(1) اهـ .

الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله.

هذا النوع من أخطر الأمور وأعظمها جرمًا على من يحكم بغير ما أنزل الله ويقرر شريعة للناس من عند نفسه ويحرم ما لم يأذن به الله –تعالى- وهذا من نواقض كلمة التوحيد التي هي الشهادة بأن الله هو الإله الذي تألهه القلـوب بالحب والتعظيم و الطاعة والإنقياد، ومن أشدها أيضًا مناقضة للشهادة بـأن محمدًا رسول الله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم العباد هذا لمـا

---

(1) التبيان في أقسام القرآن ص 430-431

بقي لطاغية في الأرض وجود ولما استطاع مخلوق مهما كانت مكانته أن يضع تشريعًا مضمونه الكفر بالله ويكون سببًا في تنحية شرع الله الحكيم ويرفع من شأن القانون الأثيم.

والناظر في حال المسلمين اليوم يجد أنم اهتموا اهتمامًا بالغًا بالقوانين البشرية وزهدوا في الأحكام السماوية إلا من رحم الله، ونتيجة لهذا الانحراف نزل بم الذل والهوان وتسليط الأعداء فسلبوا أراضيهم وقتلوا شيوخهم وأطفالهم وانتهكوا أعراضهم وذلك بسبب بعد المسلمين عن حكم الله ورسوله وتحكيم ما اخترعته العقول الضالة، أصحابا يعادون الإسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة ولنستمع إلى ما ذكره ابن كثير في شأن ما حل بالمسلمين أيام التتار وذلك عند قوله –تعالى- {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون}(1).

قال رحمه الله: "ينكر الله –تعالى- على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والإصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونا بآرائهم، وكما يحكم به التتار من سياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم "جنكيز خان" الذي وضع لهم الياسق ؛ وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية، والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونا على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صص فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير"

---

(1) سورة {المائدة آية: 50}.

ا.هـ[1].

وقد فصل الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله –تعالى- أحوال وأحكام من حكم بغير شرع الله في رسالته القيمة تحكيم القوانين فقال رحمه الله:

الصورة الأولى: إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله وهو معنى ما روي عن ابن عباس واختاره ابن جرير[2] وجحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن من الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعًا مجمعًا عليه، أو أنكر حرفًا مما جاء به الرسول صص قطعيًا فإنه كافر كفرًا ينقل عن الملة.

الصورة الثانية: إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حي ولكنه اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ احسن من حكمه، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس وما استجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال فهذا لا ريب في كفره لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله –تعالى- وسنة رسول الله ﷺ نصًا أو ظاهرًا أو استنباطًا أو غير ذلك علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

الصورة الثالثة: أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ولكن اعتقد أنه مثله فهذا كالنوعين السابقين كافر كفرًا ينقل عن الملة لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

الصورة الرابعة: من اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهو كالذي قبله.

---

(1) تفسير القرآن العظيم 590/2.

(2) جامع البيان 257/6.

الصورة الخامسة: من أعظم ذلك وأظهرها معانـدة للشـرع ومكـابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله: إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القـانون الوضعي كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني أو غيرها من مـذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر؟ وأي مناقضة لشهادة بأن محمدًا رسول الله بعد هذه المناقضة.

الصورة السادسة: ما يحكم به كثير من رؤساء العشـائر والقبائـل مـن البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعـاداتهم الـتي يسـمونها "سلومهم" يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضًا عن حكم الله.

أما الكفر الذي لا ينقل عن الملة: والذي ورد عن ابن عبـاس رضـي الله عنهما بأنه كفر دون كفر وقوله أيضًا: "ليس بالكفر تذهبون إليه" فذلك مثل أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق و اعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى وهـذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها فإن معصية سماها الله في كتابه كفرًا أعظم من معصية لم يسمها الله كفرًا" ا.هـ(1).

ولخطورة هذا النوع من رؤوس الطواغيت أسهبنا في الكـلام حولـه إذ الحكم بغير ما أنزل الله قد عم وطم الكثير من الكرة الأرضية إلا من رحم الله –تعالى- مثل بعض البلدان التي أراد الله لها الخير فتمسكت بكتاب ربها وسنة نبيها فحماها الله من الاضطرابات وعمها الخير والرخاء.

والذي نخلص إليه مما قدمنا ذكره أن الطاغوت شامل لكل معبود دون الله وكل رأس ضلال يدعو إلى الباطل ويزينه لمتبعيه كما أنه يشمل كل من نصبه

---

(1) تحكيم القوانين ص(9-11).

الناس للحكم بينهم فحكم بأحكام الجاهلية المنتنة المضادة لحكم رب العـالمين وحكم رسوله الأمين ﷺ، فالحاكم بغير ما أنزل الله طاغوت لأنه نصب نفسه منصب الإله المشرع، وهنا يظهر معنى مجاوزة الحد في معنى الطاغوت، فـإن الحاكم ملزم بأن يتقيد بأحكام –الرب سبحانه- التي أنزلها لعبيده وأوضحها لهم فعليه أن يطبقها في غاية من الدقة والتحري سواءًا بسواء فإذا ما عـدل عنها وحكم برأيه وهواه فإنه نزل نفسه منزلة الإله المشرع لخلقه وتجاوز حده المحدود له من كونه عبدًا لله ينفذ أحكامه إلى إله مشرع يحكم بما يريد فتجاوز حد العبودية إلى منزلة الألوهية فصار بذلك طاغوتًا لتجاوزه حده الذي حـد له، كما أنه يدخل في معنى الطاغوت الكاهن والساحر وسدنة الأوثان الداعين إلى عبادة المقبورين لأنهم ينسجون من الحكايات المضلة للجهال والموهمة بـأن المقبور ونحوه يقضي الحاجات للذين يقصدونه ويتوجهون إليه وأنه فعل كـذا وكذا مما هو كذب صريح، أو هو من فعل الشياطين.

وبمثل هذه الأكاذيب والأباطيل يوقعون الناس في الشرك الأكبر ولواحقه، "فكل ما صرف الناس عن عبادة ربهم وطاعته فهـو طـاغوت. فالأوثـان والمشاهد والأشجار والقباب التي تعبد من دون الله إنما هي طواغيـت لأنهـا صرفت الكثير من الناس عن عبادة ربهم بحيث صرفوا لهـا كـثيرمن أنـواع العبادات وألهوها.

وأصل أنواع الطواغيت كلها وأعظمها إبليس فهو الطـاغوت الأكـبر والعدو الأعظم لأنه يصرف الناس عن عبادة خالقهم ويغويهم فيعبدون غـير الله ويسفكون الدماء ويحلون الحرام ويحرمون الحلال نسأله –تعـالى- أن لا يجعل للشيطان علينا سبيلاً" (1).

---

(1) انظر الرسالة الثالثة "تعريف العبادات وتوحيده الإخلاص... للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن

النوع الرابع: من رؤوس الطواغيت: من اصطاده الشيطان وأحكمه في شراكه فيدعي العلم بالغيب من دون الله –تعالى- وهذا مما اختص الله به دون غيره. قال تعالى: {وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}(1).

فالعراف والكاهن والرمال والمنجم كلهم محادون لله ورسوله إذ أنهم يدعون العلم بالمغيبات وذلك تكذيب للقرآن والسنة إذ التصريح فيهما بأن علم الغيب من خصائص الألوهية، ومن ادعى علم الغيب فقد أنزل نفسه منزلة الألوهية وكل من ادعى ذلك يعد من المردة أهل الفجور ولو أدعى الصلاح والتقى فإن ذلك كذب وبهتان، لأن التقي الصالح لا يدعي علم الغيب ولا ينازع الله في ربوبيته ولو ادعى هذا لخرج من الإسلام لأن مدعي ذلك كذب الله وروسله فقد قال تعالى لرسول ﷺ آمرًا له بأن يقول: {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء}.

وأن يقول: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقولك لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحي إلي}. إلى غير ذلك من الآيات التي تجرد علم الغيب لله وحده وتنفيه عن غيره من الأنبياء والمرسلين فضلاً عن غيرهم والذي يتأمل ما عليه القبوريون من الاعتقادات الباطلة في أن الأولياء يعلمون الغيب وأنهم النور الفائض من الله وأن فيهم من صفات الربوبية مثل العلم والقدرة والكرم ولذلك يفزعون إليهم في يسرهم وعسرهم ويحبونهم كما يحب المؤمنون ربهم ويدعونهم كدعاء المؤمنين إلاههم .

أبابطين" ضمن مجموعة التوحيد ص401.

(1) سورة {الأنعام آية: 59}.

النوع الخامس: من رؤوس الطواغيت الذي يعبد من دون الله وهـو راض بالعبادة قال –تعالى-: {ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهـنم كذلك نجزي الظالمين}(1).

قال ابن جرير رحمه الله –تعالى- يقول –تعالى- ذكره: {ومن يقل} مـن الملائكة {إني إله من دون الله فذلك} الذي يقول ذلك منهم {نجزيه جهـنم} يقول: نثيبه على قيله ذلك جهنم {كذلك نجزي الظالمين} يقول: كما نجـزي من قال: من الملائكة إني إله من دون الله جهنم كذلك نجزي ذلك كل مـن ظلم نفسه، فكفر بالله وعبد غيره.

وقيل: عنى بهذه الآية إبليس، وقال قائلون ذلك: إنما قلنا ذلك لأنه لا أحد من الملائكة قال: إني إله من دون الله سواه. وروي عن ابن جريج وقتادة "إن الآية خاصة بإبليس لأنه دعا إلى عبادة نفسه فـ لت الآية في إبليس" (2).

والدليل قوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميـع عليم} [البقرة: 256].

قال العلامة السعدي: "هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه واتضاح آياته وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمـة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطر له – لا يحتاج إلى الإكراه عليه.

لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو

---

(1) سورة {الأعراف آية: 188}.

(2)

لما تخفي براهينه وآياته.

وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله، فإنه لعناده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجـة، إذا رده ولم يقبله..

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك لـه، وكفر بالطاغوت – وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره – فهذا قد استمسك بالعروة والثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم علـى الـدين الصحيح حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.

ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآيات أن من لم يؤمن بالله. بل كفر بـه، وآمن بالطاغوت فإنه هالك هلاكًا أبديًا، ومعذبٌ عذآبًا سرمديًا.

وقوله: {والله سميع} أي لجميع الأصوات، لاختلاف اللغات، على تفـنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين وخضوع المتضرعين.

{عليم} بما أكنته الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحـد بحسب ما يعلمه من نياته وعمله" (1).

ويقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب: "واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنًـا بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية" (2).

وهذا معنى لا إله إلا الله.

"فإن معنى لا إله إلا الله: كفر بالطاغوت، وإيمان بالله" (3).

"ومعنى الكفر بالطاغوت: هو خلع الأنداد والآلهة التي تدعى من دون الله

---

(1) تيسير الكريم المنان (1/316-317).

(2) الدرر السنية.

(3) حاشية ابن القاسم ص (100).

من القلب، وترك الشرك با رأسًا، وبغضه وعداوته.

ومعنى الإيمان بالله: هو إفراده بالعبادة التي تتضمن غاية الحب بغاية الـذل والانقياد لأمره، وهذا هو الإيمان بالله المستلزم للإيمان بالرسل عليهم السلام، المستلزم لإخلاص العبادة لله تعالى وذلك هو توحيد الله تعالى ودينـه الحـق المستلزم للعلم النافع، والعمل الصالح، وهو حقيقة شهادة أن لا إلـه إلا الله، وحقيقة المعرفة بالله، وحقيقة عبادته وحده لا شريك له" [1].

وفي الحديث: "رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهـاد في سبيل الله".

قال ابن رجب: "فأما رأس الأمر، ويعني بالأمر: الدين الذي بعث به وهو الإسلام وقد جاء تفسيره في الرواية الأخرى بالشهادتين، فمن لم يقـر بهـا ظاهرًا وباطنًا فليس من الإسلام في شيء"[2].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ، ومنازل أهله أعلى المنـازل في الجنة ، كما لهم الرفعة في الدنيا ، فهم الأعلون في الدنيا والآخـرة ، كـان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه ، واستولى على أنواعـه كلها فجاهد في الله حق جهاده بالق

قوله: "وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله".

قال ابن رجب: "وأما ذروة سنامه – وهو أعلى ما فيه وأرفعـه – فهـو الجهاد، وهذا يدل على أنه أفضل الأعمال بعد الفرائض، كما هو قول الإمام

---

(1) تيسير العزيز الحميد (126).

(2) جامع العلوم والحكم (145/2).

أحمد وغيره من العلماء..

وفي الصحيحين عن أبي ذر، قال: قلت يارسول الله أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله" (1).

وفيهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "أفضل الأعمال إيمـان بـالله، ثم جهاد في سبيل الله" (2).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًا(3).

"وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتا، وهو المحك والدليل المفرق بين المحب والمدعي؛ فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهـه، متقربًا إليه ببذل أعز ما بحضرته، يود لو أن له بكل شعرة نفسًا يبذلها في حبه ومرضاته، ويود أن لو قتل فيه ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل(4)، فهو يفدي بنفسه حبيبه وعبده ورسوله، ولسان حاله يقول:

يفديك بالنفس صب لو يكون له أعز من نفسه شيء فداك به

فهو قد سلم نفسه وماله لمشتريها، وعلم أنه لا سبيل إلى أخذ السـلعة إلا ببذل ثمنها؛ {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون} [التوبة: 111].

وإذا كان المعلوم المستقر عند الخَلْق أن علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال في مرضاة المحبوب، فالمحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة إلا له – وكـل محبة سوى محبته فالمحبة له باطلة – أولى بأن َيشْرَعَ لعباده الجهاد الذي هو غاية

---

(1) رواه البخاري (2518)، ومسلم (84)، وأحمد (150/5) وغيرهم.

(2) رواه البخاري (26) و (1519)، ومسلم (83) وأحمد (268/2).

(3) جامع العلوم والحكم (146/2).

(4) وفي ذلك حديث رواه البخاري (7227) عن أبي هريرة.

ما يتقربون به إلى إلههم، وربم وكانت قرابين من قبلهم من الأمم في ذبائحهم وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح في الله مولاهم الحق، فأي حسن يزيـد علـى حسن العبادة، ولهذا ادخرها الله لأكمل الأنبياء، وأكمل الأمم عقلاً وتوحيدًا ومحبة لله"(1).

---

(1) مفتاح دارالسعادة (2/324-325)